

وحصره في أذربيجان ، وقضى على بابك بشدة وبصعوبة بعد ذلك في عهد المعتصم .

محاربة الروم :

والذي كان يقوي من شأن بابك هم الروم ، فقد كان بينه وبينهم حلف على أن يساعدهم برجاله ، وعلى أن يساعدهوه حين حاجته إليهم . وشعر المأمون أن عدوه الأكبر هم الروم . وكان حتى عام ٢١٤ هـ لا يلقي إليهم بالاً كثيراً ، لكنه بعد أن رأى الثورات في مصر والشام وفي الجبال قرّر أن يزيح الروم عن مراكزهم المتقدمة ، فسار إليهم بنفسه بجيش كثيف ودخل بلادهم واستولى فيها على بعض الحصون . ثم عرض له عارض من خروج عليه في مصر وفي الشام ، فذهب وترك الروم في الشتاء ، وإذا بالروم يغدرون بجيشه ، فيأسرون خمسة وعشرين ألف إنسان ، ويسفكون الدم الكثير ، فعاد إليهم . وصمم على أن يقضي عليهم القضاء المبرم فسار في بلادهم ، وأحس ملكهم بأن المأمون جاد في أمره ، فطلب منه الصلح على أن يدفع مئة ألف دينار ، وأن يعيد الأسرى الذين بين يديه ، لكن المأمون لم يرض بهذا واستقر قراره على أن يجلب الأعراب البدو ، ويدفعهم معه في بلاد الروم ، فما استولى على مكان إلا أقامهم فيه وجعله موطنهم ، وهكذا وضع خطة أراد أن ينفذها إلى أن يصل إلى القسطنطينية ، ويقضي فيها على الروم قضاء نهائياً ؛ لكن المنية عاجلته سنة ٢١٨ هـ فمات دون أن يحقق هدفه ، وعاد المعتصم أخوه بالجيش وقد أفضت الخلافة إليه من بعده .



تقلص سلطة الخلفاء العباسيين

محاولة الفرس السيطرة على الحكم :

تقدم معنا البحث عن الخلفاء العباسيين الأوائل حتى المأمون ، صنفناهم في دور مستقل هو عز الدولة العباسية وقوتها . ننتقل إلى دور تقلص قوة الخلافة العباسية وتمكّن الأتراك من السلطان في هذه الفترة . هذا الموضوع تمت جذوره إلى القسم الأول السابق من البحث ، فلننظر في النتائج التي انتهينا إليها من البحث السابق ، ولنعط الخطوط الرئيسية العامة عن هذا العهد . رأينا أن الفرس أرادوا أن يكون لهم مركز في الدولة وأن يكون السلطان في أيديهم ، حاولوا ذلك أولاً قاصدين جعل الخليفة العباسي تحت سلطانهم ، فساعدوا العباسيين على الاستيلاء على الحكم ووزروا لهم ، وتولوا أمورهم ؛ لكن العباسيين لم يشاءوا أن يستسلموا للفرس فكانوا من حين إلى آخر يقتلون وزراءهم الفرس ، وينكّلون بهم ؛ إنّ جُلّ ما استطاع الفرس الوصول إليه هو الإشراف على المرافق الأساسية للدولة ، لكن إشرافهم هذا كان يضطرب مع نكبة وزرائهم ، فيتقلص نفوذهم إلى حين . وكانت آخر محاولة حاولوها هي الالتفاف حول المأمون والتأثير عليه ، فقد ظنوا أن الأمر استتب لهم معه ؛ لكنه كان كأمثاله من الخلفاء العباسيين ، ضربهم ضربة قضت على نفوذهم ، ولو أنه مالاّم في ظواهر الأمور على عادته ،

وانتهى الأمر بالفرس إلى أن فكروا أنه لا محالفة لهم مع العباسيين ، وأنهم إن حالفوهم فلن يصلوا إلى شيء كبير ، وستكون القضية معهم شخصية ، يستفيد الوزير منها إلى حين ؛ فكروا ووصلوا إلى قرار : هو أن يستقلوا عن الحكم العباسي شيئاً فشيئاً ، فساروا في هذا الطريق ، وتشكلت الدولة الطاهرية في خراسان ، وتبعتها دول فارسية أخرى .

رد الفعل عند العرب :

أما العرب فقد رأيناهم غلبوا على أمرهم في أول الحكم العباسي ، لكنهم حاولوا الرجوع إلى الحكم بمؤازرة الخليفة مثل الأمين ، فلم يستطيعوا أن يصلوا إلى الحكم ، والذي استقر عليه أمرهم هو العراق ، فكان في أيديهم لكن العامة من جهة ، ورجال الدين من جهة أخرى كانوا يشغبون ، وكان عليهم أن يقبلوا بهذا الوضع الخطير ، فلعلّ الحظّ ينعفهم في يوم من الأيام ، فيسيطرون على الموقف . هذا وضعهم في العراق ، أما في الشام ، فهم يثورون على الحكم العباسي المرة بعد المرة ، لكنهم يضربون ، وتتوقف ثورتهم . أما الأعراب البدو ، فهؤلاء على شدتهم ومقدرتهم على القتال ، كما كانوا يستطيعون شيئاً كبيراً ، بل أنهكت قواهم الحزازات القديمة ، فهم يتقاتلون قتالاً قليلاً باستمرار ؛ فلم يكن إذاً للعباسيين أن يتحالفوا مع العرب ، وأن يعتمدوا عليهم اعتماداً كاملاً ليكونوا سلطانهم بهم .

حركات آل علي :

أما العنصر الثالث ، وهو آل علي فإنه لا بد أن يكون ذا شأن في الأمور . فالعباسيون قد حاربوه وحاولوا أن يقضوا على حركاته بقوة جيوشهم ، واستعانوا عليه أيضاً بتحالفهم مع رجال الدين الذين استطاعوا

أن يجعلوهم إلى جانبهم بأن اتخذوا سياسة دينية ، فلم يكن لآل علي مجال في النفوذ إليهم ؛ وكانوا قبل ذلك ينفذون إلى بني أمية عن طريق الدين والمتدينين . ولما رأى آل علي أنه ليس باستطاعتهم فعل شيء كبير ، أدخلوا رأيهم إلى قصور الخلفاء مع المعتزلة ، فالمعتزلة^(١) ميالون إلى آل علي ، وإن لم يكونوا شيعي المذهب ، وقد رأينا المأمون يقف إلى جانب آل علي والمعتزلة ، وسنرى أن من يتبعه من الخلفاء لا سيما المعتصم والواثق ، يتبعون السياسة نفسها .

خلافة المعتصم والعنصر التركي :

لم يكن للخليفة العباسي إذاً حليف قوي يستند عليه في تمكين سلطانه ، والمأمون في الدور الثاني من عهده استطاع أن يمكن ذلك السلطان بدهائه وقوته وحسن تفكيره . أما المعتصم الذي حلّ بعده فلم يستطع أن يفعل شيئاً من ذلك ، وقد خيل إليه أنه سيكون في مهب الريح إن بقي بعيداً عن التحالف ، وكان ابن أم تركية ، فوجد حلفاءه الطبيعيين بين الأتراك ، فاتخذهم خدماً له وعبيداً وجيشاً وقواداً^(٢) .

(١) نشأت فرقة المعتزلة في أواخر العهد الأموي ، وهي تتبنى فلسفة دينية تقوم على فكرة الاعتقاد بمعدل الله الذي منح الإنسان إرادة شخصية ، فهو - في رأيهم مخير في عمله : يعمل الخير ويعمل الشر في حدود إمكانه . يستدلون على ذلك بآيات قرآنية ، بينما كان كثير من الناس يعتقدون أن الإنسان مسير ، لا يسيطر على أفعاله . أما القضية الكبرى التي شغلت الناس هي قضية خلق القرآن ، فهم يعتقدون أن القرآن نقله جبريل إلى الرسول ﷺ فهو إذاً منقول ومخلوق ، بينما أهل السنة يعتبرون القرآن صفة من صفات الله ويتزهونه عن الخلق - المنقح .

(٢) لم يكن المعتصم أول من اشترى الغلمان الأتراك واستخدمهم في الحرس والجيش ، بل إن المأمون سبقه إلى ذلك ، ولكن على نطاق ضيق ، وذلك بعد عودته إلى بغداد - المنقح .

وهنا ندخل في دور جديد من أدوار الخلافة العباسية ، وعلينا أن نبحت قليلاً في الأتراك ، فهم عنصر كان في ذلك العهد قوي الشكينة كل القوة ، وكانوا مترنين على أعمال الغزو ، وعلى ركوب الخيل ، وعلى الأسلحة والفروسية . أصلهم من شمالي الصين ، أتوا إلى ما وراء النهر ، فكانت لهم حصونهم وقلاعهم ، وقد أتوا إليها للكسب مهاجرين من الأمكنة التي لا يستطيعون أن يعيشوا فيها . هؤلاء الأتراك لم يكونوا مثقفين أبداً ؛ بل كانوا شبه أميين وكانت مقدرتهم الفكرية ضعيفة ، ولم يكونوا متحضرين كما كان العرب والفرس ، وجل شأنهم السلاح والمقدرة الحربية ، فظن المعتصم أنهم مخالفون غير خطرين ، فاستقدمهم وأكثر من شرائهم ، وأرسل في طلبهم ، حتى كان له - على ما يقال - سبعون ألف فارس تركي في خدمته . وهكذا تخيل المعتصم أنه ركّز قوته على عنصر مهمّ ، وأن الأمر سيستقيم له بهذا العنصر .

وكان المعتصم قويّ الشكينة ، قوي الجسم قوة هائلة ، بحيث كان يحمل الأبطال الهائلة ، وكان يقاتل بأحسن أنواع القتال ، وكان يمسك بالعود من الحديد ، فيثنيه مرات إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة التي اشتهر بها في ميدان القوة .

كان يحب الترك لقوتهم أيضاً ، لكنه لم يكن يدع لهم مجالاً في السيطرة عليه ، وبقي هو المسيطر عليهم ، إنما هم عنده عبيد وخدم ؛ غير أنه شعر بخطرهم عندما أخذ أهل بغداد يتذمرون منهم ، فقد كانوا ينزلون بخيولهم إلى الأسواق فيطؤون الصبيان والعجزة ، فيثور عليهم العامة ، ويقتلون منهم ، ويذهب دم المقتولين هدرًا . زاد استياء الناس منهم حتى

وجد المعتصم أن الحالة لا يمكن أن تستمر ففكر ، وأدى به تفكيره إلى أمر خطير وهو أنه رأى أن من واجبه أن ينتقل من بغداد إلى مدينة أخرى يقرّ فيها أتباعه ، فيكون قد أبعد جنده عن كافة الناس وتحصن هو من الفرس ، وتحصن من آل علي .

بناء مدينة سُرّ من رأى :

شرع في بناء مدينة سُرّ من رأى (سامراء ^(١)) . بناها على مسافة من بغداد (على بُعد مئة وأربعين كيلو متراً تقريباً) ، وانتخب لها مكاناً عالياً حصيناً ، أوصل إليه الماء وزوّده بأسباب الدفاع والصمود . وسع المدينة وعرّض طرقاتها ، كيلا يصطدم الجيش بالشعب ، وجعل في سامراء شارعاً (اسمه الشارع العظيم) ، وهو طويل جداً وعريض جداً ، وبني في سامراء القصور ، وأقطعها لأصحابه وجيشه وأتراكه ، فصار للأتراك أراض يقيمون فيها وبيوت ومساكن ، وتمكنوا من المكان الذي هم فيه ، فأصبحوا أسياد المدينة ، وأصبحت المدينة لهم ، فلأجلهم عمرت وبهم تقوم . من الطبيعي أنهم في عهد المعتصم لا يقدرّون أن ينقلبوا على الخليفة ، لكنهم في سامراء في بلدهم ، والزمن يتقدم وسلطانهم يتقدم أيضاً .

(١) يقال إن اسم المدينة تحوّر إلى (ساء من رأى) بعد خرابها ، فأصبحت الكلمة (سامراء) - المنقح .

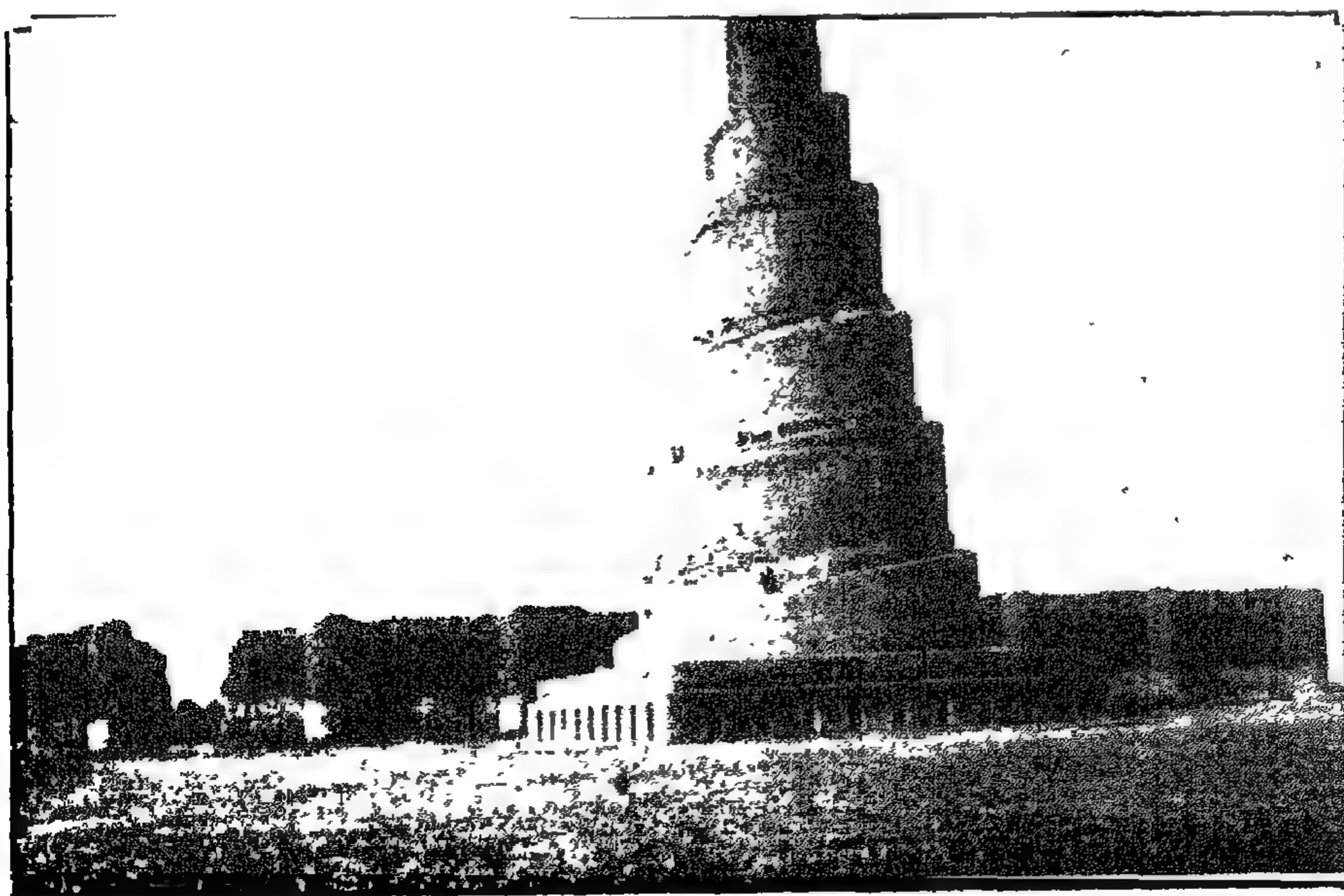


جوانب من أطلال مدينة سامرا عن (كرزويل)

خلافة الواثق ثم المتوكل :

توفي المعتصم عام سبعة وعشرين ومئتين للهجرة ، قام بالأمر من بعده ابنه الواثق . سار الواثق على خطة أبيه وعمه المأمون ، فحالف المعتزلة ، وحالف الأتراك وكان الواثق يشبه المأمون بمعرفته العلمية ، حتى كان يسمى المأمون الأصغر ، لكنه لم يكن بدهاء المأمون ، ولم يكن في ميدان السياسة بمعرفته ، فألقى بمقاليد أموره لوزرائه ولقواده الأتراك ، فترك لأشناس إدارة غربي الدولة ولأيتاخ إدارة شرقيها ، فتقسمت المملكة بين الاثنين

وأصبحت سيدي الأمر فيها . وغلط الوثائق غلطة أخرى : وهي أنه لم يعهد بولاية العهد من بعده لإنسان ، بل توفي ، ولم يكن للدولة وليّ للعهد ، ففُضِرَ بذلك التقليد الذي سار عليه الخلفاء منذ عصر معاوية ، وترك الأمور تضطرب بين أيدي الأتراك وبين أيدي وزرائه ، ومدّ الأتراك يدهم ، فبحثوا مع الوزراء فيمن يولونه الخلافة ، فوجدوا ابناً للوثائق ، ألبسوه ثوب الخلافة ، فوجدوه كبيراً عليه ، فخلعوه عنه ، والتجؤوا إلى المتوكل أخي الوثائق ، فجعلوه خليفة ، وهكذا أصبح الأتراك هم الذين يولون الخليفة . توالى الأغلاط السياسية من الخلفاء العباسيين ، ففتحت للأتراك أبواب استجلاب أبناء جلدتهم مما وراء النهر ، على مقياس واسع ، الأمر الذي جعلهم أصحاب عاصمة الخلافة ، وأسياد البلاد ، يولون الخليفة نفسه ، أليس كل هذا بكاف ليشتهوا ، فيظنوا أن الأمر وصل إلى أيديهم ولن يخرج منها .



المئذنة الملوية في سامرا (تصوير المديرية العامة للآثار العراقية)

سياسة المتوكل المناهضة للترك :

جاء المتوكل إلى الخلافة فوجد أن الأمر على ما وصفنا ، حاول أن يوقف ذلك التيار ، ووضع خطة لذلك ، وظن أنه قادر على تنفيذها ، ذلك أنه أبعد نفسه عن الأتراك ، وبحث عن حليف جديد ، فوجد حليفه في أهل العراق من أهل بغداد . وأهل بغداد - كما قلنا - عرب أكثرهم سنيون على طريقة أهل السلف ، ولا يقبلون بالاعتزال ، فكان على الخليفة المتوكل أن يحارب الاعتزال ليرضيهم ، فضرب الاعتزال ضربة شديدة ، وأطلق المسجونين من أهل السنة الذين كانوا قد أوقفوا لعدم قولهم بخلق القرآن ، وأطلق سراحهم وقرّ بهم إليه . وأبعد المعتزلة واضطهدهم ، بل كان يشترط في فداء الأسرى المحجوزين عند الروم أن يقرّ الأسير بأن القرآن غير مخلوق ، وأن يقرّ بمخالفته لأهل العدل والتوحيد . وقد ذكرنا أن المعتزلة كانوا ميالين بعض الميل إلى الفكرة العلوية . حارب المتوكل تلك الفكرة بمحاربته المعتزلة ، واضطهد آل علي باضطهاده للمعتزلة ، وتشدد وتزمت في تعصبه للدين ، فاضطهد أهل الذمة اضطهاداً شديداً ، وهدم كنائسهم المحدثه ، وأبعدهم عن دواوينه ، ولم يقبل بتعيين أحد منهم فيها ، وفرقهم عن الشعب والمسلمين ، فجعلهم لا يركبون إلا البراذين والبغال ، دون الحمير والخيول ، وألزمهم بأن يضعوا على أبواب بيوتهم صوراً وتمائيل للشياطين ، وألزمهم بأن يقتصروا على السروج الخشبية . وهكذا ضيق عليهم كل التضييق ، وهو في ذلك يحاول أن يتقرب من عامّة الناس الذين كانوا يضيقون صدرأ بأهل الذمة . قرب المتوكل التجار والصناع والفلاحين وأغدق عليهم الأموال ، وأراد إصلاح الأرض وإجراء الأقنية ، بل تقرب من الناس بشيء عزيز على نفوسهم ، هو أنه أجّل أخذ الخراج المفروض على المزروعات إلى ما بعد نضج الثمر ، لكن هذا الإصلاح لم يدم ، فقد عاجلته المنية قبل تنفيذه .

فالتوكل إذا تقرب من الشعب ، وجعل الشعب حليفه ، وحالف أيضاً العرب ، بل إنه استقدم إلى بغداد من العرب عدداً كبيراً ، أدخلهم في جيشه أو بالأحرى في جيش ابنه المعتز ، وقصد أن يرجح بهم على كفة الأتراك ... كل هذا ليوقف أمام الأتراك وليضربهم . حاول أيضاً أن يوقع بين الأتراك أنفسهم ، فجعلهم يتفرقون شيعاً وأحزاباً ، وضرب بعضهم ببعض ، بل ضرب أحدهم ضربة شديدة . بعد أن تمكن من الأمر ، وهو أيتاخ فإنه حسن له أن يذهب إلى الحج ، ولما سار إلى الحج عيّن بُغا مكانه ، ولما رجع إلى بغداد ألقى القبض عليه ، وسجنه وبقي في السجن إلى أن مات .

ثم إن المتوكل أراد أن يبتعد كل البعد عن الأتراك ، وأن يسيطر عليهم من بعيد ، فنقل عاصمته إلى دمشق^(١) بين العرب وأقام فيها ؛ واتخذ حزبه من أهلها . غير أنه لم يفلح في هذا ، فالأتراك ثاروا عليه في العراق وطالبوا بأرزاقهم ، وكادت تحصل فتنة لولا أن بُغا وقف إلى جانبه ، وأصلح الأمور . ووجد المتوكل أنه أطلق زمام الأمر في العراق إلى الأتراك ، ولبت بعيداً عنهم ؛ فعاد إليهم ليراقبهم منها ، لكنه لم يرض بأن يعود إلى سامراء ، وأن يكون رهينة بين أيديهم ، بل عمر مدينة لنفسه قريبة من سامراء وسماها باسمه المتوكلية ، وأقام فيها جنده وحاشيته .

أخطاء المتوكل :

بكل ذلك تخيل المتوكل أنه يستطيع القضاء على سلطان الأتراك ، وهو ما كان باستطاعته أن يقضي عليهم قضاء نهائياً ؛ لأنهم كانوا في جدران عاصمته بالذات ، وكانوا أقوياء ، وكانوا ينتظرون منه الخطأ القليل لينقضوا عليه . أخطأ هو كما أخطأ من سبقه كالوائق والمعتصم فبدد أموال الدولة

(١) حاول أن ينقل عاصمته إلى دمشق لكنه لم يوفق - النتج .

ببناء القصور وإلال بناء سامراء وبناء المتوكلية حتى أنه كان يعجز بعض العجز عن تأدية أعطيائهم . وجد الأتراك عندئذ أن مصلحتهم أن يجتمعوا بعد أن يكون المتوكل قد فرّقهم ، ويتألبوا عليه بعد أن يكون قد ظن أنه أوقع بهم في الخصام .

ثم أخطأ خطأ كبيراً ، ففعل كما فعل جدّه الرشيد ، وعهد بولاية العهد من بعده لأبنائه الثلاثة القصر الصغار ، واحد بعد الآخر : المنتصر فالمعتز فالمؤيد . وقسم الدولة بينهم ، وأعطى المنتصر أكبرهم حصة الأسد . وهكذا أوقع أولاده في الخلاف فيما بينهم ، وسار هو بعد ذلك مع ميوله وعاطفته ، فوقف إلى جانب المعتز ، وصار يصدق عليه الأموال ، وأهل ابنه المنتصر ، وعهد للمعتز بخزن بيوت الأموال ودور الضرب ، وكان يتهم على المنتصر ويستبعده ، فاضطرب المنتصر لذلك ، ووجد الأتراك بغيتهم فتقربوا إلى المنتصر ، وتحالفوا معه ، وأوغروا صدره على والده ؛ وكان موغراً قبل ذلك ؛ ولما تبين لهم أن المتوكل يريد أن يقتل وصيفاً وبغا وهما رئيسا المفضلان ، تجمعوا وأقبلوا على المنتصر يحرضونه على والده ، وساروا إلى المتوكل جميعاً ، فوجدوه يشرب ، فقتلوه وهو على مائدة الشراب .

الأتراك يستبدون بالأمر :

وهكذا أصبح الأتراك قتلة الخلفاء ، وأصبح الخلفاء يخشون شرهم ومن أتى من الخلفاء من بعد ذلك ساروا حسب إرادتهم ، وانضوا إلى لوائهم ، فلم يجد ما فعله المتوكل معهم ، ولم تنفعه شخصيته القوية ومهارته وحكمته لأنهم قد تمكنوا في العراق ، وأصبحوا أصحاب الأمر فيه .



الثورات :

أصبح الأتراك في هذا العهد أسيادا ، يخلعون الخلفاء ، ويقيمون غيرهم مكانهم . إن العهد الذي يتسم بتقلص سلطة الخلافة من عهد المعتصم والواثق والمتوكل ، لا يحوي فقط أثر الأتراك وتسلطهم على الدولة ، فهو عهد يتلو ما قبله ، ويكمل ما فيه ، ويرث ما عنده ، وليس هو عهداً حديثاً ، بل إنه يكمل عهداً قديماً . إذن ينبغي علينا أن نتكلم عن آثار العهد السابق فيه وامتدادها إليه ، فنستعرض في سبيل ذلك الثورات الداخلية والحروب ، والحالة الاقتصادية وما تبعها .

ثورة بابك الخرمي :

أما الثورات ، فطبيعي أن يكون هذا العهد قد ورث عن العهد السابق امتداد الثورات التي كانت تقلق راحة الخلفاء فيه . كانت أول ثورة امتدت إلى هذا العصر هي ثورة (بابك) وقد بحثنا في هذه الثورة في عصر المأمون ، ورأينا أنها أنهكت جيشه مدة من الزمن ، مع أنه استطاع أن يدفعها بعيدا ، وتوفي قبل أن يقضي عليها ؛ أتى المعتصم فكان عليه أن يحو أثرها فجهز إليها الجيوش الكبيرة الضخمة ، وعمل غاية جهده فمحاها عن بكرة أبيها .

ثورة المازيار :

غير أن ثورة جديدة ظهرت في الجو ، وهي تشبه ثورة بابك ، ألا وهي ثورة المازيار . فالمازيار خرمي إباحي ، ظهر في طبرستان ، وامتدت قوته ؛ واضطر المعتصم إلى أن يطلب العون من عبد الله بن طاهر ليقضي على فتنه . هاتان الثورتان ، ثورة بابك وثورة المازيار ، تدلان

على جَيْشَان عند الفرس ، ورغبة منهم في الابتعاد عن الخلافة ، وفي الوصول إلى مطالب خاصة . بعض الفرس قد اعتنقوا الخَرَمِيَّة ليفتدوا أنفسهم من حكم العرب ، وليفتدوا أنفسهم أيضاً من حكم أصحاب الإقطاع الفرس ، الأغنياء ، المتحكمين . ليس غريباً أن نرى الفرس ذوي النزعة الدينية الإسلامية الصحيحة يحاربون هذا الاتجاه بأثر من التدين ، وأن نرى ذوي المصلحة يحاربونه أيضاً ، كما فعل عبد الله بن طاهر .

الثورات العربية :

هذه القبائل العربية في الجزيرة ثور ، لكن ثورتها ليست موجهة ضد الدولة ، فهي اختلاف بين القبائل ، وهي ثورة نفسية تتطلب شيئاً لا تدرك ما هو على الضبط : ثار بنو سُلَيم ثم ثار بنو فزارة ثم بنو نُمير ، لكن ثوراتها هذه ظلت ثورات محلية محدودة . قضى عليها بُغا قائد المعتمد قضاءً سريعاً . وثارَت القبائل العربية في أذربيجان ، وحضت غيرها من الناس على الثورة ، وهي قبائل في معظمها مشكّلة من بني ربيعة بن وائل ، ثارت في عهد المتوكل ، فأرسل إليها بُغا أيضاً ، فأخذ فتنتها .

تربص آل علي :

إذن يأخذ هذا العهد من العهد السابق ثوراته ، ونرى أن بعض آل علي يحاولون أيضاً محاولات لا تظهر واضحة إلا في العصر اللاحق .



العلاقات مع الروم البيزنطيين :

والأمر الخطير في حوادث هذا العهد هو الحرب مع الروم ، فقد ظهر شيء جديد في جو هذه الحرب : ذلك أن الروم بعد أن كانوا مغلوبين ،

أصبحوا الآن يغيرون على البلاد العربية : ويفتحون ثغرات في أرض المسلمين وأصقاعهم ، وأصبحوا الآن أقوىاء . يعتبر هذا العصر بداية انقلاب في اتجاههم ، ينتهي بإقامة دولة بيزنطية جديدة سنة ٢٥٦ هـ = ٨٦٧ م اسمها الدولة المقدونية ، دولة قوّت الحكم البيزنطي ، وبعثته من جديد ، وسارت في طرائق اليونان القديمة ، وبنت وأقامت وسائل الحضارة . شرع البيزنطيون في هذا العهد يظهرون قوتهم ، ومارست تلك القوة نشاطها في محاربة العرب ؛ فبعد أن كان الروم يتلقون الهجمات العربية أصبحوا هم المهاجمين . ولا ريب أن العرب المسلمين استطاعوا أن يوقفوا هذا التيار وذلك الاندفاع ؛ وكانوا يؤدّبون الروم في بعض الأحيان تأديباً قوياً ؛ لكن هذا الاتجاه الجديد يعتبر حادثة من الحوادث الكبرى في هذا العصر ، وقد تغيّر فيه ميزان القوى ، وأصبح الروم يحسب حسابهم . وكان على المسلمين أن يقووا أنفسهم في الداخل ليستطيعوا مقاومة الروم مقاومة مُجدية ، غير أنهم مع الأسف لم يفعلوا ذلك ؛ فكان أن اشتط الروم في العهود التالية اشتطاطاً كبيراً ، حتى وصلوا إلى حلب وما بعد حلب .

أما في هذا العهد الذي ندرسه ، فإن الروم - كما قلت - كانوا يغيرون على بلاد المسلمين وثورهم. هذا هو تيوفيل يغزو زِبْطَرَة من ملك الإسلام ، ويأسر الأسرى ، ويأخذ الأطفال والنساء بعدد كبير ، وتصيح امرأة هاشمية من بين الأسرى « وامعتصاه » ، فينتقل هذا الخبر إلى المعتصم في مجلس ملكه وخلافته ، فيهب واقفاً ، ويستدعي آلة حربه ، فيشدّها على ظهره ، ويخرج من قصره إلى مخيمه بعد أن يقول : « لبيك » ، ويأبى أن يرفع آلة الحرب من على جسمه إلا بعد أن يلي نداء تلك الهاشمية . وبعد مدة يسيرة ينطلق هو وجيش عظيم هائل - لم ير مثله - إلى بلاد الروم .

ويلقي القبض في أثناء الطريق على أحد الأسرى الروم ، ويسأله عن بلد ملكهم ، فيعرف أن تيوفيل ولد في عمورية ، وأنها البلدة الحصينة العظيمة التي يعلق عليها الروم الشأن العظيم ، فيقرّ قراره على أن يغزو هذه المدينة ، وأن يهدمها انتقاماً لما فعله ملك الروم ، ويسير إليها فيحاصرها محاصرة أجدت في آخر الأمر ، فدخل المدينة وهدمها ، ونقل باباً من أبوابها إلى بغداد . بقي هذا الباب في بغداد حتى عصر التتار .

اقتص المعتصم للهاشمية من الروم الغزاة ، لكن الروم لم يرعوا ، بل عادوا بعد عصره إلى الغزو أيضاً على بلاد المسلمين ، ففي سنة مئتين وإحدى وأربعين للهجرة أغاروا على عين زربه وقبضوا فيها على أسرى كثيرين ، وكانت ملكتهم تيودورة^(١) فقتلت اثني عشر ألف مسلم رفضوا أن يتنسروا . قاتلها المسلمون ، ثم آل الأمر إلى نوع من الصلح المؤقت ، افتدي به الأسرى من الطرفين .

من هذه الحوادث يظهر لنا أن الروم قد نشؤوا نشأة جديدة ، وأن خطرهم أصبح جسيماً ، ولم يستطع المسلمون في العصور السابقة أن يقضوا على الروم ، وأن يحتلوا القسطنطينية بسبب مشاكلهم الداخلية . وعندما بدأ نجم المسلمين بالأفول ، أخذ يعلو حظ الروم وطمعوا بالبلاد الإسلامية .

الحالة الاقتصادية :

أما الحالة الاقتصادية ، فهي اتصال بالحالة الاقتصادية في العهد السابق ، إلا أن الموارد بدأت تجفّ ، والنفقات أخذت تزيد ، فالعهد السابق كان عهد غنى كبير وثروة هائلة ، ودخل عظيم . استمر هذا العصر في أوله

(١) يذكر اسمها المؤرخون العرب (تذويرة) - المنقح .

على هذا النحو ، لكن المعتمد ، وقد اتخذ الأتراك حلفاء له ، اضطر - كما رأينا - إلى أن يعمر مدينة جديدة ، ويحصنها وهي مدينة سامراء ، وعمر المتوكل قسماً كبيراً من المدينة أيضاً ، وعمر أيضاً مدينة المتوكلية وعدداً هائلاً من القصور ، حتى أنه بلغ ما أنفقته على البناء تسعين ومئتي مليون درهم ، أي ما يقارب اثني عشر مليون دينار ، وهو مبلغ ضخم ؛ وكانت حالة الدولة لا تتحمل كل هذه النفقات ، بل كان يحدث في أثناء البناء أخطاء تنفق الدولة على إصلاحها المال الكثير ، فيذهب هذا المال هدرًا ، ومثال ذلك ، أن المتوكل حاول شق فرع من نهر الدجلة ، يصل إلى الأماكن العالية من سامراء ، ثم تبين أن المهندسين أخطؤوا خطأ فاحشاً في التقدير ، فالماء لا يبلغ ارتفاعه ارتفاع الأماكن التي كان مقدرًا له أن يصل إليها ، وهكذا ذهب كل عمل عملوه في سبيل ذلك هدرًا وبطلاً . هذا وكانت النفقات كثيرة في غير ذلك من الأمور : نفقات الخلفاء والحاشية والبلاط ، فحاشية الخلفاء واسعة والنفقة عليها واجبة ، وجيش الترك يتطلب الرواتب الضخمة ، وهو لا ينتظر طويلاً لقبضها . لذا كان الخليفة دومًا بحاجة إلى المال . أما الدخل فلم يكن كما كان عليه سابقاً في عهد الرشيد ؛ فالرشيد كان هو المتولي على المال في عهده الثاني ، وكان البرامكة هم المتوكلين على المال في العهد الأول . أما في الفترة التي ندرسها ، فالولاة المنتشرون في أنحاء الدولة قد شعروا بشيء من الاستقلال والقوة ، فهم لا يؤدون كل ما عليهم بكامله ؛ والذي يصل إلى بغداد ، فإن دار الخلافة لا تستفيد إلا من قسم يسير منه . ثم إن الخلفاء اعتادوا في هذا العهد على إقطاع الأتراك ورجال الدولة إقطاعاً واسعاً ، فأصبحت معظم الأراضي في يد هؤلاء الكبار من رجال الدولة ، وهم لا يؤدون منها ما عليهم من ضرائب ، بل هم طامعون في أكثر مما بأيديهم . ثم إنهم لا يلتفتون إلى أملاكهم وإلى تحسين زراعتها ، فكانوا

يتركون أمر إقطاعاتهم إلى وكلائهم . وهي إقطاعات واسعة لا يهتم بها الوكلاء كل الاهتمام . والأرض إن لم يكن صاحبها مهتماً بها ، وإن لم يكن محتاجاً إلى ثمرتها ، فإنها لا تدرّ عليه الثمرة كما ينبغي .

كذا كانت الحالة المادية في آخر العهد الذي نتكلم عنه ، حالة سيئة بعد أن كانت في أوله مزدهرة . وهي حالة ورثها هذا العهد وأورثها للذي بعده ، فزاد الاضطراب ، وقوي الشغب من الأتراك بالمطالبة برواتبهم ، وخفّ دَخَلَ الخليفة ، وقصرت يده عن المال .

السعي لإيجاد موارد جديدة :

وفي عهدنا هذا سعى الخلفاء كي يجدوا أبواباً جديدة من الدخل ، فوجدوا ذلك عند كُتَّاب الخراج ، وكانت لا ترد إلى خزانة الخلافة الضرائب التي كانت تجبي ؛ لأن كُتَّاب الخراج كانوا يستولسون على هذه الضرائب ويتقاسمونها فيما بينهم قبل أن يودعوها بيوت المال . والذي يدخل منها خزانة المال قسم ضئيل . من هذا كله حصلت الرشوة ، وحصل اضطهاد المكلفين لأداء الضريبة ؛ وذلك ليصل الكُتَّاب إلى أكبر حظ من الكسب والربح والمال . ووجد الخلفاء الحاجة إلى الأموال ، يؤدونها إلى الأتراك والحاشية ، ويسيرون بها أمور الدولة ، إلى جانب ما يعمرن بها من بناء ، ووجدوا هؤلاء الكُتَّاب قد أثروا ثراء فاحشاً ، فمَدَّوا أيديهم إليهم ، وأخذوا يحاسبونهم على المال الذي عندهم ، وصاروا يصادرون تلك الأموال بعد نكبة كبيرة ينكبونهم بها : فيضربون الكاتب ضرباً مبرحاً ، ويستنطقونه على ما أخذ من أموال ، وعلى ما كتب لنفسه من ضياع ، ثم يصادرون كل ذلك ، ويضعون كاتباً جديداً . وقد يكون الكاتب الجديد هو الذي سعى بفضح الكاتب القديم ليحلّ محله ، فيأخذ الكاتب الجديد بجمع الأموال جمعاً

كبيراً ، ثم بنكب هو بدوره ، ثم يأتي من بعده كاتب آخر ، تحلّ به النكبة فيما بعد .. وعلى هذا النحو، فقد أصبحت عادة المصادرة هي عادة الدولة في هذا العهد ، أورثها العهد الذي بعده ، وأصبحت سنة عند الخلفاء، لكنها سنة سيئة للغاية ، فالكاتب كان عليه أن يثري بسرعة ، حتى لا تأتيه يد الخليفة بسرعة ، فتقف على ما عنده ، والخليفة كان بحاجة إلى المال ، ويتطلب تأمينه بسرعة ، وكان يطلب أكثر مما يستطيع الكاتب أن يعطي خوفاً من التهريب ، وينتهي كل ذلك بنكبة هائلة للكاتب يتبع ذلك تشويش واضطراب لأعمال الدولة ومصالحها . أما دافع الضريبة فكان يئن تحت الأعباء الثقيلة . قد حاول بعض الخلفاء أن يرفعوا الجور عن الشعب ، وفهموا أن تشجيع التجارة يزيد في دخل الدولة ، فشجعوا التجارة تشجيعاً كبيراً ، وألقوا عن كاهل التجار بعض الضرائب التي كانت توضع عليهم . مثال ذلك أن التجار الذين كانوا يتاجرون مع الصين ، رفع عنهم العشر الذي كان يؤخذ منهم كرسوم دخول .

محاولة إصلاح نظام الضرائب :

حاول المتوكل أن يقوم بالإصلاح الزراعي لرفع الغبن عن الناس في الضرائب ، فقد كان المزارعون يدفعون الضرائب قبل خروج الثمر فيتضايقون من ذلك ، فأجلّ دفع الضرائب عنهم حتى بعد الحصول على الثمر ، لكن الخليفة قتل قبل أن يأخذ ذلك مجرى العادة ، وعادت الأمور بعده إلى مجراها السابق .

تدهور النظام المالي :

وبالجملة ساءت الأحوال سوءاً شديداً اعتباراً من هذا العهد ، وأصبحت المصادرة من أهم وسائل دخل الخليفة . هذا هو الواقع يصادر في عهده ألفي

ألف دينار ؛ أما المتوكل فقد نُمي إليه أن عدداً من كُتّابه جمعوا الأموال ،
فألقي القبض عليهم . رضي كاتبان منهم أن يقدموا ألفي ألف دينار دون أن
يعذبا ، فقبل منهما ذلك ، وأطلق سراحهما . أضف إلى ذلك كله أن شؤون
الوزارة اضطربت ، والخليفة لا يستطيع القيام بالأمر ، لأنه مشغول البال ؛
لذا كان يلقي مقاليد أمره إلى وزرائه ، إلا أن هؤلاء كانوا غير صالحين ،
وكان معظم وزراء هذا العهد أميين أو شبه أميين ، لا يعرفون كيف
يتصرفون في شؤونهم الخاصة ، فكيف وقد أسند إليهم التصرف بالشؤون
العامة ؟ أتى من الوزراء وزير عارف هو عبد الملك بن الزيات ، لكنه
كان شديداً قاسياً ظالماً ، فسارت الأمور على بعض النظام في عهده ، لكن
هذا التنظيم كان تنظيم القوة والشدة ، حتى أنه أحدث تنوراً ليضع فيه من
يريد أن يعذبه ؛ إلا أنه أخيراً وضع هو في التنور وقتل فيه .

أخيراً نرى أن هذا العهد ، ورث عن العهود السابقة عواقب الثورات
وحروب الروم ؛ لكنه أورث العهود التي تلتها حالة مادية ضيقة واضطراباً
في شؤون الخلافة . ولعل ذلك كله يرجع إلى ما أحدثته الانقلاب الذي
صنعه المعتصم في جلبه الأتراك من بلادهم وتقريبهم وإتاحة الفرصة أمامهم
ليستبدوا بالسلطة .



تضعف الخلافة العباسية

(٢٤٧ - ٢٥٦ هـ)

رأينا في البحث الماضي تقلص الخلافة العباسية ، وتدهور نفوذها وإمساك الأتراك بزمام الأمر يديرونه بسلطانهم وقوتهم ، وسرى في هذا البحث كيف أدى ذلك إلى تضعف الخلافة العباسية حتى كاد أن يقضي عليها . ولا ريب أن الأحداث السيئة إذا ألت بإنسان أو جماعة أو دولة ، تراكت عليه وأخذت بأطرافه جميعها ، فإنه ينوء بحمله ويخرج الأمر من يده ؛ وهذا ما حصل للخلافة العباسية ؛ فقد اجتمعت حوادث الأتراك وتراكت وأخذت تسيء إلى تلك الدولة ، فكادت تنقض أركانها .

تلخيص أحوال الخلافة في هذه الفترة :

أحدثت تلك الحوادث مظاهر في تلك الخلافة ، يمكن تلخيصها بثلاثة أمور : أولها : إن الخلفاء أصبحوا في أيدي الأتراك كالدمى ، يحركونهم كما يشاؤون ، ويلقونهم على الأرض متى يشاؤون . وثانيها : (وقد أتى من أولها) إن الأمصار أخذت تستقل عن الخلافة العباسية وتبتعد ، وأخذ الأمراء يديرون إماراتهم بأنفسهم ، منتهزين وضع الخلافة السيء . وثالثها : إن ثورة جاعحة في العراق وثبت فجأة أمام عيون الناس ، فكادت تلتهم الأخضر واليابس ، وهي ثورة الزنج .

إن هذه الحوادث وتلك الفتن والمظاهر السيئة لم تقض تماماً على الدولة

العباسية ، إنما خرجت الخلافة منها تحمل آثار الخذلان ، ومع ذلك خرجت منها وهي لا تزال دولة وخلافة ، بعد أن انتشلت نفسها من الردى ، وتخلصت من الأتراك ، وقضت على ثورة الزنج . إن خلاصها هذا أسباباً تأتي في مكانها من البحث . وتتناول قبل كل شيء الفتن الثلاث ، الواحدة بعد الأخرى ، ندرسها دراسة يتم لنا بها معرفة ما تم في عصور تعتبر عصوراً مظلمة ، بالنسبة لبني العباس .

مقتل المتوكل ثم ابنه المنتصر :

بلغ الأتراك بعد قتلهم المتوكل أعلى درجات القوة والسلطان ، فقد أصبحوا قتلة الخلفاء ، ولم يكن من الصعب عليهم أن يجتمعوا على المنتصر ابنه الذي أصبح خليفة ، وأن يرغموه على أن يبعد أخويه عن ولاية العهد . وكان المتوكل - كما رأينا - قد عهد إلى ثلاثة من أولاده بولاية العهد . أما المنتصر هذا فقد حاول أن يتخلص من سلطان الأتراك ، وكان يجهر بذلك فيقول : « إن الأتراك قتلة الخلفاء » يقول ذلك بنوع من الحقد ؛ إلا أن الأتراك لم يمهلوه ؛ فإنه ما انقضى على حكمه ستة أشهر حتى مات ، وهو آسف على ما فعله مع والده ، نادم على أنه كان أول خليفة يقتل أباه . وبديهي أن موته هذا ليس طبيعياً ، فقد كان في نضرة الشباب ، ولا بد أن يداً قد تناولته بالقتل أو بالسّم أو بما يوجب الموت .

خلافة المستعين :

ولما مات المنتصر نظر الأتراك في شأنهم ، فاستبعدوا ابني المتوكل عن الحكم ، وعادوا إلى ابن المعتصم ، فقالوا : المعتصم أستاذنا ومولانا ، فنحن نرى أن ابنه أجدر أن يكون خليفة ، فقلدوا المستعين خليفة ، لكنهم لم يدعوا هذا الخليفة يقوم بأمر الخلافة على ما ينبغي ، بل تمكن من السلطان

فيها أحدهم أتماش ؛ ولم يكن الأتراك الآخرون يريدون أن يتمكن أحدهم من الحكم ، فاجتمع على أتماش وصيف وبغا وقتلاه ، لكنها لم يتمكنوا من السلطان ، بل كان صاحب السلطان هو باغر ، وحاول باغر قتل المستعين ؛ فاتفق المستعين مع وصيف وبغا وهرب إلى بغداد . فندم باغر وأصحابه حين هرب الخليفة منهم ، وكتبوا إليه يستعطفونه ، ويطلبون إليه العودة إلى سامراء ، لكنه لم يستجب إلى مطلبهم ؛ فبحثوا عن خليفة لهم ورجعوا إلى أولاد المتوكل فاختراروا المعتز وولوه الخلافة .

خلافة المعتز :

وقعت الحرب بين المعتز وبين المستعين : والمستعين في بغداد مع أهلها وقائدها محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين ، وقد التحم بقوة المستعين عيارو بغداد وشطارها ؛ وكان المعتز مع الأتراك في سامراء . كان أهل بغداد أكثر عدداً من الأتراك ، لكنهم كانوا غير منظمين . حاول المستعين أن يقطع التموين عن سامراء ، وحاول كل من المعتز والمستعين الحصول على الأموال التي ترد من الأمصار ، لكن المستعين غلب على أمره ، وأحيطت بغداد وحوصرت ، وامتد أمد الحصار ؛ فلم يقدر الشعب على الاستمرار ، وبحث عن مخرج للأمر ، فاتصل قائد بغداد وقاضيهما بالأتراك ، وفاوضهم بالأمر لإنهاء الحرب ، وتم الاتفاق على أن يتنازل المستعين للمعتز عن الخلافة ، فتضمن حياة المستعين . اضطر هذا لقبول الصلح ، فأنقذ بذلك حياته .

أما المعتز الخليفة الثالث في هذه الظروف فإنه لم يستطع العمل أيضا مع الأتراك ، فقد انقسموا عليه ، ومال هو إلى الفراغة^(١) والمغاربة من

(١) أهل فراغة وهم من وراء النهر شرقاً - المنتجع .

الجيش ، فاضطرب أمر الأتراك لهذا الميل ، وظنوا السوء بالمعتز فحضروا إليه وطالبوه بالرواتب ، وكان بيت المال فارغاً ، فلم يستطع أن يؤدي الأموال المطلوبة ، ولجأ إلى والدته قبيحة وطلب منها أن تعينه بخمسين ألف دينار ، فادعت أنها لا تمتلك هذا المبلغ ، وهجم الأتراك على القصر ، وأخذوا الخليفة ، ووضعوه في الشمس فوق الرمل ، يرفع رجله تارة ، وينزلها مرة أخرى من الحر ، وأخذوا يضربونه بدبايسهم ، ثم أرغموه على أن يتنازل عن الخلافة لابن اللواتق الذي لقبوه بالمهتدي ثم قتلوا المعتز بعد ذلك .

خلافة المهتدي :

هذا المهتدي رجل تقي محب للخيرات ، حاول أن يفعل شيئاً في عهده بمقدرة وحكمة ، أحبه خواص الناس وعامتهم ، لتقاه وتقشفه وحبه للعدل ؛ فقد فتح أبوابه للنظر في المظالم ، وقلل من نفقاته الخاصة ، فلم يكن يأكل إلا القليل ، واقتدى بسيرة عمر بن عبد العزيز ، وكان يقول : « إني أكره ألا يكون لخلفاء بني العباس مثل عمر بن عبد العزيز » ؛ وأقبل على الأتراك يضرب بعضهم ببعض ، ويوقع بينهم ، وقبض على ببايكباك^(١) زعيمهم وقتله . ولم يكن ليتجاسر الأتراك عليه في أول الأمر ، إلا أنه بعد أن قتل ببايكباك ، هجموا عليه ، وقتلوه ، وأحضروا أحمد بن المتوكل ، فعهدوا إليه بالخلافة باسم المعتمد فبويع له بذلك ، وفي عهده حصلت ثورة الزنج .

(١) هكذا ذكر الطبري (الحسينية ج ١١ : ص ١٥٦ وغيرها) : أما ابن الأثير (٧ : ٦٠) فإنه يذكر اسمه

(بابكيال) - المنقح .

خلافة المعتمد ونفوذ أخيه الموفق :

ماذا يستخلص من هذه الحوادث المتشابكة الكثيرة التعقيد : خلاصتها أن الأتراك كانوا يعيثون بالخلفاء دون نظام ودون فكرة تقودهم إلى غاية معينة ولا خطة واضحة . هم طبعاً كانوا يبغون المال والسلطان ، وكان كل منهم يسعى إلى المال والسلطان ؛ ولما لم تكن لهم خطة مرتبة ، فإن الأمر انتهى إلى الاضطراب والقلق . في الواقع إن الأتراك كانوا حين يفضبون على السلطان لا يعرفون ماذا يفعلون ، ولم يكونوا على وفاق فيما بينهم ، فكان من يصل منهم إلى القوة يبغضه زملاؤه ويحاربونه ويقضون عليه . وكانت الغيرة تأكل من أكبادهم ، فلا يستقرّ لهم حال ؛ كانوا متخالفين متخاصمين دائماً . يرى الخليفة ذلك فيطمع فيهم ، ويزيد في شقة الخلاف بينهم ، لكنهم كانوا يصبحون يوماً ، فيجدون أن الأمر سيخرج من أيديهم ، فيتكاتفون مرة أخرى ، ثم لا يجدون أحسن من قتل الخليفة ، ثم لا يعرفون بعد ذلك من هو الخليفة الذي يلائمهم ويلئم أحوالهم .

وكانوا لا يعرفون من هم الوزراء الذين يسرون حسب رغباتهم ، فكانوا يتركون للخليفة أمر تعيين الوزراء ويسرون هم خبط عشواء . وهكذا اضطرب الحكم بوجودهم واضطربوا هم به ، وتقاتلوا فيما بينهم وأدى قتالهم إلى تشتت أمرهم ، فتضاءل شأنهم وقلّت قيمتهم ، وامتدت هذه الفوضى تسع سنوات حتى إذا انضم الموفق إلى أخيه الخليفة المعتمد ؛ واستطاع أن يكون له الأمر دون الخليفة ، أرغم الأتراك على الطاعة ، وجعلهم بين يديه كالخاتم ، متخذاً لذلك الطريق الصالح .



ثورة الزنج

في هذه الأحوال المضطربة ، وفي هذا الوضع من التضعف في سلطان الخلفاء ، ظهرت ثورة كبرى دعيت بثورة الزنج ، هددت كيان الدولة العباسية أكثر مما هدها الأتراك . ثورة الزنج حصلت في العراق ، وامتدت من البصرة حتى أبواب بغداد ، واستولت على جزء كبير من العراق ، وقطعت التوطين عن عاصمة الخلافة ، وفكت بالناس ، واستعبدت العرب وغير العرب ، وجرت الدماء أنهاراً في بقاع كثيرة .

أسباب الثورة :

ما هو سبب هذه الثورة ؟ سببها البعيد تضعف الخلافة العباسية الذي جعل للثوار مجالاً يعملون فيه ، لكن هنالك أسباباً اقتصادية أساسية أدت إلى حدوث هذه الثورة ، فقد حصل تطور اقتصادي في عهد الخلافة العباسية ، ذلك أن العراق أصبح في عهد الرشيد مركز العالم ، تأتيه ثمراته وأمواله ، وتنصبّ عليه بضائعه المختلفة وجواهره وذهبه . غني العراق من ذلك غناءً فاحشاً ، وكثر المثلثون فيه ، ومعظمهم من التجار ، وتضخمت الثروة بين أيديهم ، فأقبلوا على الأراضي يشترونها ، وصاروا يحاولون الحصول على ثروة أكبر ، ففكروا في شراء تلك المستنقعات التي تقع بين البصرة وواسط ، وهي أراض فيها مياه يستخرج منها الملح ، وهي مغطاة بالأعشاب والآجام ، فاشتروا العبيد من الصومال وزنجبار بأسعار رخيصة ، ووضعهم في تلك الأراضي يجففونها فيستخرجون منها الأملاح ، ويزرعونها

فتعطيهم الثروات ويستخدمون الزنج دون تكاليف ، اللهم إلا ما يأكل هؤلاء الزنوج من سويق وتمر بأسعار بخسة .

وحال أمر هؤلاء الزنوج إلى حالة سوء شديدة ، وقد كثر عددهم ، فصاروا جماعات جماعات يقومون بهذه الأعمال ، بعضها يتألف من خمسة آلاف شخص ، ويصل العدد إلى خمسة عشر ألفاً ، يجتمع هؤلاء ، ويكون أمرهم ويندبون حظهم ، دون أن يسمع إليهم أحد . لقد كانوا جماعة أشداء أقوياء ، يدل على قوتهم قيامهم بالعمل في أراض مستنقعة وفي أجواء موبوءة ، واستطاعتهم تحمل قساوة العيش بالرغم من ذلك . أما تجمعهم جماعات ، فإن ذلك يمهد لهم بأن يتفقوا ويتفاهموا ، فكانت ريح الثورة مهبأة بينهم ؛ إلا أنهم أشخاص أميون ، لا يعرفون من الثقافة والعلم شيئاً ، فكان لا بدّ لهم من قائد يقودهم ، وهو يهيئهم إلى العمل الثوري ، إن الأرض التي يعملون عليها تساعد على الاختفاء والظهور ، وهي أرض يصعب الاستيلاء عليها من قبل جيش منظم مدرب . إن نشر الدعوة الثورية بين هؤلاء العبيد المتذمرين سهل ، وإن إدخال فكرة المقاومة في أذهانهم وفكرة الحصول على المال الذي يستحقونه سهل أيضاً .

صاحب الزنج :

ظهر ذلك الزعيم الذي استطاع أن يجمعهم وأن يقودهم ، وأن يحدد لهم أهدافهم ، وقد سمي في التاريخ صاحب الزنج ، واسمه الأصلي « بهبوذ » وتسمى بمحمد بن علي ، وانتسب أولاً إلى بني عبد القيس ، ثم انتسب إلى الزيدية من أولاد علي ، وكان صاحب فكر ونظر ، يعمل عقله كثيراً أكثر مما يعمل سلاحه . وكان فناناً في تحاييله ووسائله التي يستعملها . وضع أهداف الثورة ، ودعا إلى تلك الأهداف ، فإذا هي أولاً : تحرير الزنوج

ورفع مستواهم . ثانياً : تمكينهم من الحصول على الأموال والأرقاء والعبيد . ثالثاً : تمكينهم من الوصول إلى السلطان والقوة والملك . وادعى أنه يسير على طريقة الخوارج ، والخليفة لبس هو العربي فقط ، بل يصح أن يكون العبد خليفة ، وكتب على راياته الآية الكرنية ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ... ﴾ وهي الآية التي اتخذها الخوارج والأزارقة شعاراً لهم .

ليس في دعوة صاحب الزنج أية فكرة شيوعية اشتراكية ، فالتحرير ليس فكرة شيوعية محضة بل هو فكرة عامة ، والأموال لم تكن تقسم بينهم على طريقة الاشتراكية ، فلكل ماله ؛ وإن الرق موجود في هذه الدعوة ومشروع ، وما أكثر الأرقاء الذين وقعوا في قبضة الزنج ، حتى كان الزنجي الواحد يمتلك عشرات من النساء العرييات ، وامتلك بعضهم عشرًا وأكثر من العلويات أنفسهن ، ولم يتشيع صاحب الزنج بالرغم من أنه انتسب إلى زيد ابن علي ، فمبدؤه - كما قلنا - مبدأ الخوارج والأزارقة ، وقد اشتطّ به الأمر ، فادعى النبوة ، وادعى معرفة الغيب ، وانتحل الوحي والمقدرة على ما ليس لغيره من الناس .

تفاهم أمر الزنج :

ابتدأ أمر صاحب الزنج عام ٢٥٤ هـ ، ففي هذا العام خطب في الزنوج خطبة ، قال الطبري عنها إنه : « ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال ، وإن الله قد استنقذهم به من ذلك ، وإنه يريد أن يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والأموال والمنازل ، ويبلغ بهم أعلى الأمور » . أقبل الزنوج على الدعوة زمراً زمراً ، تتكون الزمرة من الخمسين إلى الخمسة شخص ، والتفوا حوله وكثر عددهم عنده . ثم التفت إلى غيرهم ، فصار ينشر دعوته

بين الفلاحين وسكان القرى ، يجتذبهم بما اجتذب به الزوج ؛ وألقى بدعوته أيضاً إلى بعض الأعراب المتذمرين من الحكم العباسي ، والذين يحبون النهب والسلب ؛ فأطمعهم في ذلك ، وكان لا يعدم وسيلة في تبليغ دعوته إلى السود من الجنود الذين يعملون في جيش الحكومة ، فينتسبون إليه انتصاراً لأهل لوهم ، وتتوسع الحلقة والأتباع ، فيتم لصاحب الزنج جيش لم يجتمع للخليفة نفسه مثله .

وسائل صاحب الزنج :

وقد ذكرنا أن صاحب الزنج كان قديراً فاهماً وذكياً متروياً في أموره ، وكان قد فكر زمناً طويلاً في تنظيم أمره ، وتنظيم دعوته ، وتنظيم خطته الحربية ، وفكر في قوة خصومه وفي مقدرتهم الحربية ، فوجد أنه لا يستطيع أن يقاومهم وجهاً لوجه ، وأن يدحر جيوشهم في موقعة واسعة ؛ فأتباعه ليسوا من أهل السلاح والفروسية كجيش الخلفاء . أدى تفكيره الجديد إلى وضع خطة سار عليها ، ووفق في تنفيذها كل التوفيق ، ونستطيع أن نستخلصها من أعماله ومن حروبه نفسها ، وهي تشمل الوسائل التالية :

أولاً : الانتقاض السريع على العدو والإغارة عليه مفاجأة ، والإغارة على القرى والديساكر لإلقاء الرعب وكسب المال والتمويل ؛ غارات سريعة ، وانتقاض يتلاحق بحيث يتعب العدو ، ويلقي الرعب في نفوس السكان .

ثانياً : غزو المدن الكبيرة ، يدخل جيش الزنج فيها ، فيأخذون ما يشاءون ويسترقون من الأولاد والنساء ما يشاءون ، ويقتلون ويسفكون الدم ؛ ولكن يترتب على الجيش ألا يبقى في تلك المدن الكبيرة ، وأن يخليها بعد أيام إذا كانت قريبة من جيوش السلطان .

والقاعدة في ذلك أنه ينبغي ألا يلتحم جيش الزنج مع جيش الخليفة في مكان معين غير محصّن .

ثالثاً : توزيع جيش الزنج في الطرقات وفي الأماكن المأهولة وغير المأهولة وبين الأحراج والأشجار والمستنقعات توزيعاً يستطيع به هذا الجيش أن يضرب جيوش الخليفة في كل وقت ، وأن يلعب دور الكمين ، فيربح جيش الدولة ويقضّ مضجعه ، ويجعله دوماً في هلع وفزع مستمرّ ، ويقطع التموين عن قطعات الجيش ويفصل طلائعه عنه . ويقطع صلته بالعاصمة.

رابعاً : يجب أن يكون لجيش الزنج مكان ، أو أمكنة حصينة يلتجئ إليها إذا هوجم وهزم ؛ ويجب أن تكون هذه الأماكن محصنة كل التحصين ، لا تصل إليها يد السلطان إلا بصعوبة هائلة ، وأن تكون محاطة بالمستنقعات وبالأشجار والأدغال والترع ، بحيث يتعذر على جيش الدولة الوصول إليها . وقد بنى صاحب الزنج حصوناً من هذا النوع ، وجعل خلفها حصناً كبيراً سماه المختارة أقامه على الضفة الغربية لنهر أبي الخصيب ، بحيث لا يستطيع جيش الخليفة أن يصل في آخر الأمر إلى هذه المدينة إلا بعد أن يجتاز النهر ، فيجد أمامه حصناً هائلاً ، بني أولاً من اللبن ثم أدخلت الحجارة إليه ، وفيه قصر صاحب الزنج ، وفيه يقيم ، ويوجّه الأمور .

هذه هي خطط صاحب الزنج التي واجه بها الدولة وحارب بها حرباً عنيدة واسعة ، ولعب فيها دور السفاك الخفيف المرعب ، ووصل بها إلى أبواب بغداد ؛ وقطع الطرقات ، واستولى على مدن مختلفة كما سنرى ، هذه الأساليب قد ندعوها اليوم حرب العصابات ، وكانت حريّة بأن تعطي

صاحبها النصر أمداً طويلاً من الزمن ، وهذا ما قصده صاحب الزنج لتمكين أمره عسى أن يسعفه الزمن بالهجوم على بغداد أخيراً والتمكن منها .

حروب الزنج :

بعد أن انتهينا من وصف خطط صاحب الزنج ووصف دعوته وكيف اتجهت تلك الدعوة ، لا بد لنا من أن نرى وصف الحروب التي قام بها ، وحسبنا أن نأخذ فكرة عامة موجزة عن هذه الحرب ، لنستطيع أن نتصور خطر هذه الحرب وامتدادها وبعدها أثرها .

أول ما فعله صاحب الزنج أنه ضرب جيش البصرة ، وكان للبصرة عامل من قبل الخليفة ، وعنده جيش ، فظن أنه بإمكانه أن ينهي حرب الزنج بجيشه ، لكنه هزم هزيمة شنيعة . كانت البصرة منقسمة على نفسها ، فيها حزبان ، فما استطاع الوالي أن يقوي أمره ، وأن يضرب الزنج ضربة قاضية ، بل استنجد بالخليفة ، فأمدّه بقائد تركي اسمه جعلان وسار هذا القائد بجيش كثيف مرتب : وظن نفسه في ساحة حرب كبيرة ، فإذا به يفاجأ بالكناز والمستنقعات أمامه . ويفاجأ بحرب ما كان له عهد بها ، فانكسر جيشه ، وهزم شرّ هزيمة ، وخلا المكان لصاحب الزنج ، فاتجه هذا إلى شرقي المختارة ، ودخل مدينة الأهواز ، واستولى عليها ، وبقي فيها مدة من الزمن ، غير خائف بل مطمئناً ، لأن النجدة لا تصل إليها ، إلا بعد أن تجتاز مراحل صعبة ، وأهوالاً كبيرة لم تكن مهيأة لها . امتد نفوذه في جهات البصرة حتى واسط وحتى طرقات بغداد ، وكاد يبلغ بغداد ، فتفانم شرّه واتسع .

ثم دار الزمن دورته فاستولى على الخلافة المعتمد كما رأينا ، وكان الحام الفعلي في عهد المعتمد أخوه الموفق ، وهو القائد وفي يده الجيش ، وهو

الذي يعين الوزراء والعمال ، أما الخليفة فكان منطلقاً إلى لذاته وشهواته ، والموفق كان رجلاً قوياً حازماً مدبراً للأمر ؛ بعيد النظر قوي السياسة والحكمة ، وجد أمامه خطر الزنج ، فحاول القضاء عليهم ، وأرسل قائداً لمحاربتهم ، لكن هذا القائد لم يفلح ، وهزم أمامهم ، وعاث الزنج بالبلاد فساداً كبيراً ، وتمكنوا من دخول البصرة هذه المرة ، واستبدوا بها قتلاً وسفكاً وفعلوا أفعالاً منكراً ، وقيل إنهم قتلوا أكثر من ثلاثمئة ألف إنسان في البصرة وحدها ، وأعطبوا أعداداً أكبر من ذلك بكثير ، (هذا العدد مقارب للحقيقة) ، وأسروا من أهل البصرة عدداً كبيراً من النساء والأطفال ، حتى كان للواحد منهم عشر نساء رقيقات بين يديه ؛ ثم انسحبوا من البصرة بعد أن ساموها سوء العذاب ، ونهبوا ثروتها ، وكانت من أعز مدن العالم قوة وثروة . وهنا رأى الموفق أنه لا بدّ له من أن يتقدم بنفسه فصار لحرب الزنج على رأس جيشه ، فهزم أمامهم بعض الهزيمة ، ولكن لم تفت هذه الهزيمة في عضده ، وعزم على ملاحقتهم ، فاعترضه مانع منعه من ذلك ، وهو أن يعقوب الصفّار ، وكان قد استقل في سجستان ، سار إلى بغداد يريد دخولها ، والاستيلاء عليها ، فكان على الموفق أن ينسحب من حرب الزنج ، ويوكل مكانه إلى قائد ويعود إلى بغداد لمحاربة يعقوب . حاربه - كما سنرى - ثم بعد أن توفي يعقوب ، استطاع الموفق أن يعقد الصلح مع خلف يعقوب ، وأن يتفرغ لحرب الزنج . من محاسن يعقوب أنه لم يرض أن يتحالف مع الزنج ، فقد كان يعدّهم مارقين متزندقين .

عاد الزنج إلى عبثهم وإلى سفك الدماء والاستيلاء على المدن وسلبها كالأهواز وواسط ، فلما عقد الموفق الصلح ، قرر أن يقضي نهائياً عليهم ، ووضع خطة لذلك فقد أصبح يعرف الزنج معرفة طيبة ، ويعرف من أين تأتي قوتهم ، فهو قد اطلع على طريقتهم في الحرب ، وأنهم لا يحسنون

حمل السلاح والتدرب على القتال كما يحسنه جيش الخليفة ، فوضع خطا لمحاربتهم ، تمنع كل وسيلة من وسائل نجاحهم . وإليكم بيانها فيما يلي :

علم خطورة التووين وأهميته ، فكان عليه أن يعد العدة لتووين جيشه تووينا دائما ، واتخذ لذلك السفن ، يحملها بالمواد ، وتخوض باستمرار في الأنهار . ثم إنه كان عليه أن يفعل كما فعل الزنج ، فينشئ الحصون للجيش يأوي إليها ، لئلا يباغت من قبل صاحب الزنج ؛ فأنشأ حصونا في طرف واسط وبعض جهات البصرة ، وأنشأ مدينة حصينة سماها الموققية ، فكان الجيش يعسكر في هذه المدينة ، وينطلق منها لمحاربة الزنج . يجب أن يكون الانطلاق رويدا ، وأن يكون مرحلة بعد مرحلة ، وأن تسوى الأراضي التي يستولي عليها ، وأن تمهد ، وأن يستولي الجيش على مركز يقيم فيه في تلك الأرض لئلا يباغت ثانية .

توج كل هذه الأمور والخطط بأسلوب كان له أثره في إنهاء الحرب ، وهو أنه بعد أن عرف الطرقات والمسالك ، وعرف كيف يتجه في ضرب العدو ، اتخذ السبيل ليشبط عزيمة عدوه ، وليس خيرا لذلك من أن يؤمن الأعداء على حياتهم ، وأن يمنيهم بالوعود الكثيرة ، وأن يؤمن العربان والسود من الخارجين عليه ، وأن يؤمن الزنج أنفسهم ، فكان إذا وقع في يده أسير منهم ، أحسن معاملته وأكرمه أمام أصحابه ، وكان يعلن أمانه لكل من يغادر جيش الزنج ، ويكف عن القتال ؛ أخذ يكاتب أصحاب الزنج ، فيدخلون في طائفته ، ويجمعهم حوله حتى كثروا ، وجعل سيطرة الخليفة وهيبته رهبة قائمة ، فظن الزنج أنهم لا قبل لهم بالخليفة وجنوده ، فأتوه أفواجا أفواجا يلتسون أمانه .

بهذه الأساليب جميعا استطاع أن يتغلب على صاحب الزنج وعلى

حيله وكثرة جنوده وكثرة الأموال بين يديه ، هذه الخطة وضعها الموفق لابنه أحمد (الذي أصبح خليفة فيما بعد وسمي بالمعتضد) فسار أحمد إلى محاربة الزنج ، وأخذ ينشئ الحصون ، وأخذ يفرق أصحابه ، ثم تقدم الموفق لمساعدة ابنه في تلك الحرب ، واستلم القيادة بنفسه ، فاستطاع أن يقضي على أول حصن لصاحب الزنج ، وأن يتقدم في أرضه ، وتقدم خطوة خطوة حتى بلغ المختارة ، وضرب المختارة بمنجنيقاته وعرّاداته فأصاب أسوارها وأنزل بها ضرراً بالغاً ، إلا أنه لم يستطع الاستمرار ، لأن أحمد بن طولون أخذ يغري المعتمد الخليفة ، فيحاول هذا أن ينتقل بالحكم ودار الخلافة إلى أحمد بن طولون ، عاد الموفق إلى بغداد ، وعمل على إعادة أخيه إليها ، وبعد أن تمّ له ذلك ، واطمأنّ باله عاد إلى المختارة لمحاربتها ، لكن صاحب الزنج كان في هذه الأثناء قد أعاد تحصين المختارة من جديد ، فعادت الحرب مرة أخرى بشدتها الأولى ، وساعد الموفق في تلك الحرب أن لؤلؤاً من أصحاب أحمد بن طولون خرج عليه ، وتقرّب من الموفق ، والتحق بجيشه ، فتمّ بذلك للموفق جيش كبير ، ولكن دون أن يبلغ عدد جيش صاحب الزنج . وهاجم الموفق المختارة ، فنقض حصونها . ثم استحضر من انتقل إليه من قواد الزنج ومن أصحابهم ، فذكر لهم أمانه لهم ورعايته لأموالهم ، وأنه يقصد بهم الخير ، وحسبهم ، وطلب إليهم أن يدلّوا جيشه على مواقع المدينة ليدخلوها ، ففعلوا ذلك ، واستطاع جيشه أن يدخل المختارة وأن يستولي عليها وعلى كنوزها ، وكان قد اجتمع فيها ثروة هائلة من الكنوز والأموال . هرب صاحب الزنج من المختارة ثم لوحق في مكان آخر ، حتى أخذ وقتل . وبذلك انتهت حرب ضروس كادت أن تودي بحياة الخلافة العباسية ، وكادت أن تمكن صاحب الزنج من تدمير بغداد : الأمر الذي تمكن منه صاحب التتار هولاكو وجنكيز خان .

نتائج حروب الزنج :

الذي يستخلص من حرب الزنج أنها كانت حرباً تعتمد على التمويه وقطع الطرقات وإقامة الكمين ، وقد تجلّى فيها تفكير صاحبهم وتنظيمه للأمور ومعرفته بنفسية الجماعة التي يحكمها وبمقدرتها . وهي تدلّ أيضاً على ضعف الخلافة العباسية وتضعف حالها ، حتى كادت أن تتفكك أمام هذه الحركة التي هي بالأصل حركة جزئية .

ساعدت حرب الزنج الخلافة العباسية على أمر هام ، هو أنها قضت على حكم الأتراك ، أولئك الذين رأيناهم يلعبون بالدولة العباسية كما يشاؤون ، ويلعبون بالدولة والخلفاء ؛ ذلك لأن الأمور كانت مستتبة ، ولأنهم أصحاب الشأن في بغداد وسامراء ، أما الآن فقد ثارت في وجههم حرب هائلة حرقت الأخضر واليابس ، حرب ما استطاعوا بجيوشهم وتدريبهم وعنادهم على القتال التغلب عليها ، ونجح العباسيون حين أخفق الأتراك ، فكان من ذلك أن قوي سلطانهم ، وتبين أنهم هم المسؤولون عن الدولة أولاً وآخرأ ؛ وهكذا جعلوا الأتراك تحت أيديهم ، يعطونهم القيادة حيناً ، ويأخذونها منهم حيناً آخر ، وأخيراً كسبوا النصر عن جدارة .



النزعات الاستقلالية عن الدولة العباسية

كلمة عامة في ظهور هذه النزعات وتعليل ظهورها :

ظهرت في القرن الثالث^(١) الهجري حركات استقلالية عن مركز الدولة العباسية في العراق ، وذلك في بلاد إيران بأجمعها من خراسان إلى سجستان إلى جرجان ، وفي مصر^(٢) وفي جنوبي بلاد الين^(٣) هذه الحركات الاستقلالية تشعبت في هذا العصر ، وأخذت شكلاً واضحاً ، وخيل للناظر أن الخلافة العباسية قد تفككت ، وأن هذه النزعات الاستقلالية ستضيق رقعة الخلافة العباسية ، بل تكاد تقضي عليها / يحاول المؤرخون تفسير هذه النزعات ولا يجدون صعوبة في ذلك ، فأمامهم أمر واقع واضح : هو أن الدولة العباسية ضعيفة في مستقرها في بغداد أو في سامراء بسبب تسلط الأتراك وبسبب الفوضى التي أحدثوها ، وكان الخلفاء العباسيون لا حول لهم ولا قوة أمام هذه الفوضى / فإذا كان الأمر كذلك في مركز الحكم ، فإنه من الأحرى ألا يكون لهم حول ولا قوة أمام تلك النزعات الاستقلالية البعيدة / يضيف المؤرخون إلى ذلك أن حرب الزنج كان لها أثر كبير في تطور حوادث الاستقلال ، وأن الذي بعث نزع الاستقلال هو الميول العنصرية ، لاسيما

(١) يجب ألا ننسى قيام الدولة الأموية في الأندلس ، ونشوء دولة الأدارسة في المغرب قبل القرن الثالث ، وهما مستقلتان تماماً عن الخلافة العباسية : كما ينبغي أن نذكر إحداهما دولة بني الأغلب في إفريقية سنة ١٨٤ هـ تابعة للخلافة - المنقح .

(٢) قامت أولاً الدولة الطولونية ثم الدولة الإخشيدية - المنقح .

(٣) الدولة الزيادية في الين قامت على يد محمد بن إبراهيم الزيادي - المنقح .

منها الميول القومية عند الفرس . هذا التعليل يوضح لنا جانباً من المسائل ، لكنه لا يوضح لنا كل شيء في أمر استقلال أصحاب هذه النزعات .

نحن نريد في التاريخ أن نبسط الحقائق بسطاً واضحاً ، وأن نرى جميع جوانب القضية ، وأن نصنف عللها ، وأن نجعل لكل علة مكانها ووزنها وقيمتها ، وأن نكون من كل ذلك مزيجاً صالحاً صافياً من الأدلة يبين لنا واقع الأمور ، كما يبين لنا متناقضاتها . من الصعب أن نتخيل أن دولة العباسيين ودولة الإسلام تتفكك وتتجزأ بسبب الاضطرابات الداخلية في بغداد أو سامراء فقط ، ومن الصعب أن نتخيل أن النزعة الفارسية الاستقلالية التي لم تنجح قبل ذلك في عهد المأمون وقبله في عهد السفاح أن تكون سبباً أساسياً ؛ ومن الصعب أن نتخيل كيف نجحت في القرن الثالث دون صعوبة . لابد من أن يكون لحركة الاستقلال والتوسع أسباب عديدة متضافرة متكاثفة توضح الأمر من جميع جوانبه . سنحاول فيما يلي أن نبين بالترتيب شكل الاستقلال وطرقه وما انتهى إليه .

حركات آل علي :

نعلم مما تقدم معنا من أبحاث أن العباسيين استطاعوا أن يوقفوا حركة آل علي وأن يمنعوا من الظهور والمطالبة بحقهم في الخلافة . حدث هذا المنع في الدور الأول من نشوء الدولة العباسية ، لكنها تضاءلت مطالبة آل علي في الدور الثاني وخفت . سبب ذلك - كما رأينا - أن العباسيين التزموا مظاهر التقى والسنة والجماعة ، فهم منذ نشأتهم تمسكوا بمظاهر التدن ، وتمسكوا إجمالاً بالسنة والجماعة أمام عامة الناس ، نعم ، كان بينهم من يختلس الوقت للشرب أو للتهتك أو لغير ذلك ، لكن أمره لا يظهر واضحاً أمام الناس ، والناس يعرفون فقط المظاهر الخارجية . والخليفة العباسي

إجلاً يبدو تقياً في الظاهر مدافعاً عن الدين وعن السنة خاصة . إذاً الخلفاء العباسيون استطاعوا أن يوقفوا استقلال الأقطار بالتزام أهل السنة والجماعة ، ثم إنهم قضوا بهذه الوسيلة على كل أمل في الاستقلال بنزعة دينية غير إسلامية ، فهم قد ضربوا الزندقة بدون هوادة ، بحيث لم تقم لها قائمة ، على هذا النحو أوقفوا تلك التيارات التي كانت قد تضر بحكمهم وسلطانهم .

أثر الأمويين :

ثم هم منذ أول دولتهم قضوا قضاءً مبرماً على الأمويين بحيث لم تقم لهم قائمة أبداً ، فتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، فلم يبقوا على أموي إلا واحداً هرب إلى الأندلس ، فأقام دولة هناك خرجت عليهم . ثم أقام عبد الرحمن الثالث خلافة انتصبت أمامهم بشبحها ، ولكنهم في المشرق ومصر قضوا على كل مطالبة بالخلافة من أموي من هذا يظهر أن الاستقلال لم يكن سهلاً كما قد يتصوره المرء ، وأن له شروطاً ، وأن أمامه موانع تحول دونه .

اتساع المملكة والاضطرار إلى التجزيء :

غدت المملكة متسعة اتساعاً هائلاً ، فرقة الخلافة العباسية تمتد آلاف الكيلومترات ، ووسائل النقل ليست ملائمة في ذلك العصر لتلك المسافة الواسعة . جاء هارون الرشيد فهد إلى نزعة الاستقلال ، فهو قد قسم مملكته كما نعلم بين ولديه الأمين والمأمون ، فثارت المنازعات بين الأخوين ، ونبتت الفكرة الاستقلالية عند الشعوب وخاصة الشعب الفارسي . ثم إن الخلفاء الذين أتوا بعد هارون الرشيد اتبعوا سياسة التجزيء .

طريقة حكم الولايات النائية :

لعلهم لم يكونوا يشعرون بهذه التجزئة فقد عهدوا إلى قوادهم أو إلى

المقربين منهم بحكم بعض الولايات النائية ، دون أن يطلبوا إليهم الذهاب إلى تلك الولايات . بل تركوهم يضعون نواباً عنهم يقومون بالأمر بدلا منهم . والولاة مقيمون في بغداد أو في سامراء ^١ جرى هذا الأمر بصورة خاصة في عهد الفوضى الذي خلقه الأتراك : فوضى السنوات التسع التي مرت معنا . فالقائد التركي يأخذ الولايات ، ويرسل مندوبيه ونوابه إليها ليحكموها باسمه ، ويبقى هو في مركز الخلافة ليشارك غيره في المؤامرات ، وليعتز بحياة البلاط ، وتأتيه من الولايات الضرائب والأموال إلى أحضانه ، دون أن يسعى إليها ^٢ (من الطبيعي في حالة كهذه أن يسعى النواب (الذين هم ليسوا أصليين في الولاية) إلى المال وإلى السلطان والجاء ، وإلى إرضاء الوالي القابع في العراق ، وإرضاء الخليفة بإرسال أكثر ما يمكن من الأموال ، ومن الطبيعي أيضا أن يسعوا ليحصلوا على المال لأنفسهم أولاً ، ولا يتم لهم هذا الأمر إلا بمالأة القائمين على الأمر معهم وبالضغط على الشعب وظلمه .

النظام الإقطاعي :

كان الخليفة يقطع الأراضي لنوابه ووزرائه وقواده والمقربين منه ، يكتفي هؤلاء أيضا بإرسال الوكلاء لإدارة هذه الإقطاعات ، فيسوء الاقتصاد ، ويخفّ الدخل ، وتزداد الرشوة ، ويكثر الظلم ، ويئن الشعب .

سوء الحالة الاقتصادية في الولايات :

الشعب في فارس وفي مصر وفي اليمن كان يرى العراق وهو في حالة من الازدهار الاقتصادي لاتماثلها حالته ، ويسمع عن مدخول العراق ، ويسمع عن الأموال التي تذهب إلى العراق وتنفق في غير سبيلها ، فتقوى النزعة الاستقلالية عنده ، ويرى أنه لن يخلصه من جور نوابه ومن دفع الأموال

التي تذهب إلى العراق إلا حاكم مستقل يصلح حالته الاقتصادية ، ويرفع عنه الظلم ويسوي بينه وبين غيره .

الفوضى والاضطراب :

هذه الحالة ، وذلك الاتجاه ، وهذا التطور حدث كله في القرن الثالث ، حدث في وقت قام فيه الأتراك في بغداد وسامراء بما قاموا به من فوضى وعدوان ، حدث أيضاً في وقت قامت فيه حركة الزنج ، وامتدت على الصورة التي رأيناها ، وقد بحثنا في أسباب هاتين الحركتين ضمن إطارها هنا وفي علاقاتها بالبحث مرة أخرى .

ضعف العصبية التي يجب أن يعتمد عليها الخليفة :

الخليفة العباسي - كما ذكرنا - تسلح بالدين والسنة منذ أول أمر الخلافة العباسية ، لكنه لم يتخذ لنفسه عصبية معينة وجيشاً يستند إليه ، استند إلى الجيش الخراساني الذي نقض أركان الدولة الأموية ، لكن هذا الجيش لا يمكن أن يبقى مخلصاً للخلافة بسبب نزعات قومية أو محلية كانت تستثار من حين إلى آخر في خراسان وفي الجيش نفسه . كان العباسيون يعلمون أن هذا الجيش لا يمكن الركون إليه تماماً ، لكنهم في أول الأمر كانوا مسيطرين على كل شيء ، فاستطاعوا أن يسيطروا على الجيش وأين كانوا يستطيعون أن يجدوا تحالفاً من غير الخراسانيين ؟. لاشك أن هناك طرفاً مؤيداً لهم كل التأييد ، وهم أهل العراق ، وهذا ما حاول أبو العباس السفاح أن يقوله في أوّل خطبة له بالكوفة ، لكن العباسيين لم يحالفوا أهل العراق بنزعتهم العربية ، ولا ندري ما هو السبب الذي جعلهم يبتعدون عن النزعة العربية في العراق ؟ أهو لأن الكوفيين غير مخلصين لا يؤمن جانبهم أم لأن قوتهم ضعيفة لا يمكن أن يعتمد عليها ، أم هو شيء آخر ؟ الذي يظهر من خلال

تاريخ الخلافة العباسية هو أن الخليفة العباسي يحالف العراقيين عامة لا العرب من العراقيين ، يحالف أهل السواد وأهل العراق النبطيين والعرب . قد أسس أبو جعفر عاصمته بغداد ، فأحضر إليها سكاناً من العرب وغير العرب ، ولو أن العنصر العربي ظاهر فيها كل الظهور . عمد الخلفاء العباسيون إلى محالفة العراقيين بهذا المزيج من الشعب بكامله ، لكنهم لم يحالفوا هذا الشعب المزيج بإحداث جيش منه يعتمدون عليه . وهذا أيضاً أمر غريب لا أستطيع تفسيره كل التفسير ، أهو أيضاً لأن العراقيين لم يكن بالإمكان أن يكون بينهم جيش قوي يحمي الخلافة بقوته الحربية ؟ أم لأن المزيج من العراقيين لم يكن قد اختر ولم يكن بالإمكان أن يشكل منه عصبية معينة ؟ لانعلم ذلك كما ينبغي ، ونترك أمره للدراسات المقبلة^(١) الذي كان يفعله بنو العباس في ساعات الشدة أنهم كانوا يلتجئون إلى شعب

(١) لا بأس من أن أذكر بعض النقاط التي تكلل الموضوع في هذه النقطة (المنتقى) :

١ - إن أهل العراق وخاصة أبناء المدن في ذلك العصر كانوا خليطاً غير متجانس من الشعوب لا يمكن أن يشكلوا عصبية .

٢ - كان هم أهل العراق الأمور الاقتصادية وخاصة الصناعة والتجارة ؛ لأن وفرة الأموال الواردة إلى العراق وخاصة إلى المدن توجد قوة استهلاكية وشرائية كبيرة . لذا كان أغلب الشعب مهتماً في أموره المعاشية ، وقد ضعف فيهم روح الجهاد .

٣ - العراق مركز ثقافي علمي تتقاذفه التيارات الفكرية والفلسفية . إن المجالس العلمية والثقافية تفتش أكبر عدد ممكن من الطبقة الراقية ، وتشغلها عن الأحداث السياسية بالدراسات الفكرية .

٤ - رفاهية العيش في العراق تجعل الناس يحبون الحياة ويكرهون الموت ؛ لهذا تركوا الأمور العسكرية إلى تلك العصابات الغريبة المفامرة التي كانت في الأصل فقيرة بل مملوكة . واستطاعت هذه الأقلية أن تستبد بالحكم بسبب قوتها وضعف الشعب .

٥ - تكون فئة طفيلية من الشعب تعيش على السرقة والاعتقال وقطع الطرقات . وهي فئة العيارين والسطار . لقد كانت هذه الفئة كبيرة جداً ، وقد روعت الأمنين ، وفرضت الأتاوة على الناس . ومع ذلك أتى وقت أراد الخليفة أن يستعين بهذه الفئة ضد أعدائه الأتراك ، لكنه لم يستفد منها إلا كقوة ضد النظام . وليست قوة يمكن أن تسند الحاكم .

العراق ، ويتحالفون معه ، مثيرين فيه عنصر الدين أكثر مما يثيرون فيه عنصر القومية ، يكلمونه بالسنة والجماعة أكثر من العصبية العربية ، فكأن الخلفاء العباسيين أرادوا أن يتحالفوا مع السنيّة ، وأن يجعلوا العراق مركزاً لها ، دون عصبية معينة ، اللهم إلا جمهوراً يتكلم اللغة العربية ويتحلى بالثقافة العربية ، ذلك الجمهور الذي كانوا متمسكين به كل التمسك .

خلاصة الموقف في الولايات :

✓ في هذه الظروف التي كانت في القرن الثالث الهجري : نزعات استقلالية تأخذ معينها من أن الشعب مظلوم ، ومن أن الحياة الاقتصادية سيئة ، وهي تتذرع من جهة بإهمال كبير من قبل الخلافة نفسها بشؤون الولايات ومن قبل الولاة والنواب وغيرهم من الموظفين ، ومن جهة أخرى تدرك ضعف الخلافة العباسية وظروفها السيئة بسبب تسلط الأتراك وثورة الزنج ، ثم إنها تعرف أن لا وجود لعصبية قومية معينة تتمثل في جيش معين يحمي الخليفة ويدافع عن السلطة المركزية .

إذا ظهر رجل قوي في ولاية من الولايات الإيرانية ، فإنه لاشك يستفيد من هذه الظروف فيضع برنامجاً يلائمها ، ومن السهل أن يتجه إلى الشعب ، ويعلن له أنه سيرفع عنه الظلم ، وسيصلح الحالة الاقتصادية عنده ، وسيرفعه إلى مصاف العراق ، وسيجعله مستقلاً في أموره عن دار الخلافة ونظامها السيئ وفوضاها . لا بدّ من أنه يضيف إلى كل ذلك أنه لا ينبغي بذلك العمل الخلافة لنفسه ، وإنما نهض ليحارب جميع النزعات غير السنية من زندقة وخوارج وتشيع علوي وغير ذلك ، وأنه يدعو للخلافة العباسية . إذا ظهر رجل يعلن خطة كهذه ، فإنه بالإمكان أن يؤمن النجاح .

إن فرصة استمرار هذا النجاح ليست كبيرة ، لأن سلطة الخليفة التي كانت تضيع في تيارات الفوضى التركية ، وفي حرب الزنج ، عادت قوية بعد أن انتهت من هذه الغمرة ، وخرجت منها شبه سليمة ، ثم حاولت أن تكبح جماح هذه النزعة الاستقلالية ، واستطاعت أن تقضي عليها أحياناً . والسبب في نجاحها بالقضاء عليها هذه المرة ، أنها لم تستطع أن تحقق استقلالاً فعلياً تاماً . فالظروف التي نشأت فيها هي التي أعطتها ذلك اللون من الاستقلال وجعلته يتحقق . ولنذكر أن الأمراء المستقلين عن المملكة كان لابد لهم من أن يعترفوا بالخلافة العباسية ، ومظاهر هذا الاعتراف ثلاثة :

أولها : الدعوة للخليفة على المنابر ، فهو لا يزال إمام المسلمين ولا يزال ممثل السلطة الروحية .

ثانيها : وضع اسم الخليفة على النقود قبل اسم الأمير المستقل . هذا مظهر من مظاهر الخلافة ، وهو مظهر يجمع بين أقطار البلاد الإسلامية ، مادام اسم الخليفة مثبتاً على النقد الذي ينتقل من بلد إلى آخر ، فإن الوحدة^(١) بذلك حاصلة .

والمظهر الثالث : من مظاهر الخلافة الدينية هو إرسال قسم من الخراج^(٢) إلى بيت مال الخلافة . فالخليفة ممثل المسلمين ، وحقه ينبغي أن يصل إليه من الخراج ، ولم يخرج الأمراء المستقلون على هذه القاعدة إلا في فترات يسيرة .

(١) أعتقد أن هذه الوحدة اسمية ، ما دام الخليفة لا يستطيع أن يفرضها بنفوذه المادي إلى جانب نفوذه المعنوي . لذا يلاحظ أن البحث هنا في المظاهر لا في الحقائق - المنقح .

(٢) إرسال الخراج لم يكن منتظماً . وإن الخراج المرسل يساء استعماله ، ويذهب نهياً بين الأمير المستقل والتسلط في بغداد والوزراء والكتاب ... أتى وقت كان فيه الكاتب أغنى من الخليفة وهذا ما جعل بعض الأمراء يجمعون عن إرسال أي شيء إلى المركز فيما بعد - المنقح

يظهر لنا من كل ذلك أن وسائل الوحدة وإعادة الدولة إلى سابق عهدها كانت لاتزال ممكنة ، ولكن لا يمكن أن يتم ذلك إلا بأن تعود الخلافة إلى سلطانها الزمني وإلى قوتها العسكرية ، وتستند^(١) إلى عصبية متينة ، عندئذ يمكن أن تظل الوحدة قائمة . وإذا حصل تجاوز على ذلك من الأمراء المستقلين ، فإنه بمقدور الخليفة أن يردع المنشقين بما يملك من قوة . فإذا لم يستطع الخليفة أن يضمن هذه القوة ، فإن الأمر يخرج من يده ، والنزعة الاستقلالية تنمو وتستفحل .

إن حركة الاستقلال ذات ثلاث صفات متميزة :

أولاً - عاصر حركة الاستقلال ضعف الخلافة العباسية ، وهي لاتستطيع النجاح إذا زال ذلك الضعف ، فهي إذا تَبَعَ لهذا الضعف .

ثانياً - يدخل في تلك الحركة مطامع أصحابها : فكل حركة منها قضت على التي قبلها ، وامتدت إلى أرضها ، فاستولت عليها ، فهي إذا حركة مطامع شخصية لاحتركة استقلال مناطق ، وهي حركة تستفيد من ضعف الخلافة .

ثالثاً - قوّت هذه الحركة في الشعب فكرة الاستقلال ، وبعثت فيه الروح الاستقلالية ، فأصبح متحفزاً متوثباً للاستقلال مرة أخرى ، ينتظر الفرصة . لذلك فإنّ الأمراء المستقلين لم يضيعوا وقتهم ، بل عملوا على ترقية حالة الشعب ، ورفعوا عنه في بعض الحين ظلامته ، وعدّلوا نظام الإقطاع عنده . وأكثر من كل ذلك أنهم أحدثوا فيه ميلاً ثقافياً إلى الاستقلال ، فبعثوا أمجاده القديمة ، وأحيوا لغته المحلية ، بل إن دولة في فارس أباحت ترجمة القرآن إلى الفارسية ، وأحيت ذكرى الشعراء القدماء ، وشجعت

(١) من هذه الكلمة إلى آخر الفقرة أضفتها من عندي ليم المقصود - المتنح .

الشعراء على قول الشعر بالفارسية ، فأحيت في نفس الشعب ميوله نحو النزعات القومية الثقافية . حدث هذا بخاصة في بلاد إيران . لقد استخدم هذه النزعة البويهيون بعد عصرنا الذي ندرسه بزمان ما ، فاستقلت بلاد فارس عن الدولة العباسية نهائيا .

ولنشرع الآن في البحث عن الحوادث التي تتالت ، فتكوّن بها حكم الإمارات المستقلة ، وتوطدت أركانه ، ثم اختفت معالمها بعد ذلك .

الدولة الطاهرية (٢٠٥ - ٢٦١ هـ) - ٢٨٢ هـ

أول^(١) إمارة من هذا النوع استقلت بعض الاستقلال عن الحكم العباسي هي الدولة الطاهرية في خراسان ، وهي التي شرعت الطريق لغيرها من الدول ، وأتت دولة بعدها في المنطقة نفسها هي دولة الصفارين فنقضتها ، ثم نقضت دولة السامانيين دولة الصفارين . فهذه ثلاث دول تتوالى على الحكم في بعض بقاع إيران أو فيها كلها .

أما نشوء الدولة الطاهرية فإنه يرجع إلى عهد المأمون : ذلك أن طاهر بن الحسين وابنه طلحة ساعدا المأمون مساعدة قوية في حربه ضد أخيه الأمين ، فاستقام له الأمر في ذلك / لكن المأمون لم يشأ أن يجعل المكافأة ماكانا يرميان إليه من نيل إمارة وولاية في خراسان . ذلك أن المأمون كان يخشى أن تؤدي هذه الإمارة إلى الاستقلال في شؤون خراسان ، فهما أبناء هذه المنطقة ، وإن أهلها يحبونها . ولكن بالرغم من تخوف الخليفة ، فإن طاهر بن الحسين ما فتئ يرنو إلى هذه الولاية ، ويتخذ لذلك كل الأساليب ، حتى أقنع الوزير أحمد بن أبي خالد بالتوسط له لدى

(١) أول إمارة استقلت هي إمارة بني الأغلب في إفريقية ؛ وكان ذلك في عهد الرشيد سنة ١٨٤ هـ .

المنقح .

الخليفة فضمنه عند المأمون ، وقبل المأمون أن يوليه خراسان ، فسار إليها .
ما انتقضت أعوام -حتى قطع طاهر في سنة ٢٠٧ الخطبة للمأمون . يذكر لنا
التاريخ بعد ذلك أن طاهراً قد مات ، ولعله قُتل مسموماً^(١) .

ولى المأمون ابنه طلحة مكانه (٢٠٧ - ٢١٣ هـ) وبعد طلحة تولى عبد
الله بن طاهر (٢١٣ - ٢٣٠ هـ) الواحد بعد الآخر ؛ طاهر الثاني بن عبد
الله (٢٣٠ - ٢٤٨ هـ) ، محمد بن طاهر (٢٤٨ - ٢٥٩ هـ) . طاهر الثالث بن
محمد (٢٥٩ - ٢٦١ هـ) - ٢٨٢ هـ^(٢) كان الخلفاء يسعون خلال هذه التولية إلى
إزاحة الطاهريين عن خراسان ، لأن شأنهم فيها أصبح قويا ، ولأنهم أخذوا
يستقلون فيها عن الخلافة ، لكن الخلفاء لم يكونوا يتمكنون من
ذلك ، فمؤامراتهم كانت تخفق ، وكانوا يظهرون بمظهر الموافق البعيد عن
المؤامرة .

بقي الطاهريون في خراسان وما حولها ، حتى أتى يعقوب الصفار
فأزاحهم عنها سنة ٢٦١ هـ . الدولة الطاهرية دولة مستقلة عن الدولة
العباسية بالمعنى الذي ذكرناه ، بل إن استقلالهم كان أقل من استقلال غيرهم
من الدول ، لأنهم هم الذين شرعوا الطريق ، والذي يشرع الطريق يلقي
فيه الصعوبات . كانوا يدفعون الخراج سنوياً إلى العباسيين ، دفعوا سنة
مائتين وإحدى وعشرين للهجرة ثمانية وثلاثين مليون درهم من وارد يقدر
بثمانية وأربعين مليوناً . تقربوا من العامة ، وحاولوا إنصافها ، ولو أنهم كانوا
أرستقراطيين بالفعل ، ميالين إلى الترفع عنهم . شجعوا الزراعة والاقتصاد ،

(١) تذكر كتب التاريخ روايات عديدة بصدده موته : أكثرها يدل أن الوزير أحمد بن أبي خالد الذي

ضمن طاهراً أمام المأمون ، أرسل إليه من دس السم له - المنقح .

(٢) وجد نقد ضرب في مرو سنة ٢٨٢ هـ يحمل اسم طاهر بن محمد .

وأخذوا بمذهب السنة وناصروه وقاتلوا شيعة آل علي في طبرستان ، وكانوا في
الجملة موالي بني العباس . مع التمتع بالاستقلال عنهم وتكوين إمارة لهم
خاصة .



الصفّارون (٢٥٤ - ٢٩٠ هـ)^(١)

كانت سجستان تابعة للدولة الطاهرية ، يحكمها عامل من قبلهم ، غير
أن الخوارج كانوا يعيشون فيها فساداً ، ويقتلون وينهبون دون الاستناد إلى
مبدأ أو فكرة دينية ، فقد أصبحوا قطاع طريق ونهابين . جهّز عامل
سجستان بقيادة درهم بن نصر فرقة لمقابلتهم ، وكان في هذه الفرقة شاب
اسمه يعقوب بن الليث ، وكان صفّاراً قبل ذلك ، يعمل في تصفير الأواني
النحاسية . سارت الفرقة إلى الخوارج ، فضربتهم ضرباً شديداً ، وعادت إلى
عاصمة سجستان . علا شأن هذه الفرقة حتى أنها اضطرت العامل إلى أن
يترك سجستان لها ولرئيسها درهم ~~بن~~ ^{بن} يعقوب سارت شهرته قائداً
مجيداً قوياً ، وكثرت مآثره ، فتخلى له درهم عن سجستان . سار إلى
الخوارج ثانية ، فسوى الأمور في سجستان بالقوة ، وطردهم ، وتبعهم
تبعاً شديداً ، وأقبل على الجند يعطيهم المال ، ويعنى بهم غاية العناية ؛
وأقبل على الشعب أيضاً يسهل له أمور معيشته . كان يعقوب طموحاً تقدم
في الأقطار المجاورة له وغزاها ، وغزا الهند ، واستولى على بعض المناطق في
شمالها ، ثم تقدم نحو خراسان فأزاح الدولة الطاهرية سنة مئتين وتسع
وخمسين . استاء الخليفة من هذا ، فهو لم يكن يريد شخصاً قوياً يستولي

(١) هذه مدة الدولة الأولى من الصفارين (زباور ص ٢٠٢) - المتقح .

على المشرق ويستقل عنه ، لذا أصدر مرسوماً باعتبار يعقوب مفتصباً للدولة الطاهرية ، فلم يأبه يعقوب لهذا المرسوم ، بل تقدم غرباً سائراً نحو بغداد . خرج أخو الخليفة وهو الموفق إلى محاربته ، وقد ترك حرب الزنج - كما رأينا - والتقى به بدير عاقول ، فدعاه وأراد أن يتفاهم معه ليستطيع أن يتفرغ لحرب الزنج ، ولكن يعقوب لم يرد التفاهم ، ومات بعد قليل ، فتولى أخوه عمرو مكانه . قبل عمرو بالصلح مع الموفق ، فعهد إليه هذا بالمشرق جميعه ، ثم إنه بعد حوادث وتفاصيل لا محل لذكرها تغلب السامانيون الذين خرجوا من ماوراء النهر ، وأسروا الأمير طاهر بن محمد بن عمرو سنة ٢٩٨هـ ، وانتهت دولة الصفارين الأولى .

والصفارون اعتبروا الجند أساساً لدولتهم ، وتوسعوا بقوته وسلطانه ، وانتبهوا إلى إصلاح أحوال الشعب أيضاً ، وإلى تحسين الاقتصاد ، وكانوا حيناً يقطعون الخطبة للخليفة ، لكنهم كانوا إجمالاً يرغبون في أن يحصلوا من الخليفة على عهد يمارتهم ، فكانوا ينقشون اسمه على السكة ويخطبون له في أغلب الأحيان ، إلا أنهم لم يرسلوا إليه الضريبة بصورة منتظمة .



السامانيون في بخارا^(١) (٢٥٠ - ٣٩٥ هـ)

كان سامان خوداه جد السامانيين قد اعتنق الإسلام في عهد هشام ابن عبد الملك . عيّن المأمون أحفاد سامان هذا على مناطق ماوراء النهر (سمرقند - فرغانة - الشاش) وعلى (هراة) لكنهم كانوا تابعين للطاهريين يستمدون أوامرهم منهم ، ثم قوي أمرهم بعد المأمون فامتدوا إلى بخارا وجعلوا

(١) بخارا كتبت على النقود العربية الإسلامية بالألف (المنقح)

مركز حكمهم فيها ، واستقلوا عن الطاهريين / قدم الخليفة المستعين لأحدم
(واسمه نصر^(١)) عهداً بولاية ماوراء النهر كله سنة ٢٥٠ هـ ، إلا أن نصراً
اختلف مع أخيه إسماعيل ، فتغلب إسماعيل على نصر ، لكنه استبقاه حتى
مات فتولى مكانه . أظهر إسماعيل مقدرة كبيرة بالحكم ومعرفة ، استولى على
خراسان وأسس الحكم ، ثم آل الأمر من بعده إلى حفيده نوح الأول
سنة ٣٣١ هـ ، ولم يكن قديراً كل القدرة ، إلا أن حركة التأليف والعلم في
عصره كانت قوية . ولكي يبقى في الحكم ويقوى ، استمد العون من الترك
القرخانيين ، كما كان استعان بهم خليفة بغداد المعتمد قبل ذلك ؛ فحصل له
ما حصل بالعراق ، فقد استبد الأتراك بالأمر دون الملوك السامانيين ،
واضطرب أمرهم معهم ، حتى انتهى بهذه الدولة الحال إلى أن هجم على عبد
الملك الثاني محمود بن سبكتكين ، ففقد على دولته .

كان السامانيون يضعون أسماء الخلفاء على النقود ، ويعطونهم حيناً قسماً
من الجزية والخراج ، ويقدمون إليهم العهد . كانت
سياستهم من الناحية الدينية كسياسة الطاهريين والصفارين ، سياسة
سنية ، حاربوا القرامطة ، وساعدوا الخليفة على أمرهم ، لكنهم لم يستطيعوا
أن يستمرؤا على ذلك ، والذي فعلوه بصورة خاصة - وهذا أكثر مما فعله
غيرهم - هو أنهم أثاروا الفكرة الثقافية الفارسية وشجعوها ، وقووا نزعتها ،
بل إن علماءهم أفتوا بجواز الصلاة بالفارسية . السامانيون هم الذين أسسوا
الاستقلال الفارسي الحقيقي الذي امتد شأنه بعد ذلك كما سنرى ، وهم الذين
بعثوا الفكرة الاستقلالية الحقيقية من الناحية الثقافية في نفوس الفرس .



(١) لوالده أحمد بن أسد نفوذ في ماوراء النهر منذ سنة ٢٠٤ هـ (زمباور ص ٢٠٦) - المنقح .

الطولونيون بمصر والشام (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ)

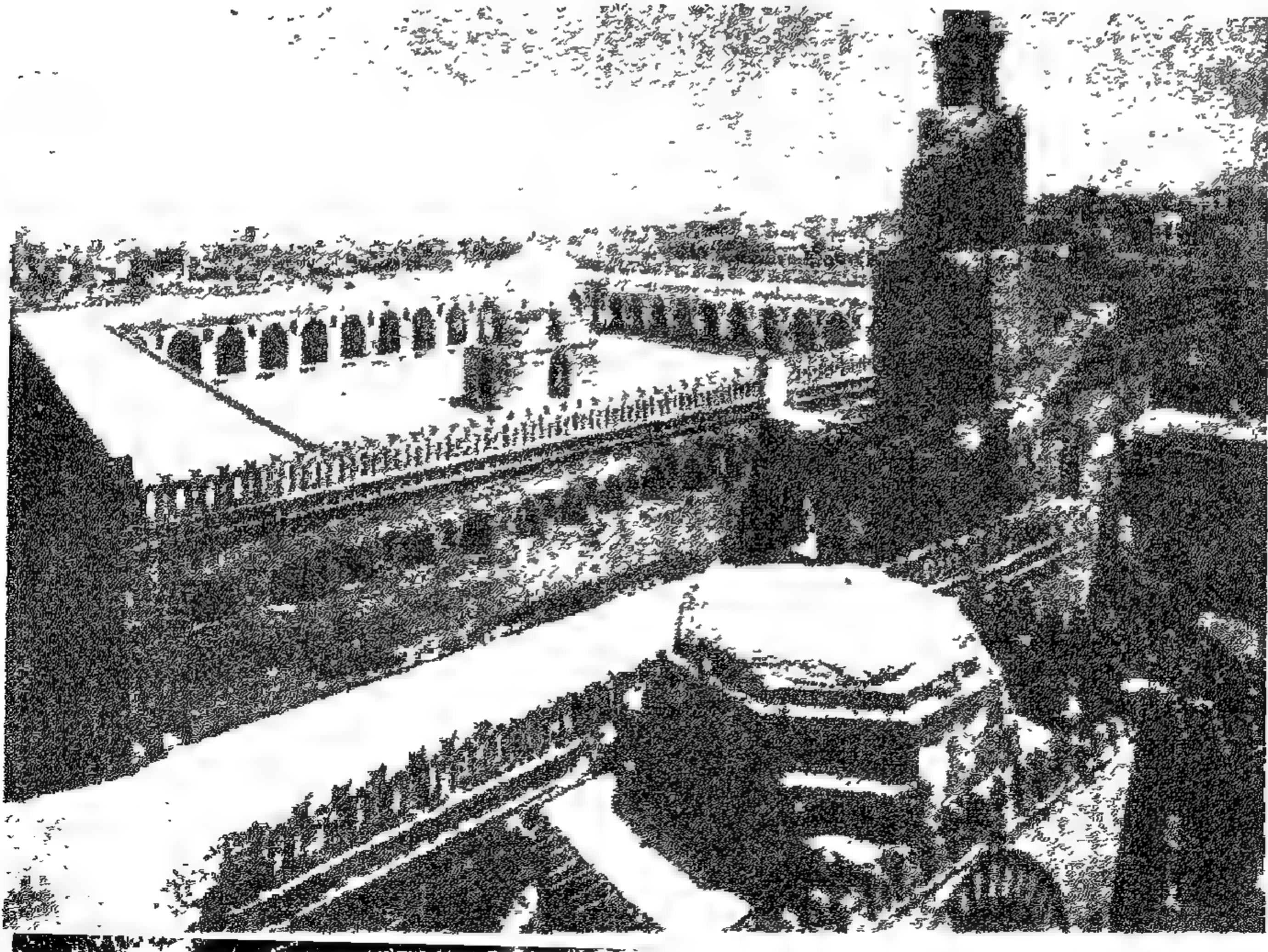
لم ينبغ من الأتراك في الدولة العباسية في العصر الذي نذكره ، شخص استطاع أن يفعل عملاً يخلد به اسمه غير واحد منهم اسمه أحمد بن طولون ، وأصله تركي من بخارا ، عمل والده قائداً لحرس الخليفة في عهد المعتصم ، ونشأ أحمد نشأة دينية وتعلم العلم الديني ، وخالط المحدثين والمتصوفة ، وذهب إلى طرسوس فأقام فيها مرابطاً يجاهد مع المجاهدين ، ثم انتدبه بايكباك^(١) (وهو زوج أمه) نائباً عنه في مصر ، فسار إليها ، وتكشفت في ذلك الوقت قدرته ووسائل نبوغه ، فوجد الاقتصاد في مصر مضطرباً كل الاضطراب ، والدخل قد تناقص ، ووجد العامل هناك مستبداً بالناس ، ووجد الشكوى عامة . فتقرب من الناس وتودد إليهم بالنفقة الكثيرة ، وأصلح الحالة الاقتصادية ، وألغى بعض الضرائب وعمل عملاً جدياً ببناء كبيراً . مصر في الأصل غنية أفسدها سوء الاستعمال . لما أصلح حالها ابن طولون ظهرت ثروتها بأعماله ، وازداد الدخل ، فأصبح أربعة ملايين دينار . عني ابن طولون بالفلاحين عناية خاصة كما عني بالفقراء . أنشأ مستشفى وجامعاً وهو الجامع المشهور الذي لاتزال آثاره باقية إلى اليوم ، واستطاع أن يعزل عامل الخراج أحمد بن المدبر الذي كان يسيء العمل في مصر ، وتمكن من الحكم بهذا التودد للناس وبذلك الإصلاح وبالهدايا الهائلة التي كان يرسلها إلى أصحاب الأمر في بغداد : فما من رجل في بغداد له مكانة إلا كان يتلقى من أحمد بن طولون الهدايا ، وإذا قصد

(١) ورد اسمه (بابكيال) في ابن الأثير (٧ / ٦٠) عدداً من المرات ؛ لكن الطبري يورده على الشكل

الذي أثبتناه - المنقح .

أحدهم أن ينحّيه عن ولايته جاءت الأموال فأسكتته ، وامتد الزمن فاستتب له الأمر في مصر .

ولما تمكّن الموفق من الحكم في بغداد ، أراد أن يعيد نفوذ الدولة العباسية إلى مصر ، فعين أمّاجور والي سورية والياً على مصر ، لكن أحمد بن طولون رفض أن يسلمه الولاية ، بل سار بعد وفاة أمّاجور إلى سورية فاستولى عليها ، وكان الموفق مشغولاً بحرب الزنج . عين ابن طولون في سورية خادمه لؤلؤاً نائباً له عليها ، لكن لؤلؤاً تحالف مع الموفق ، لكي يمكن الأمر لنفسه في سورية ، وأعلن العصيان على أحمد بن طولون ، ولم يرد الموفق ولا أحمد الدخول في حرب ، فلم يرسل الموفق إلى لؤلؤ جيشاً يساعده للهجوم على مصر ، بل كل ما فعله أنه أعلن شتم أحمد بن



منظر لجامع ابن طولون في القاهرة (عن كرزويل)

طولون على المنابر ، وقابله ابن طولون بأن أسقط اسمه كولي للعهد من الخطبة ، بل دعا الخليفة للمجيء إلى سورية ومصر هرباً من أخيه الموفق ؛ وكان المعتمد تقريباً تحت وصاية أخيه الذي كان مستبداً بالأمر دونه ، وكان يدير الدولة بحق وجدارة .

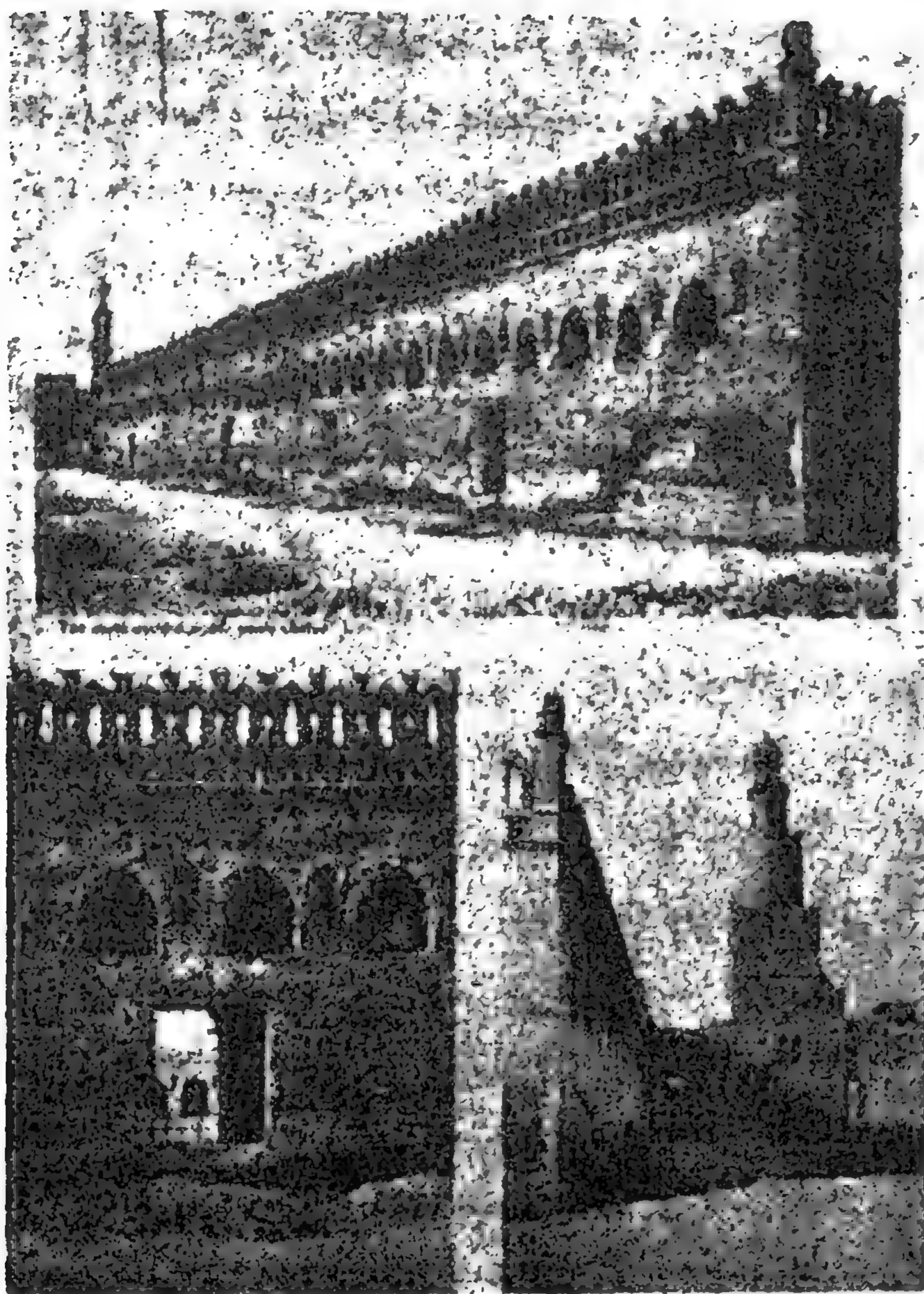
استطاع الموفق أن يعيد أخاه إلى بغداد ، ولما توفي أحمد بن طولون سار عامل الموصل إلى سورية ، فاتفق مع عاملها ، وسار الاثنان إلى مصر ليزيحا الدولة الطولونية ، وكان الذي استولى على الأمر في مصر هو خمارويه بن أحمد بن طولون ، فسار إلى قتال هذين الواليتين فهزمهما . عاد إلى مصر ليدبر حملة أخرى ؛ وفي أثناء ذلك اختلف العاملان على تقاسم الأسلاب في سورية ، فعاد خمارويه وتمكن من ضرب عامل سورية . أرسل الخليفة إلى عامل سورية من أسعفه وهو أحمد بن الموفق الذي أصبح فيما بعد خليفة بعد المعتمد ، هزم أحمد بن الموفق خمارويه ، لكنه لقي صعوبات في سورية ، وخرج عليه بعض جيوشها ، فوجد أن أحسن حلّ يعملهُ هو الاتفاق مع خمارويه وتسليمه سورية ، فأعطاه الولاية على مصر وسورية مقابل مال رتب عليه .

المصاهرة بين الخليفة وخمارويه :

لما تولى أحمد بن الموفق الخلافة بعد المعتمد باسم المعتضد ، خطب ابنة خمارويه قطر الندى ، وتزوج منها بعد ذلك بسنتين . أنفق والدها الأموال الهائلة على زفاف ابنته ، حتى قيل إنه افتقر بعد تزويج ابنته ، وإنّ المعتضد الخليفة ما قصد بزواجه منها إلا ليفقره .

بعد أن توفي خمارويه وتولى ابنه جيش مكانه ، اضطربت أحوال

الطولونيين وخرج القرامطة في سورية ، فلم يستطع أن يتغلب عليهم ،
وأتعبوه ، واضطروا عامله في سورية إلى أن يستنجد بالخليفة ، فأرسل
المكتفي له جيشاً لمساعدته على القرامطة ، وقضى الجيش عليهم ، لكنه لم



لتقطات من جوانب جامع ابن طولون (عن كرزويل)

يقف عند سورية ، بل رأى أن يمدّ سلطته إلى مصر ، فيعيد الاستيلاء عليها باسم الخليفة . في الواقع دخل جيش الخليفة مصر واستولى عليها ، ودكّ مدينة القطائع التي بناها أحمد بن طولون تشبهاً بالخليفة الذي بنى سامراء . وهكذا انتقضت الحركة الطولونية من مصر وعاد الخليفة وسيطرته عليها .

نتائج حركة ابن طولون الاستقلالية في مصر :

هذه الدولة الطولونية لا تنطوي على فكرة استقلالية شعبية ، لأن المصريين ما كانت لهم شخصية وطنية تخالف شخصية العراق ، إنما كانت نتيجة أطماع شخص هو أحمد بن طولون ، هيأت له هذه الأطماع مقدرته من جهة ، وسوء التدبير وضعف الحال في العراق من جهة أخرى . ولكن مع ذلك فإن مصر استفادت من هذه الحركة ، وظهر لها أنها قادرة على أن تستقل يوماً ما عن الخلافة العباسية ، وظهر لها أن الأموال التي كانت ترسل إلى العراق يمكن أن تنفق في مصر ، فتفيد أبنائها ، والواقع أن أحمد بن طولون استطاع أن يرفع من مكانة مصر الاقتصادية إلى درجة ما كانت تحلم بها ، فهو قد بنى فيها مدينة القطائع ، وبنى قصره في مكان قريب من المكان الذي بنى فيه صلاح الدين قلعة فيما بعد ، وبنى أحمد الجامع بأبهة عظيمة . إن آثار هذا الجامع اليوم قائمة بهندسته العراقية ومئذنته الملوية على الطريقة الكسروية القديمة ، يبدو سلّمه الحلزوني من الخارج ، وبنى ابن طولون المستشفى . خلاصة القول إن الدولة الطولونية أظهرت أن مصر قادرة على أن تستقل عن الخلافة ، وسرى أنها استقلت فعلاً في عهد الفاطميين بعد محاولة مشابهة لحركة الطولونيين وهي حركة الإخشيديين .



الدولة الإخشيدية في مصر والشام (٣٢٣-٣٥٨ هـ)

أصل الإخشيدين أتراك من فرغانة ، ويقال إن جدهم كان من ملوكها . التحق أبو الإخشيد وهو طُغج بخدمة الخليفة العباسي ، فعينه على بلاد الشام سنة ٢٨٣ هـ . ظهر محمد بن طغج في بلاد الشام ، وقد التحق بخدمة عامل الشام سنة ٢٩٧ هـ ، ثم دخل في خدمة تكين بن عبد الله الحزري الذي تولى محاربة الفاطميين في مفتح القرن ٤ هـ ، وقد بذل محمد بن طغج جهوداً عظيمة في مقاومتهم ، حتى نال ثقة الوالي والخليفة ، فأصبح والياً على مصر . وفي عهد ولايته تمكن من صد الفاطميين بنجاح ، مما دعا الخليفة أن يمنحه لقب الإخشيد (وهو لقب معروف في بلاده الأصلية) . حاول الفاطميون أن يستبيلوا الإخشيد ، لكنهم لم ينجحوا . أدخل الإخشيد إصلاحات هامة على مصر ، وقاوم الحمدانيين الذين كانوا يطمعون بحكم بلاد الشام .

مات الإخشيد سنة ٣٣٤ هـ ، وترك ولدين تحت وصاية مولاه كافور الذي حكم مصر والشام كوصي على الولدين مدة عشرين عاماً . ثم أصبح والياً لمدة سنتين ثم توفي عام ٣٥٧ هـ . واضطربت الأحوال بمصر .

كانت الدعوة الفاطمية قد تغلغت بمصر ؛ وفي سنة ٣٥٨ هـ ، دخل الجيش الفاطمي بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ هـ .



الدولة الزيادية في اليمن (٢٠٤ - ٤١٢^(١) هـ)

كانت بعض بلاد اليمن مستقلة بعض الاستقلال عن الخلافة ، ذلك أن

(١) اعتماداً على زيباور . هذه الخلاصة وضعها المنقح لإتمام البحث .

العباسيين لم يستطيعوا إخضاع رؤساء القبائل في اليمن إخضاعاً تاماً ، فكان
عالمهم يختصمون دوماً مع هؤلاء الرؤساء . أرسل المأمون سنة ٢٠٤ هـ أحد
الأشخاص المنتسبين إلى زياد بن أبيه واسمه محمد بن إبراهيم قائداً لتلك
المنطقة كي يقضي على حركة علوية ، ويسوي الأمور فيها ، فاستولى على
جنوبي البلاد العربية وأقام في زبيد حكماً لنفسه مستقلاً بعض الاستقلال
عن بغداد . رضي الخليفة المأمون بذلك ولعله رأى ذلك أفضل من حكم
رؤساء القبائل . امتدَّ حكم هذه الدولة حتى سنة ٤١٢ هـ .



الزيدية في طبرستان وجنوبي بلاد اليمن

الزيدية في طبرستان :

يتبع حركة استقلال بعض الأمراء عن الدولة العباسية حركة للزيديين
في الاستقلال في طبرستان وجنوبي بلاد اليمن . هذه الحركة ليست كذلك
الاستقلال الذي بحثناه سابقاً ، لأنها تختلف عنه بالدعوة للفكرة العلوية
الزيدية ، وهي تتفق معه في الاستفادة من وضع الخلافة المضطرب ، وفي
الاستفادة خاصة من أوضاع الإقطاع والضغط على الشعب .

كان في طبرستان في النصف الأول من القرن الثالث ضغط على
الفلاحين وكان الإقطاع متزايداً في هذه المنطقة ، حتى إن الخليفة المستعين
أقطع محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد أراضٍ في
طبرستان ، فلم تكفِ هذه الأراضٍ ، بل وضع يده على الأراضٍ المجاورة لها .
فضجَّ الفلاحون من ذلك ووجد الزيديون : أبناء زيد بن علي الذين
ما كفوا عن الدعوة لأنفسهم في مناطق العالم الإسلامي المختلفة ، وجدوا
هناك أرضاً خصبة لدعوتهم ، استجاب السكان لتلك الدعوة التي كانت تعدُّ

برفع الظلم والإجحاف ، فثار الحسن بن زيد سنة خمسين ومئتين ، وجمع حوله عدداً كبيراً من الفلاحين ، واستولى على طبرستان وجرجان ، وأقام إمارة مستقلة باسمه ، وحكم هو وأولاده ، حتى أتى السامانيون سنة سبع وثمانين ومئتين ، فأزاحوا الزيدية عن هذه المنطقة .

مضى بعض الزمن ... وفي عام واحد وثلاثمائة قامت حركة أخرى زيدية في طبرستان قام بها حسن بن علي الأطروش ، ولقب نفسه ناصر الحق ^(١) ، وتبع طريق الحسن بن زيد ، فدعا إلى القضاء على الإقطاع ، والتف حوله الفلاحون فأقام حكماً له في طبرستان استمر حتى عام أربعة عشر وثلاثمائة حين أتت الإمارة الزيارية ^(٢) فأطاحت بحكمه .



الدولة الزيدية في اليمن

(٢٤٦ - حوالي سنة ٧٠٠ هـ)

أما في جنوبي الجزيرة العربية ، فقد ظهر أحد أبناء زيد بن علي واسمه يحيى بن الحسين وهو من أحفاد القاسم الرسي عالم من علماء المذهب الزيدي ظهر في خمسين رجلاً في منطقة بين مكة وصنعاء في مكان اسمه صعدة ، فأقام حكماً لنفسه واتخذ صعدة عاصمة له . وأصلح الأمر بين المسلمين وبين نصارى نجران ، فاستتب له الأمر ، لكن سلطته انحصرت في هذه المنطقة ، ولم تمتد إلى سواها ، إلا بعد زمن حين استطاع أولاده أن يستولوا على اليمن ، فشكلوا فيها الدولة الزيدية الأولى (٢٤٦ - ٥٦٩ هـ) ثم الدولة الزيدية الثانية (٥٩٣ - حوالي ٧٠٠ هـ) .

(١) ابن الأثير يلقبه (الناصر) فقط - المتنقح .

(٢) الدولة الزيارية حكمت جرجان وطبرستان بين ٣١٥ - ٤٧١ هـ المتنقح .

حركة القرامطة

المقدمة :

ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث حركة فرقة دينية باطنية تستند في مبدئها الأساسي إلى أن لكل ظاهر باطناً ، فأيات القرآن ظاهرها يعطي معنى ، وباطنها يعطي معنى آخر ، ويمكن تفسير القرآن الكريم بباطنه ، فيختلف الأمر اختلافاً كلياً . أما السؤال الذي يتبادر إلى الذهن بالنسبة لهذه الحركة الباطنية فهو « من الذي يستطيع أن يؤول القرآن ذلك التأويل الباطني ، فيطلع على معانيه الحقيقية الباطنية » ؟ إن الإمام العلوي من أبناء علي بن أبي طالب ، وأبناءه ورثة النبوة والمطلعين على الأسرار والخفايا هم الذين يستطيعون أن يؤولوا القرآن وحدهم . مثل هذه الحركة ظهرت قبل هذا العصر في العهد الأموي ، ظهرت مع الكيسانية والسبئية . ليس موضوعنا هنا أن نهتم بالكيسانية والسبئية كعقيدة ، وأن نشرح مبادئها ، لكنّ علينا أن نقول إن الناحية السياسية ظاهرة في هذين المذهبين . وقد استفاد منها المختار بن أبي عبيد الثقفي ، فقام بحركته المشهورة ، ثم قضى على حركته ، فاخفت ونامت ، لكنها كانت متجسمة في النفوس . قامت الدولة العباسية في أول أمرها على الاستعانة بالكيسانية والسبئية بمظهر جديد هو الهاشمية ، لكن العباسيين حينما بلغوا الحكم ، وأصبحوا خلفاء تنحّوا جانباً عن هذه المبادئ المخالفة للفكرة السنية . أما فكرة الباطنية فقد استمرت تحارب العباسيين أنفسهم ، فقد حدث أن جعفرأ الصادق ، عهد بالأمر من بعده إلى ابنه إسماعيل . لكن إسماعيل هذا توفي

تاركاً ولداً اسمه محمد . نقل جعفر الصادق الإمامة إلى ابن له آخر . لكن أصحاب إسماعيل استمروا على القول بإمامة محمد ، فكان الإمام السابع عندهم . ثم توفي محمد مختفياً ونسب إليه أنه الإمام المستور والمهدي المنتظر الذي سيأتي يوماً من الأيام ، وسيظهر العدل في بقاع الأرض . هذه الحركة تسمى بالإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل ، وتسمى بالسبعية لأنها وقفت عند الإمام السابع ، وتسمى بالوقفية لأنها توقفت عند إمام معين ، وقد أنتجت حركتين سياسيتين مختلفتين بعض الاختلاف ، أولهما حركة القرامطة والثانية حركة الفاطميين .

يصعب على المؤرخ كثيراً أن يستجلي نشأة الحركتين ، وأن يظهر اختلافها ، وأن يميز إحداها عن الأخرى ، بل يصعب عليه أن يرى نشأة هاتين الحركتين وتطورهما الأول ، والسبب في ذلك واضح هو أن الدعوة للفرقتين دعوة سرية لا تباح ولا تعرف ، وهي على درجات فلا يمكن للمؤرخ أن يرى تطور الأمور بشكل واضح ، بل يراه خلال خفايا الظروف . يجب علينا ألا نهتم اهتماماً بالغاً بنشأة الحركة ، فلعل هذه النشأة ، اكتنفها في الأصل الغموض ، ولم تكن واضحة عند أصحابها أنفسهم ، فكونها دعوة سرية ، يجعل لها اتجاهات مختلفة . كل اتجاه لا يعرف سيرة الآخر ولا موضوعه ولا كيف يعمل . ومما لا ريب فيه أن الحركتين تقفان عند عهد المهدي محمد ، ولكنها تختلفان بكيفية الدعوة بعض الشيء ، وبالرأي والعقيدة أيضاً ، والسبب في ذلك أن الباطنية ليست دعوة دينية محضة ، فالجانب السياسي فيها هو الأساس ، وليس في حركة الفاطميين أو القرامطة رجل مؤمن كل الإيمان بمذهبه ودينه ، متمسك به كل التمسك ، يتخذه مذهباً أساسياً وعقيدة دينية دون أن يكون له غاية

سياسية ، إنما كان على رأس الباطنية أشخاص ذوو طموح ، يريدون أن يصلوا إلى تحقيق رغباتهم في الوصول إلى الحكم . وسنرى في أبحاثنا القادمة الدليل على ما تقول .

هذه المقدمة الوجيزة ، تفيدنا في فهم حركة القرامطة على حقيقتها الأساسية وتبين لنا الطريق الذي يجب أن نخطه في البحث .

نشأة حركة القرامطة :

حركة القرامطة نشأت في العراق وبصفة خاصة في سواد العراق ، أي في قراه لا في مدنه ، انتشرت قريباً من الكوفة ، واتجهت الدعوة إلى الفلاحين . الفلاحون من النبط ، والنبط^(١) هم من سكان البلاد القدماء الذين استقروا في المزارع والأراضي ، يعملون عليها ، وهم يعتنقون أدياناً مختلفة ، ولهم عقائد كثيرة . انتشرت الدعوة القرمطية أيضاً بين أصحاب الحرف ، ثم آل بها الأمر في الشام إلى أن اتجهت إلى الأعراب ، وسرت بينهم ، وقامت على أكتافهم ثورات وحروب . الذي جمع هؤلاء الجماعات (الذين وجهت إليهم الدعوة) هو كونهم فقراء في حالة بؤس شديد ؛ ولذلك فالحركة اتسمت بهذا الطابع المادي ، إذاً هي حركة دعوة بين الفقراء والبؤساء ، وهي تعبير عن هذا الاتجاه . يعني ذلك أن الحركة ينبغي لها أن تتجه لرفع مستوى الفقراء . رأينا في أبحاثنا السابقة حركة الزنج ، وكيف كانت تلك الحركة تعبيراً عن واقع الزنوج في جنوبي العراق وفي مستنقعات البصرة خاصة ، ورأينا أن صاحب الزنج قد استفاد من وضع الزنوج السيئ ، فوسع حركته بوعود منى بها الزنوج ، واستطاع أن يثير تلك

(١) يجب ألا نخلط بين كلمتي (النبط) في العراق و (الأنباط) القدماء الذين كانوا سادة سورية

الجنوبية قبل الإسلام - المنقح .

الحركة بينهم . القرامطة كما ذكرنا انتشروا بين الفلاحين والنبط أصحاب الحرف ثم الأعراب ، بثوا دعوتهم في الطبقة الكادحة البائسة المسكينة ، هذه الطبقة التي حاولت في العصر الأموي أن تثور على الأمويين . وقد استفاد من استيائها المختار بن أبي عبيد الثقفي فاستطاع أن يؤلبهم حوله . هذه الطبقة زادت حالها سوءاً في العهد العباسي ، فقد رأينا أن الثورة في العهد العباسي توسعت ، وكان خطرهما كبيراً على المولدين والأثرياء والإقطاعيين ، لقد استفاد هؤلاء من جهود الفلاحين (وأكثرهم من النبط) في الأرض ، واستفادوا من أصحاب الحرف يشغلونهم ، ويأخذون ثمرات أتعابهم ، فيستفيدون منها . إنهم أيضاً يجنون أرباحاً طائلة من التجارة هي أكثر بكثير مما يستفيد منها صانع السلعة نفسه . هذه الطبقة الكادحة المسكينة ، كان اتجاهها في الدين مختلفاً ، فالنبط أديانهم السابقة متعددة متشعبة ، فهم على دين الأكاسرة حيناً ، وعلى دين الصابئة حيناً آخر . وقد تؤثر فيهم مذاهب أخرى ، لكنهم إجمالاً لم يتفهموا الإسلام كما ينبغي ، إنما فهموه على أنه دوزنة علوية كسروية أكثر من أنه دوزنة ديمقراطية .

ولنتخيل الآن رجلاً قابلاً في السلمية ، وهو دوزنة فكرية علوية إسماعيلية على الصفة التي ذكرناها . ولنتخيله ينظر في شأن العراق ، وفي الفوضى التي ضربت أطناها في بغداد وسامراء (فوضى الأتراك التي رأيناها) . أليس من الطبيعي أن يخطر بباله أن أحسن مركز لنشر دعوته هو بين تلك الطبقة الكادحة المسكينة الفقيرة التي تنظر إلى الدين نظرة علوية كسروية ؟ لا يهمننا في هذا من هو ذلك الشخص ؟ أكان من أولاد عبد الله بن ميون القداح أم من غيرهم ؟ إنما الذي يهمننا أنه استطاع أن يتعرف إلى نواح ثلاث في الأمر :

أولاً : فوضى في الحكم العباسي يسهل الثورة وييسر سبلها .

ثانياً : حالة اقتصادية بائسة لطبقة من الشعب أمام حالة اقتصادية رخيّة راضية عند طبقة أخرى من الشعب .

ثالثاً : جهل عند هذه الطبقة الكادحة وميل إلى فكرة علوية كسروية ، غايتها التحرر من الفقر والبؤس .

يهمنا من هذا أن نعرف أن ذلك الداعي يرى أن تتجه دعوته في ذلك القسم من العراق ، وفي ذلك الوقت بالذات ، فينجح نجاحاً عاجلاً ، لأن أسباب النجاح متيسرة أمامه . نشأة الدعوة - كما قلنا - مبهمة غامضة مضطربة ، ولكن لا يضيرنا كثيراً في بحثنا عدم معرفة هذه النشأة ، إذا عرفنا كيف اتجهت وإلى ما أدّت ، والذي نعرفه أن السُّمِّيَّة في سورية كانت مركز هذه الدعوة .

يقال إن ابناً لعبد الله بن ميمون القداح ^(١) (واسمه أحمد) قام في السامية ، اتجه اتجاهها إسماعيلياً ، فصار يوجّه دعوته من السامية بهذه الفكرة . نعرف أيضاً أنه وجّه إلى سواد العراق وجهات الكوفة رجلاً من

(١) لا بد لنا من التعرف على أصل هؤلاء الناس الذين نشروا الدعوة الإسماعيلية : ميمون القداح رجل فارسي كان يعمل بقدرح العيون التي أصابها الظلام والعمى ، ولا نعرف درجة ثقافته ودينه . ولكنه علم ابنه عبد الله الشريعة الإسلامية ، فحضر حلقات الشيوخ وقرّس على الجدل والمناقشات الفلسفية الدينية ليستطيع أن ينشر الدعوة .

كان لعبد الله بن ميمون ثلاثة أولاد هم : محمد والحسين وأحمد الملقب أبو الشلعل ، وهو الذي أرسل داعية إلى العراق اسمه حسين الأهوازي ، فاتصل بمحمد بن قرمط ، وهو الذي أرسل ابن حوشب إلى اليمن لنشر الحركة الإسماعيلية . خلف الحسين سعيداً : وهو الذي ادعى أنه عبيد الله المهدي ، سليل الأسرة الفاطمية ، وقد اخترع نسباً مربوطاً بالإمام السابع محمد المستور ، فذكر أجداده : عبد الله الرضا ، أحمد الوفي ، الحسين التقي ، عبد الله ، عبيد الله المهدي الذي ولد سنة ٢٥٩ هـ . وهو الذي أسس الدولة الفاطمية في القيروان سنة ٢٩٧ هـ بمسعى الداعية أبي عبد الله الشيعي - المنقح .

أتباعه اسمه حسين الأهوازي ، فسار هذا إلى سواد الكوفة ، ووقع مريضاً ، فانتشله من مرضه رجل اسمه حمدان قرمط ، فعني به ، وتلقى منه دعوته ، فدخلت في نفسه ، وجعل حسين يتصل بأهل السواد ، وينشر الدعوة بينهم ، لكنّ والي الكوفة استطاع أن يعرف نشاطه ، وأن يلتقي القبض عليه ، فسجنه . هرب من السجن ، ورجع إلى سورية ، وبقي في سواد العراق حمدان قرمط نائباً عنه وقائماً بدعوته .

أهداف الدعوة :

لا ندري على الضبط : ماذا حقق حسين الأهوازي في شأن الدعوة ، وما هو المقدار الذي قطعه في ذلك السبيل ؟ إنما الذي يقال لنا في التاريخ أنّ حمدان قرمط سأله عن دعوته ، وما ينبغي عليه منها فقال : « أمرت أن أروي هذه القرية ، وأغني أهلها ، وأن أتقدم من الفقر ، وأضع بيدهم ثروة أسيادهم » . يظهر لنا من هذا الكلام أن الدعوة اتجهت اتجاهاً اجتماعياً اقتصادياً ، لا اتجاهاً دينياً ، والأصح أن تقول : إن الاتجاه الاجتماعي الاقتصادي يغلب على الاتجاه الديني .

تنظيم الدعوة :

وأيّ كان الأمر ، فإنّ حسيناً الأهوازي ومن بعده حمدان قرمط ، نظما الدعوة ونشراها في طبقة الشعب الكادح ، وكان أول التنظيم في المرحلة الأولى انتساب الأشخاص إلى الدعوة ، وقد كان يحصل ذلك دون صعوبة ، فهي دعوة مقربة إلى نفوس أهل السواد . وكانت المرحلة الثانية هي جمع الأموال لتقوية تلك الدعوة ولتمويلها ، وقد وضع حسين الأهوازي وحمدان قرمط أصول ذلك التنظيم ، فأخذا من المنتمين إلى الحركة ضرائب وأموالاً بأشكال مختلفة ؛ وانتهى حمدان في يوم من الأيام إلى أن أعطى هذه الحركة

صورة جديدة ، لعل صاحباً له اسمه عبدان وضع له اسمها بعد دراسة أحوال أهل النبط واتجاهاتهم وميولهم ، فقد جمع حمدان وعبدان أموالاً باسم « الألفة » وهو اسم جديد ؛ والغاية من الألفة ، أن يكون لهذه الدعوة بيت مال ، فيه أموال كل من انتهى إليها ، توزع عليهم هذه الأموال حسب حاجتهم وحسب حاجات الدعوة ، فلا يترتب على المنتسب إلا سلاحه وفرسه ؛ أما أمواله الأخرى وإنتاجه فيقدمها ألفاً ، وينتظر من أصحاب الدعوة - وهم يضعون رجلاً ثقة على هذه الأموال - أن يوزعوها بين الجميع . إذا هذه الدعوة - كما ترون - اشتراكية شيوعية . أقبل المنتون إلى هذه الحركة على هذه الدعوة وقبلوا أساليبها برضى منهم ، وقدموا إليها أموالهم .

تطبيق النظام ونشر الدعوة :

كانت هذه الأموال توزع عليهم حسب حاجاتهم بالتساوي وبالعادل ؛ وكانت مراكزهم في هذه الحركة متصلة تعتمد على كفاءاتهم الشخصية وعلى قدرتهم في إيقاد تلك الحركة ودفعها إلى الأمام . كل ذلك يتفق مع روحهم ومع الوضع الذي كانوا عليه . أدى كل ذلك إلى انتشار الدعوة انتشاراً كبيراً . وجه حمدان الدعوة إلى خارج العراق : أرسل ابن حَوْشَب إلى اليمن ، ووجه أبا سعيد الحسن بن بهرام الجنابي إلى جنوبي إيران ، لكنه لم يتمكن من النجاح فيها ، فهرب منها وسار إلى البحرين فنجح في البحرين أكثر .

انفجار الحركة :

ولما تهيأ الأمر لحمدان ، وكثر أتباعه ، أعلن ثورته في أول أمره بشكل بسيط ، ثم ظهرت تلك الثورة بشكل قوي مفاجئ في عام ٢٨٧ هـ في مكان اسمه جنبلاء بين الكوفة وواسط ، فهاجم المسلمين السنيين ، وقتل النساء

والأطفال ، وأحرق الدور ، وسار بدير عامل الخليفة المعتضد إلى القرامطة ، وشتتهم ، وأوقع فيهم مقتلة كبيرة ، إلا أنه لم يَفنِ حركتهم لأنه - على ما يقال - كان بحاجة إلى العمال والمزارعين ليقوموا بشؤون الأرض والعمل ؛ فعادت الدعوة ثانية ، وعادت الثورة عام ٢٨٩ هـ . شعر الخليفة بخطورة الحال ، وأرسل جيشاً كبيراً ، فهزمهم شرّ هزيمة .

توقف الحركة :

وهنا نشاهد أمراً غريباً ، وهو أن حركة القرامطة في العراق تسكت وتختفي إلى أمد بعيد ؛ ولا ندري لماذا وقفت تلك الحركة ؟ أهو لأن الخليفة قضى عليها قضاء بحيث لا تقوم ثانية ؟ أم أنه حصل خلاف كبير بين أصحاب الدعوة فأدّى إلى إيقافها ؟ - مهما يكن من أمر فإن حمدان وعبدان اختلفا مع القائمين على الأمر بالسلمية ، وأرسل القائم بالأمر في السلمية إلى العراق رجلاً ليسوي الأمور ، ويثير فيه الفتنة مرة أخرى ، فوصل إليه ، واجتمع بحمدان وعبدان ، لكنه لم يجد السبيل إلى التفاهم معها فقتلها . دبر ذلك القتل - على ما يقال - مع شخص اسمه زكرويه بن مهرويه ، وكانت شخصية هذا الرجل وأولاده غامضة . وقفت الدعوة على كل حال في سواد العراق وانتقلت منه إلى الشام بين الأعراب .

انتقال الحركة إلى الشام :

قامت الدعوة في الشام للقرامطة علي يد صاحب الناقة ، وصاحب الناقة اسمه يحيى وهو على رأي بعض المؤرخين الابن الأكبر لزكرويه . نشر صاحب الناقة دعوته بين الأعراب من بني العَلْيُص ، وكانوا في حالة شديدة من الفقر والبؤس ، فتلقفوا دعوته ، وثاروا على الدولة الطولونية ، وكانت إذ ذاك في حالة ضعف شديد . ادعى صاحب الناقة أنه صاحب

الأمر ، وهو الخليفة ، وتلقب بلقب أمير المؤمنين . لم ير الطولونيون في ذلك خطراً جسيماً ، حتى أنهم لم يهتموا به كل الاهتمام . فصار صاحب الناقة يغير على المدن والقرى ، ويسفك الدماء ، ويسلب الأموال . أدرك المعتضد خطورة الأمر ، فأرسل إليه جيشاً لم يستطع الصمود أمامه ، وأرسل إليه الطولونيون واليهام على سورية واسمه طُغْج ، فهزمه صاحب الناقة ؛ وسار طغج إلى دمشق ، وتحصن بها ، وقد سلمت دمشق من غارات القرامطة . أتت النجدة إلى طُغْج سنة مئتين وتسعين ، فتقدم إلى القرامطة ، وهزمهم شراً هزيمة ، وقتل صاحب الناقة . كان لصاحب الناقة أخ عُرف بلقب صاحب الشامة^(١) ، وتذكر الروايات التاريخية أن اسمه حسين ثم أسمى نفسه أحمد ويقال إنه من أبناء زكرويه أيضاً ، فاستولى على الأمر من بعده .

ودعا صاحب الشامة لنفسه ، وخطب له في حمص بإمارة المؤمنين ، وتفاقم خطره . وكان الخليفة في ذلك الوقت المكتفي ، فأرسل إليه جيشاً عدته عشرة آلاف مقاتل ؛ لكن هذا الجيش لم يصمد أمامه ، بل هزم ، وسار صاحب الشامة إلى دمشق ، فصالحه أهلها على جُعل يؤدونه إليه . ويقال إنه سار بعد ذلك إلى السلية وقصد فيها الدعاة وصاحب الأمر هناك ، وأراد أن يقتله . في هذه الأثناء جهّز المكتفي جيشاً قوياً لمحاربته ، ووضع على رأس الجيش محمد بن سليمان الكاتب فسار إليه محمد هذا وهزمه في موقعة حاسمة ، وألقى القبض عليه وأرسله إلى بغداد ، فقتل فيها .

وبذلك انتهى أمر القرامطة في الشام ، ولم يستمر أمرهم فيها مدة طويلة ، وكان سبب نجاحهم ضعف الطولونيين وفقر الأعراب ، واستعدادهم

(١) أكثر المراجع تذكر لقبه صاحب الشامة وبعضها القليل صاحب الخال - المنقح .

لقبول الدعوة القرمطية . الذي سبب بعد ذلك إخفاق القرامطة أن الطولونيين ألقوا بمقاليد الأمر للخليفة في بغداد ، وكان الخليفة قد انتهى من أمر القرامطة في العراق ، فاستطاع أن يُجهز على حركتهم في سورية ، ولاقى القرامطة في دمشق مقاومة كبيرة ، ولم يستطيعوا أن يتفاهموا مع عبید الله المهدي رأس الحركة الفاطمية الذي كان في السامية . هاتان الحركتان القرمطية والفاطمية سارتا باتجاه مختلف ؛ لو أنها اجتمعتا لتفام الحال في سورية .

القرامطة في الجزيرة العربية :

قضي على الحركة في العراق وسورية ، لكنها استمرت خطيرة جداً في منطقة أخرى ، فقد رأينا أن حمدان القرمطي أرسل أبا سعيد الحسن بن بهرام الجنابي إلى البحرين ، ونشر الجنابي دعوته بين القبائل العربية من بني عبد القيس ، واستقامت له الدعوة في الأحساء ، فاستطاع أن ينشئ دولة مستقلة عاصمتها المؤمنية ، وحكم هذه الدولة هو وأولاده باسم إمام مستور سيظهر يوماً . ولكي يقوّ شأنه في هذه المنطقة ، ولكي يساير البدو فيها ، جعلهم يشاركون في الأمر معه حتى يحين ظهور الإمام المختفي . كَوّن منهم مجلس سيادة يوجهون الأمر معه ، واشترك شيوخ القبائل في مجلس السيادة ينتظرون الإمام المستور . ظهر خطر القرامطة في الأحساء ومنطقتها ظهوراً واضحاً ، فأغاروا على الحج ، سلبوا وقتلوا وسفكوا الدماء ، وتوزعوا في مناطق مختلفة من البحرين ، حتى أنهم في عام ٢١٧ هـ بلغوا مكة ، وأخذوا الحجر الأسود منها ، واستبقوه عندهم مدة ثلاثين عاماً ، حتى توسّط الخليفة الفاطمي معهم بشأن إعادته فأعادوه . حاولوا أن يسيروا

إلى الين ، وحاولوا أن يصلوا إلى مناطق أخرى في العالم الإسلامي ، فامتدت أيديهم إلى الديلم ، ولكنهم لم يؤسسوا فيه حكماً معيناً^(١) .

هذه خلاصة عن القرامطة وعن مبدئهم وأعمالهم ، ويقول ماسينيون : « إن القرامطة هم الذين أسسوا نقابات العمال في ديار الإسلام ، وإنهم أول من فعل ذلك ، فجمعوا بين العمال ووحدوهم » ولا ريب أن القرامطة كَوَّنوا هذا النوع من الاتحاد للعمال ليستفيدوا من حركتهم ، وليجعلوهم تحت لوائهم . أما أنهم كانوا أول من وضع نظام الاتحاد العمالي في ديار الإسلام ، فإن هذا أمر غير مقبول . الدكتور عبد العزيز الدوري ينفي ذلك ويقول : « إن اتحادات العمال بدأت منذ القرن الثاني للهجرة : فالعمال جمعوا أمورهم ، وتناصروا ، وتساعدوا ليخرجوا من الضائقة الاقتصادية التي كانت تحيط بهم » . والدليل على وجود حركة النقابات من قبل - كما يقول الدوري - هو وجود الشطّار والعيّارين ، فهؤلاء وجدوا في العراق قبل عصر القرامطة ، لقد خرجوا من العمال ، وكانت لهم علاقة بنقاباتهم . وأياً كان الأمر ، فحركة القرامطة - كما رأينا - استفادت من عناصر مختلفة . من عنصر الباطنيين وإمامهم المستور ، ومن الفلاحين النبطيين الذين لم يتشربوا روح الإسلام كل التشرب ، ومن الأعراب الفقراء البائسين الذين لمعوا في أساليب السلب والنهب ، ومن العمال الفقراء ؛ ثم كَوَّن القرامطة من كل ذلك جماعة نشرت

(١) بعدما استولى الفاطميون على مصر سنة ٢٥٨ هـ ، حاول القرامطة في الأحساء بالاتفاق مع بعض الأعراب الاستيلاء على مصر ، لكن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله استطاع أن يفلت من هذه الكارثة بالخداع والسياسة . استولى القرامطة على فلسطين ودمشق ، وضربوا بها النقود في السنوات ٣٦١ و ٣٦٢ و ٣٦٤ و ٣٦٧ هـ . أخيراً استطاع الفاطميون طردهم من الشام - المنقح -

مذهبهم ، فكان أوله دينياً وآخره شيوعياً . وفي خضمّ الاضطراب الذي
حاق بالدولة الإسلامية في ذلك العصر استطاعوا أن ينفذوا إلى مناطق ،
وأن يعملوا السلب والنهب ، وأن يسفكوا الدماء ؛ وكان من ذلك أن بثّوا
الإرهاب والخوف في قلوب الناس والحكّام ، فصار صيتهم المرعب في كل
مكان ، وساعدهم هذا على التوسع وممارسة العدوان ، وتقهقرت أمامهم
الجيوش ، وعظّم أمرهم .



عودة سلطة الخلافة إلى حين

(٢٥٦ - ٢٩٥ هـ)

رأينا في الأبحاث السابقة تقلص سلطة الخلافة العباسية ، وقد سردنا الحوادث التي نتجت عن ذلك ، ثم علمنا كيف تمكن العباسيون من القضاء على النزعات المختلفة التي انبثقت من الأوضاع الشاذة ، ولم نتعرض للبحث عن الخلفاء الذين أعادوا سلطة الخلافة . نريد الآن أن ندرس وضع هؤلاء الخلفاء ، ونستعرض عهدهم بالإجمال ، لنرى كيف استطاعوا أن يستعيدوا السلطة ، وماذا نتج عن ذلك .

إعادة السلطة إلى الخليفة :

من سنة ٢٥٦ إلى سنة ٢٩٥ هـ تولى ثلاثة خلفاء وهم : المعتمد والمعتضد والمكتفي . أما الخليفة الأول فهو خليفة اسمي لا شأن له كبيراً ، إنما كان دمية في يد أخيه الموفق يوجهه حيث يشاء ، فالأمر يرجع إذاً إلى خليفتي وقائم بأمور الخلافة ؛ وهم الذين أعادوا السلطة إلى الخلافة ، أعادوا تلك السلطة لكفاءة خاصة وقوة وحيلة . أما الموفق فقد كان أقواهم ، وقد كان أجراًهم وأشدّهم حيلة ، وأقدرهم ، ولولا الموفق لتزعزعت سلطة الخلافة أكثر فأكثر ؛ إلا أنه وقف إلى جانب أخيه : فحلّت المشاكل أمامه واحدة بعد واحدة . أول شيء فعله هو أنه أعاد الأمر إلى نصابه في بغداد ؛ ثم قضى على حركة الزنج - كما رأينا - عام ٢٧٠ للهجرة بعد جهد كبير وتنظيمات هائلة . وكان في الوقت نفسه يقف أمام

الصفارين والطولونيين يحاربهم تارة ، ويتحاييل عليهم تارة أخرى ، ويشير عليهم القلاقل تارة ثالثة ، حتى استطاع أن يوقفهم عند حدّ معين ، فأتى الخلفاء من بعده وأوقفوا حركتهم .

أما المعتضد الذي تولى الخلافة عام ٢٧٩ هـ ، فقد كان حازماً أيضاً ، وهو ابن الموفق ، وأخذ عن والده سياسته ، وحنكته ، وتعلم على يديه فنون الحرب ، فاستطاع أن يقضي على الثورات الداخلية كالخوارج ، وضرب الأعراب بالأكراد في ثوراتهم ، وحارب القرامطة ؛ ولئن لم يستطع أن يتغلب عليهم تغلباً نهائياً ، فقد أوقفهم عند حدّ ، وهو الذي أخضع الأمراء المستقلين ، وقضى على السلطة الطولونية . أما المكتفي فقد أتمّ عمل من جاء قبله ، فهو قد قضى على القرامطة في الشام والعراق ، وحارب الروم حينما أرادوا أن يستغلوا الفوضى الكائنة في الخلافة العباسية وأن ينقضوا عليها ، وظل يحاربهم حتى توفي . خلاصة القول : إن أيامه شهدت إعادة سلطة الخلافة بشكلها النهائي .

وسائل الخلفاء الثلاثة في استعادة السلطة :

هؤلاء الخلفاء الثلاثة قاموا بما قاموا به من إعادة سلطة الخلافة دون أن يكون للقواد الأتراك دور كبير في ذلك ، وضعوا أولئك القواد في كنفهم ، فتقلص سلطانهم ، وعادت هيبة الخلافة . إن هؤلاء الخلفاء لم يستطيعوا أن يقضوا على أسباب الفوضى الأساسية ، وعلى أسباب النزعات الاستقلالية وعلى الحركات الثورية . قد رأينا أن السبب الأصيل للمشاكل الداخلية هو تلك الحالة الاجتماعية والاقتصادية التي كان العدل لا يسود فيها . طبقات الشعب - كما رأينا - كانت تتن من الضرائب ، وتتن من اضطهاد الحكام . هذا هو السبب الرئيسي الأصيل الذي لم يعمل أولئك الخلفاء على تفاديته ،

بل سيروا سياستهم على أساس آخر . وهو أن يقضوا على الحركات
الاستقلالية والحركات الثورية بالقوة والحيلة ، وقضوا عليها ، إلا أنهم لم
ينظروا إلى أعماق الأمور ، وحلوا المشاكل جذرياً ، فهم لم يحسنوا حال
الفلاحين ويرفعوا الظلم عن عامة الناس والعمال .

هاهم أولاء يعالجون مظاهر الفوضى والتمرد الصادرة من الأتراك . لم
يعالجوها بأن يحلوا الأتراك ويقصوهم عن مراكز الحكم ، بل نظروا في
السبب المباشر الذي كان يجعل هؤلاء الأتراك يثورون . كان السبب هو
ضعف بيت المال : فالأتراك كانوا يتخذون عجز بيت المال حجة لهم
ليثوروا ، ويطلبوا الرواتب والنفقات . ظنّ الخلفاء أنهم إذا جمعوا المال من
خزائنها وكدسوه ، فهم يستطيعون في كل حين أن يؤدوا للجند مطالبهم بل
أكثر من مطالبهم إذا اقتضى الأمر : ظنّوا أنّ عليهم أن يجمعوا المال في
خزائنها حتى يعطوا الرواتب دون تأخر . الواقع أن جمع المال كان حاجة
من الحاجات التي كان لا بد من تحقيقها في عصرهم ، فالحرب كانت تقوم من
حين لآخر ، وكانت تتطلب الكثير من الأموال . مع ذلك كانت إجابة
مطالب الجند سبباً دعاهم إلى إصلاح الحالة المالية والحالة الاقتصادية .

كيف تمّ الإصلاح المالي والاقتصادي ؟ :

اشترك في هذا خليفتان هما المعتضد والمكتفي ، وعمل المعتضد أكثر من
المكتفي في هذا الأمر : فهو قد حسن حالة الريّ ، وفتح العدد الكبير من
الأقنية ، وحسن حال الزراعة بأن قدّم لهم البذور الكثيرة سلفاً ، ثم أجل
دفع الضريبة إلى شهر حزيران (يونيو) ، أي بعد جمع المحصول من
الإنتاج ؛ وبذلك ساعد المزارعين مساعدة كبيرة ، فتحسنت أحوالهم ،
وصاروا يرسلون الضرائب بانتظام أكثر مما كانوا يفعلون . توفّي المعتضد ،

وفي بيت ماله الخاص لنفسه ما يقرب من عشرة ملايين دينار ، سوى ما كان في بيت مال الخلافة العام . أتى المكتفي فاتّبع سيرته في جمع الأموال وكان مقتراً ، فجمع منها الشيء الكثير ؛ وحين توفي ترك في بيت ماله الخاص خمسة عشر مليون دينار .

نتائج الإصلاح المالي :

هذا الجمع والتكديس للمال أدّى إلى شرّ مما كان يظن الخلفاء أنه سيؤدي إليه . أدّى إلى تقوية سلطان أصحاب الدواوين والوزراء والكتاب ، الذين كانوا يجمعون المال ؛ فهم الذين يتولّون ديوان الخراج وديوان الإنفاق ، وغيرهما من الدواوين . هؤلاء الكتاب يصلون إلى مرتبة الوزارة والوزير هو الذي في يده الأموال والدواوين يشرف عليها جميعاً ، كان الوزير نفسه من طبقة الكتاب وهو في معظم الحالات كاتب صغير ، أخذ في الترقى حتى صار صاحب ديوان ثم أصبح وزيراً ، واتخذ لنفسه بطانة من الكتاب أيضاً ، فأخذ يسيّر الأمور عن طريقهم ، ولا يأمن إلا لأصحابه ؛ تركه الخليفة يفعل مايشاء لأنه كان يبغى المال . صار يتمّ تحصيل الخراج والضرائب عن طريق الضمان ، لأن الخليفة يريد أن يحصل على مقدار معين من المال يضمه إلى ما عنده ، ولا يريد أن يتعب نفسه في وضع ميزانية للوارد لا يعرف أيأتي أم لا ؟ فهو إذاً يسلم الضرائب إلى وزيره وإلى كتابه وإلى عمّاله في الأقطار . العمال في الأقطار هم تحت يد الوزير ، يطلب الخليفة إليهم أن يؤدوا مقداراً معيناً من المال ، يضمنون به الضرائب التي يجمعونها ، ولا يهمه بعد ذلك كيف يجمعون تلك الضرائب . هذا الوضع أعطى الوزير وأصحابه وعمال الخراج قوة وشأناً ، فهم ما كانوا يجمعون مال الضمان فقط ويؤدونه للخليفة ، إنّا كانوا يجمعون علاوات عليه يأخذونها لأنفسهم .

وقد رأينا في أبحاثنا الماضية أن هؤلاء الكتّاب كانوا يضطهدون حيناً ،
وتصادر أموالهم بعد أن يعزلوا . انتهى بهم الأمر إلى أن وجدوا طريقة
للتخلص من ضنك المصادرة ، تلك الطريقة هي الوقف ؛ فهم يجمعون
الأموال ثم يوقفونها على أنفسهم وعلى ذرائعهم ، ويديرونها بأنفسهم في حال
حياتهم ، ويديرها أبنائهم بعد وفاتهم ، وبذلك يضمنون بقاء المال في
أيديهم . فالخليفة إذا صادر ، فإنما يصادر أموالهم الشخصية دون أموال
الوقف . يلاحظ كذلك أن سلطان الكتّاب قد زاد بزيادة المال بين أيديهم
وبتقديم هذا المال للخليفة من عندهم .

وهكذا نرى أن طبقة الكتّاب وأصحاب الدواوين قد ظهرت مرة
أخرى إلى الوجود^(١) ؛ وكان الخليفة مضطراً أن يلجأ إلى هذه الطبقة لإدارة
أمواله وأحواله الداخلية ، بل هو مفتقر للأموال التي يقدمونها إليه ، لأنه
مشغول بالحرب ، والثورات الشعبية ؛ والوزراء هم المتصرفون في أحوال
الدولة داخلياً ، بتعيين العمال والولاة والقضاة وما يلي ذلك من جباية
الأموال ومراقبة تلك الجباية .

وضع الخليفة وتأرجح نفوذه بين طبقتي الموظفين
والعسكريين :

وفي عهد الخلفاء الثلاثة نرى أنه لا يزال يوجد في عاصمة الدولة
العباسية طائفتان خطيرتان : وهما الجيش الذي لم يقض على نفوذه ،
وطبقة الوزراء والكتّاب الذين مكنوا سلطانهم مرة أخرى . نعم إن الخليفة
يتحكم بالجيش وفي وزرائه وكتّابه ويسيرهم كما يشاء ، إذا كان قديراً

(١) يحسن أن ينتبه الباحث إلى أن هذا الدور يمثل تفوق نفوذ الطبقة البوروقراطية التي بيدها النفوذ
والمال على الطبقة العسكرية المفتقرة إلى المال - المنقح .

وقويًا ، لكن الأمر يختلف اختلافا كبيرا إذا أتى خليفة ضعيف ، فيظهر خطر هاتين الطائفتين : يظهر الوزراء والكتاب يستأثرون بالمال الذي بين أيديهم ويعتزون بسلطانهم على أمراء الأقطار وعمالها ، يقف تجاههم قواد الجيش فهم الذين بين أيديهم الجند ، والجند هم أصحاب القوة والسلاح ؛ والخليفة لا يستطيع أن يفعل شيئا أمامهم ، ولا يستطيع أن يقصر في تأدية الأموال إليهم . كانت الأموال في أيدي الوزراء ؛ فإذا حصل تنافس بين الفئتين اختل نظام الوزارة واختل نظام الجيش ، وتضعفت الدولة .

أحيانا يحدث اختلاف بين الوزراء أنفسهم ، فينقسمون إلى قسمين - كما سرى - كل قسم منهم ينظر إلى الثاني بعين حمية ؛ والجند لم يكونوا على اتفاق تام فيما بينهم ، ويمكن أن يثور الخلاف بينهم في كل لحظة . إذا ثار النزاع بين القواد والوزراء وكان الخليفة ضعيفا ، انهارت السلطة السياسية وعادت الفوضى إلى ما كانت عليه . هذا ما حدث بالفعل . في النصف الأول من القرن الرابع كان الخليفة المكتفي آخر الخلفاء الأقوياء في ذلك العهد ، فكّر فين يوليه الخلافة من بعده ، لكنه لم يكتب عهداً بذلك ، بل توفي دون أن يكون هناك ولي للعهد . من يرجع إليه الأمر في تولية الخليفة حينئذ ؟ - أيرجع للوزير والقواد ؟ الوزير الذي تغلب وسيطر في آخر عهد المكتفي كان العباس بن حسن الجرجرائي ، اتجهت إليه الأنظار ليجد ولياً للعهد ، وكان هناك فئتان من الراغبين ، فئة ترى أنه يجب أن يوكل الأمر إلى ابن المكتفي وقد لُقّب بالمقتدر ، وهو غلام صغير يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاما ، وفئة أخرى ترى أن يوكل الأمر إلى عبد الله بن المعتز الشاعر المشهور ؛ أما الجرجرائي فقد كان في ذهنه ألا يولي خليفة قويا ، لأن الخليفة القوي يقضي على سلطانه ، فتوجّه إذاً إلى المقتدر ذلك الغلام ، فجمع القواد والوزراء والكتاب لمبايعته ، فاضطروا إلى أن

يقبلوا بذلك . في عهد هذا الخليفة الضعيف الصغير كان لابد من أن يحدث الحدث الذي توقعناه ، وهو أن تقع الواقعة بين الوزراء والكتاب من جهة وبين رجال الجيش من جهة أخرى ، وتبرز في هذا الخضم سلطة جديدة تمتد إلى الخلافة ، وهي سلطة الحريم وسلطة النساء ، أي أم الخليفة ومن يتبعها من نساء في بيت الخلافة ، فالخليفة موجود في كنفهن ، وقد ربي بينهن ، وهن القيّات عليه ، فلا بد من أن يطيع أمرهن .

تتقمّر سلطنة الخلافة مرة أخرى

(٢٩٥ - ٣٣٥ هـ)

الاضطراب بسبب المبايعة للمقتدر :

ببيع المقتدر بالخلافة بتأثير من الوزير العباس بن الحسن الجرجرائي ، وكانت هناك طائفة من الكتاب تقول بمبايعة عبد الله بن المعتز ، لأنه قوي وقدير ، ولأنه ليس صغير السن كالمقتدر . هذه الطائفة من آل الجراح^(١) ، ولما بيع المقتدر بالخلافة ، جمعت هذه الطائفة أمرها وخرجت من المبايعة ، والتفت أصحابها حول عبد الله بن المعتز وبايعوه ، وقاموا بثورة قتلوا بها الوزير الجرجرائي ، وكاد الأمر ينتهي بأن يتنازل المقتدر عن الخلافة لعبد الله بن المعتز ، غير أن حادثاً وقع وهو أن مؤنسا الخادم (وكان صاحب مكانة ارتقى من دور الخادم إلى دور القائد) كان قد عاد من مكة بعد أن أرسل إليها ، فترأس حركة المعارضة مع حرس

(١) هو محمد بن داود بن الجراح انضم إلى ابن المعتز سنة ٢٩٦ هـ ؛ لكن علي بن عيسى بن داود الجراح من

هذه الأسرة ووزر للمقتدر بين (٣٠١ - ٣٠٤ هـ) ثم (٣١٤ - ٣١٦ هـ) - المنقح .

الخليفة ، فأوقف المتآمرين وقضى على حركتهم ، وقتل ابن المعتز وأعيد
المقتدر . امتدت فقط خلافة عبد الله بن المعتز يوماً واحداً .

تثبيت بيعة المقتدر ونفوذ الحريم والوزراء :

وهكذا استقر الأمر للمقتدر ، وهو غلام في الثالثة عشرة من عمره ، لا
يعرف من أمور الدولة شيئاً . جرى على التبذير والانهك في الملذات
والشرب والعزوف عن شؤون الدولة ، مع أنه كان حين يصحو من شراب
يصلي كثيراً ويتعبّد . ومن المعقول أن خليفة كهذا لا يستطيع أن يتسلم
ناصية الأمر ، ولا بدّ من أن يكون إلى جانبه جماعة يسيرون الأمور ،
وينوبون عنه لينطلق هو إلى ملذاته . كانت الأيدي كثيرة لتوجيهه ،
وكانت أمه واسمها شَغَب تحيط به ، وتوجّهه على طريقتهما ، ويحيط به
الحريم في دار الخلافة ، ويشيرون عليه ، وهو صغير ناشئ . صار لأول مرة
في تاريخ الخلافة العباسية تأثير للحريم في توجيه سياسة الدولة ، وإلى
جانب الحريم الوزراء ، والوزراء لا صلة لهم إلا بالخليفة ، لكن الخليفة الآن
غير قادر ، فهم يستفيدون من ذلك ، ويركّزون سلطانهم ، ويوجّهونه
بشكل يوافق مصالحهم الشخصية . الخليفة بطبيعة الحال يودّ أن يرى
أشخاصاً حوله يقومون بالأمر . الواقع أن للحريم تأثيراً في انتخاب
الوزراء ، وللوزراء أيضاً أثر في تأثر الخليفة بالحريم . هذا أمر معقد
متشابك ينتهي أخيراً بأن يضطرب الحال ، ولا يعرف من هو الموجّه
للخليفة ، ويبقى الخليفة في مهبة الريح ، يطلق السلطان حيناً لحريمه ،
وحيناً آخر لوزرائه .

اضطراب الحالة المالية :

الذي يهّم الخليفة من الوزراء أن يقدموا له المال ، وأن يشبغوا

رغباته ، في الإنفاق والتبذير . وهم يعرفون منه هذه الحال ، فيتنافسون بينهم في السبق إلى تلبية رغباته ، فهم يقدمون له المال الذي يأخذونه من الشعب ، ويستفيدون من ماله لأنفسهم ، فلا يعطون الخليفة إلا قسماً من المال الذي يجمعون ، ولما كانت نفقات الخليفة كبيرة ، والمال الذي وجده في بيت مال الخاصة (وهو خمسة عشر مليون دينار) لا ينبع بل يتضب ، وعدد الجيش مع الحرس كبير ، فإن الحاجة إلى المال تزداد مع الزمن ، وإذا تأخر عن دفع المال يعود الجيش إلى سيرته الأولى في عهد تقهقر الخلافة ، يطالب برواتبه فيضطرب الحال .

وضع الجيش :

لم يكن الجيش مؤلفاً من الأتراك وحدهم بل أصبح خليطاً غير موحد ، نَظَّم على فئات ، ولم يكن التفاهم سائداً بين تلك الفئات : هناك الفرسان ، وهناك المشاة ، وهناك الحرس وما أشبه ذلك .

التنافس بين الجيش والوزراء :

وتظهر هنا شخصية مؤنس الخادم^(١) في الجيش فهو الذي مكن مركز الخليفة ، وهو ينتظر من الخليفة أن يوافقه على مطالبه وأن يعترف له بفضلته ؛ لكن الخليفة مأخوذ بمن حوله من الوزراء ، وبين الوزراء من لا يرغب بمؤنس ، بل يحسده على مكانته ، ويوغر صدر الخليفة عليه معتقداً أن الخليفة أقوى منه . الواقع أن الخليفة المقتدر ورث عن سبقوه قوة الخلافة وسلطانها ، فلم يكن باستطاعة مؤنس أن يكون صاحب الأمر إلا إذا تخلى له الخليفة عن ذلك . الخليفة مهمّ بوزرائه ومهمّ بنسائه ومهمّ

(١) هناك مؤنس الخادم ومؤنس الخازن . ولي المقتدر في أول عهده مؤنساً الخازن أمر الشرطة (ابن الأثير

بالمال . الوزراء متحاسدون متباغضون ، يسعى كل منهم إلى أن يبقى في الوزارة ، وإلى أن يوقع غيره في مأزق ، وإذا خرج من الوزارة سعى إلى العودة إليها بمؤامرات على الوزير القائم . على هذا النحو كانت الأحوال تضطرب ويكثر عدد الوزراء ، فالخليفة لا يستقرّ على واحد منهم ، ويجد أن التغيير أصلح لحاله وأكثر حلاً لمشاكله . يقوم في تلك الفترة أربع عشرة وزارة يتولاها تسعة من الوزراء المختلفين متتابعين الواحد بعد الآخر ، يخرب الواحد منهم ما صنعه الآخر .

ابن الفرات :

ظهرت شخصيتان من الوزراء التسعة ، كانتا صاحبتى الأثر في تطور تلك الفترة ، وهما شخصيتا ابن الفرات و علي بن عيسى بن الجراح ، ولكلا الشخصيتين صفات ، فابن الفرات رجل قويّ متسلط قاس في أكثر أموره ، محبّ للسلطان ، ولا يهتمّ في سبيل احتكار السلطة شيء ؛ سياسته لها عدة أغراض : سياسة البلوغ ، وسياسة تسوية الأمور ، وسياسة التسلط بصفة خاصة ، لا يهتمّ في سبيل ذلك اختلال الأحوال المالية ولا اختلال النظام ، لايهمه أمر الدولة إلا بمقدار ما يرقى به النفوذ والسلطان . ينفق الأموال الكثيرة ، ويقدم للخليفة مطلوبه منها ، ويجمع حوله عصابة من الكتّاب يطلق لهم الأمر ، فيجمعون المال بالضغط على الناس ويتصرفون بالأمور كما يشتهون .

علي بن عيسى بن الجراح وإصلاحه المالي :

أما الشخص الآخر ، وهو علي بن عيسى بن الجراح ، يأخذ صفته من العصر الذي هو فيه ، ويتأثر من جوّ المؤامرات ، لكنه ينبغي الإصلاح في الدولة إلى جانب سعيه لتقوية مركزه الشخصي . لا يهتم كثيراً بالناس ، أو

بالكتاب ، بل يريد أن ينقذ الوضع المالي ، وهو يستند على قدرته الشخصية في تسوية الأمور ، وفي إصلاح حال الدولة ، له صاحب يعتمد عليه وهو مؤنس الخادم ، ولا ندري وجه الاتفاق بين الاثنين ، ولعل مؤنسا على غير ما وصفه المؤرخون ، فلعله كان يريد إصلاح الحال والنهوض بالدولة إلى جانب رغبة له لا تظهر واضحة في الاستيلاء على الأمر وتوطيد شأن الخلافة .

ينبغي أن نقف قليلاً عند ابن الجراح ، فنصِفَ الإصلاح المالي الذي قام به . تولّى ابن الجراح الوزارة مرتين وتولاها مرة ثالثة وزير آخر ، كان رئيساً له ظاهرياً . في وزارته الأولى : نظر في الأحوال المالية ، فوجد الشعب يئن من ظلم الكتاب ، فالرشوة كانت منتشرة بينهم ، ولا يقوم كاتب بعمل إلا إذا أخذ المال عليه . كان الكتاب غير قديرين ، بل هم جماعة انتهازيون ، يريدون الوصول إلى المال بكل سبيل . كانت الضرائب كثيرة ، تعوق التقدم الاقتصادي وترهق إصلاح . تصدى ابن الجراح لكل ذلك ، فمنع الرشوة وكان لها ديوان خاص اسمه ديوان المرافق ، ومنع الفساد وعيّن الكتاب القديرين . نعم إنه اتخذ لنفسه كتاباً من أصحابه وأقاربه ، لكنه اختارهم من بين الأكفاء ، وأعلن منشوراً بإعطاء الحقوق لأصحابها ، وبرفع الظلمات عن الناس ، ونظر في شكوى المتظلمين من الضرائب ومن سوء تحصيل الأموال . ألغى ابن الجراح بعض الضرائب التي كانت تثقل كاهل الشعب والفلاحين خاصة ، وقلّل من النفقات ، فضيق بعض التضيق على الأمراء وعلى الجنود ، وبذلك استطاع أن يجعل دخل الدولة يكفيها . نظر الناس إلى ذلك الإصلاح ، فاطمأنوا إليه وأمنوا على أنفسهم من ظلم الدولة ، فصاروا يعمرّون المساكن والأراضي والمتاجر ، فكثرّت الحركة وازدهرت الحياة الاقتصادية .

اعتمد ابن الجراح على نظام مالي أوجده بنفسه ، وكان أول من أوجده في الإسلام : الدولة كانت في حاجة ملحة للمال ، والخليفة لا يقبل أن يتعرض أحد لمسّ بيت ماله الخاصّ ، وقد أخذ حرّيته ، فأنفق في أمد يسير ما في خزائنه . هذه الطريقة لا تضمن استقرار الأمور ؛ لأن الجيش لا يؤمن جانبه إلا إذا دفعت إليه الرواتب في ميعادها ، بل قبل ميعادها أحياناً ، فمن أين يأتي الوزير بالمال ؟ كانت طريقة الحصول على المال في مثل ذلك الظرف مصادرة أموال الكتاب والوزراء ، لكن هذه الطريقة تتنافى مع الأمان والاطمئنان ، وتدفع الكتاب والوزراء إلى ظلم الشعب ، وأخذ أمواله بدون حق لتقدّم حين الطلب . كان ابن الجراح لا يريد أن يلجأ إلى هذه الطريقة ، لأنه منع الرشوة وحرّم الفساد . لذا وجد أسلوباً لدفع الرواتب في حينها ، فتعاقد مع اثنين من أثرياء اليهود على أن يسلفا الدولة الأموال التي ترغب فيها ، ومالهما مضمون مقابل دخل الدولة وأرباحها وضرائبها ، ولهما أرباح يحصلان عليها مقابل هذه السلفة . هذا النظام الجديد يشبه نظام المصارف ، وقد أحدث هذا النظام اطمئناناً إلى أن الدولة تدفع الرواتب في المواعيد ، بل صار كبار التجار يتقدمون إلى الدولة ، يسلفونها الأموال بعد أن اطمأنوا إلى قوتها المالية . إلا أن ابن الجراح لم يستمر في تلك الوزارة ، بسبب تدخل الحريم ، فسقطت وزارته ، وعاد ابن الفرات فألغى القواعد التي وضعها ابن الجراح .

عاد علي بن عيسى بن الجراح إلى الوزارة مرة ثانية ، فوجد الأمور مضطربة كل الاضطراب ، فبحث عن أسباب الاضطراب (غير الرشوة والظلم مما حاول إصلاحه سابقاً) ، فوجد أن الدولة تنفق من مال لا تستطيع معرفة مقدار ما يردّها منه ، ينفق الوزير المال دون أن يعرف مدخوله ؛ فالأمر إذاً أن نعرف حاجة الدولة إلى الأموال ، وأن نعرف

مقدار الدخل ، ثم نوازن بين الاثنين ، فمنع كل إنفاق يخالف ما وضع من تقدير سابق ، وسعى إلى أن يتوازن الدخل والنفقة . ونظر ابن الجراح فيما أنفق عام ٣٠٤ هـ فوضع ما نسميه اليوم بالميزانية ، وضع الميزانية (أو كما كان يسمى بالجريدة بشكل متزن) ، وعمد إلى الإنفاق بحسب الأرقام المقدرة ، وجعل الحسابات ترده كل أسبوع فتسجل وتقيّد ، ويعرف كل أسبوع ما هو دخل الدولة وما هو إنفاقها ، ويقابل ذلك بما هو مخزون في بيت المال ، فتتزن الأمور وتسير على شكل منتظم .

إلى جانب هذا الإصلاح الكبير الذي هو شيء جديد في تاريخ الدولة العربية الإسلامية حاول ابن الجراح أن يقتصد من النفقات ، فخفف الرواتب ، وضيق الجيش ، فتحسنت الأمور ، واعتدلت ميزانية الدولة ؛ لكن المقتدر المبذر ما كان يعرف تلك الحدود ، وكان يمشي مع رغباته الشخصية ، ووجد نفسه مضطراً إلى أن يزيد ديناراً لكل جندي ، فأخل بالجريدة ، فاضطر ابن الجراح أن يترك الوزارة ، تركها مع إصلاحه وجريدته النازمة لأموال المال .

تدخل الجيش :

أما ابن الفرات ، فعاد يسير على طريقته يريد التسلط ، وكان الذي يقف أمامه يريد الحد من هذا التسلط هو مؤنس الخادم ، الذي كان له السلطان بقوة جنده ؛ فوسوس ابن الفرات للمقتدر ، وحسن له إبعاده عن العاصمة ، وإرساله إلى الرقة لمحاربة الروم الذين كانوا يغيرون على بلاد الإسلام . أرسل الخليفة مؤنساً ، لكنه لم يتأخر كثيراً ، بل عاد وتدخل مع الجيش في إسقاط الوزير . تحرك الجيش بعد أن أسقط الوزير ، فطلب إعدامه فشنق ، وانتهت وزارته ووزارة أصحابه . بعد أن قتل ابن الفرات

أصبح الرجل القوي النافذ في الدولة هو مؤنس الخادم ، ولم يَر - على ما يقول المؤرخون - قبل مؤنس الخادم من وصل إلى ما وصل إليه من النفوذ ؛ ومن وراء مؤنس الجيش . قلنا سابقاً إن الجيش مختلف التركيب ، وكانت كل فئة مستعدة لتشغب على الأخرى ؛ لذا حاول الخليفة أن يتخلص من مؤنس ، لأنه لا يثق به مع أنه أفاده قبل ذلك .

خلع المقتدر وتولية القاهر :

أخذ الخليفة يدسّ في شأن مؤنس ويحاول إبعاده . وعلم مؤنس ما حصل من مؤامرات حوله ، وظنّ أن الخليفة يريد الفتك به ، فوقع الخلاف في نهاية الأمر بين الجيش والخليفة ، وذلك عام ٣١٧ هـ ، وتآمر الجيش على الخليفة وهجم على داره ، فهرب المقتدر . . . ولم يجد له ملجأ إلا عند مؤنس نفسه فاحتفى به . عيّن المتآمرون القاهر خليفة وهو أخو المقتدر إلا أنه لم يمض عليه أيام حتى عجز عن دفع الأموال للجيش ، فثار الجيش عليه وطلب إعادة المقتدر مرة أخرى . عاد المقتدر وتجددت له البيعة ثانية وعفا عن أخيه القاهر .

عودة المقتدر إلى الخلافة :

كان على المقتدر أن يعترف بفضل مؤنس وحمايته له ، لكنه لم يكن مطمئناً إلى إخلاصه ، فقد اعتاد أن يعيش في جوّ من الدسائس والمؤامرات السياسية . بحث عن حليف آخر غير مؤنس ، فوجد رجلاً اسمه ياقوت وابنه محمد بن ياقوت . أحسّ مؤنس بهدف المقتدر ، فطالب بتنحية ياقوت وابنه محمد عن الوزارة . ثار الشغب على الوزيرين ، غير أن محمد بن ياقوت صمد أمام هذا الشغب ، وقضى عليه . إلا أن مؤنسا عاد فألحّ على

الخليفة بإخراجه ، وخرج بجيشه إلى الشامية^(١) مغضباً ، خشي الخليفة العاقبة ، وصرح محمد بن ياقوت ، وأتى بوزير آخر هو الحسين بن القاسم ، فتألف هذا بعض رجال الجيش كفرقة المشاة ، وجمعهم حوله ، واستطاع أن يبعد مؤنسا .

خروج مؤنس إلى الموصل ونهاية المقتدر :

فر مؤنس ملتجئاً إلى الحمدانيين بالموصل ، فلم يلجئه الحمدانيون فقاتلهم وتغلب عليهم . أكسبته هذه الغلبة سلطاناً وشأناً فعاد إلى بغداد . وهنا وجد الخليفة نفسه مضطراً للخروج لمحاربة مؤنس ، برز الخليفة بلباسه وعُدته الحربية يصول في الميدان صولة أو صولتين ثم قتل^(٢) . دخل مؤنس بغداد مظفراً .

يمكن تلخيص ما انتهى إليه الوضع على الصورة الآتية :

أولاً - إن مؤنسا^(٣) انتصر على الخليفة وفي يده السلطان ، لكنه تردد ، وكأنه لم يكن ذا شكية قوية ، وكأنه لم يكن يريد أن يعرض نفسه لإدارة الدولة ، وأن يلعب دوراً حاسماً حينذاك .

ثانياً - بمقتل الخليفة المقتدر زال أثر الحريم إلى غير رجعة ، فقد زال الرجل الذي كان يفتقر للحريم عندما كان طفلاً .

ثالثاً - هنالك خليفة عينه مؤنس وهو القاهر . هذا الخليفة يريد أن يعيد سلطان الخلافة ، فيعمل إذاً على تفريق الجماعة التي كانت تقود

(١) حي في بغداد - النتح .

(٢) امتد حكم المقتدر بين (٢١٥ - ٢٢٠ هـ) - النتح .

(٣) اتخذ مؤنس لنفسه لقب أمير الأمراء سنة ٢١٧ هـ - النتح .

الدولة . وهم مؤنس والوزراء وأرباب الجيش ، هذه الخطة أتبعها الخلفاء الذين أتوا بعد المقتدر .

رابعاً - إن الوزراء ما كانوا يريدون أن يزول سلطانهم ، فكانوا يلعبون دورين مختلفين ، مرة مع الخليفة ليحفظوا بحبّه ، ومرة مع قواد الجيش ومؤنس ليقروا بهم . وهم على كل حال أصحاب قوة بما يملكون من إدارة الأموال ؛ إلا أن نجاحهم متوقف على إدارة الأموال ، أي على تأديتهم الرواتب للجيش .

خامساً - الأمر الأهم هو تسوية الحالة المالية وتقديم المال للجيش ، على هذا تقوم حوادث هذا الدور . لو استطاع الوزراء أو الخليفة أن يدبروا الأموال للجيش في العهد السابق وفي هذا العهد لامتنعت كثير من الحوادث التي حصلت ؛ إلا أن تدبير ذلك المال كان عقدة العقد ؛ قصرت أمام حلّ هذه العقدة كل إرادة وكل قوة ، وتضارب الجيش مع الوزراء ، والوزراء مع الخليفة ، والخليفة مع مؤنس ؛ وانتهى الأمر بأن تضعضت الأحوال ، حتى إذا انتهى الأمر إلى ما انتهى إليه ، رأى الخليفة نفسه مضطراً إلى أن يلجأ إلى رجل يسلمه كل الأمر عسى أن يهيئ له مخرجاً مما هو فيه .

خلافة القاهرة (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ)

هذا هو تصوير الوضع ، أما الحوادث التي حدثت حول هذا الوضع ، وأعطته شكله الأخير ، فقد حدثت على الصورة الآتية : كان مؤنس بعد أن قتل المقتدر ، يريد أن يولي ابنه أحمد الخلافة لمقدرة أحمد هذا وكفايته وتقاه ؛ مع أننا لم نعرف شخصية مؤنس من خلال كتب التاريخ كما ينبغي ، يبدو لنا أنه كان ميالاً إلى الإصلاح وتسوية الأمور ؛ إلا أن

أصحابه خائراً من أثر الحريم في الحكم ، فجعلوه يعدل عن أحمد ويكلف
القاهر ، فولّى القاهر الخلافة . كان القاهر سيئ التدبير في السياسة شحيحاً
قاسياً عنيفاً . أول شيء عمله هو أنه قضى على سلطة الحريم وأحضر السيدة
أم المقتدر ، وطالبها بالمال الكثير ، وعلّقها من رجلها وعذّبها أشد العذاب ،
واستخرج منها مئة وثلاثين ألف دينار . دفع مؤنس الخليفة إلى أن يتخذ
ابن مقلّة وزيراً له فولّاه الوزارة . مهمة الوزير في ذلك العصر - كما قلنا -
هي أن يقدم الرواتب للجيش وأن يرضيه . عمل ابن مقلّة على إرضاء
الجيش ما استطاع إليه سبيلاً ، فاتخذ وسيلة المصادرة للوصول إلى المال .

أما الخليفة فقد كانت له سياسته ، وهي أن يتخلّص من نفوذ مؤنس ،
فقرّب إليه أصحاب الخليفة المقتول مثل محمد بن ياقوت وغيره ، وضرب
الجيش بعضه ببعض ؛ وحاول أن يبعد ابن مقلّة فشر هذا بما يدور حوله ،
فدبر مؤامرة لخلع الخليفة القاهر وللبقاء في الوزارة . اكتشف القاهر تلك
المؤامرة فهرب ابن مقلّة ، واستدعى الخليفة مؤنسا متذرعاً بحجة استشارته ،
وأخذ رأيّه ، ولما أتى إليه ، ألقى القبض عليه وقتله ؛ وبهذا أصبح سيّد
الموقف . لم يقف ابن مقلّة ساكناً ، بل صار يحرض الجيش في الخفاء ،
ويحرض الناس على الخليفة ، ويصفه بأنه فتح القصر سجوناً للقواد ، وبأنه
يسكر حتى يثمل . . وبأشياء كثيرة أخرى . ثار الناس على الخليفة ،
فوجدوه سكران فقبضوا عليه ، وسملوا عينيه .

خلافة الرازي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ)

بويح أحمد بن المقتدر خليفة باسم الرازي ، وعيّن ابن مقلّة وزيراً ،
إلا أن ابن مقلّة لم يفلح هذه المرة في سياسته المالية ، ولم يستطع أن يقدم

للجيش ما يجب من رواتب وعطاءات . ظهر رجل قد بلغ منزلة سامية وهو محمد بن رائق ، وكان في البصرة وواسط ، وصاحب الأمر عليها ، وفي يده بعض المال ، فضنّ به على ابن مقلّة ليوقعه ، ويستولي على الوزارة دونه . سقط ابن مقلّة من قلة المال ، فاستوزر الخليفة الراضي من بعده وزراء كثيرين ، الواحد تلو الآخر : عبد الرحمن بن عيسى بن الجراح أخا علي بن عيسى المشهور ، ثم محمد بن القاسم الكرخي ، ثم سليمان بن الحسن بن مخلد^(١) ، لكنهم جميعاً لم يستطيعوا أن يحلّوا الأزمة المالية وأن يقدموا المطلوب من المال .

محمد بن رائق أمير الأمراء :

خاف الخليفة الراضي على نفسه من الجيش ، ولم يجد وزيراً يستطيع أن يسوّي الحالة المالية ، وفكّر كثيراً . . . فوجد أن الاضطراب واقع من تزواج السلطان بين الوزراء وبين الجيش ، ثم رأى نفسه مضطراً إلى أن يقبل ما عرضه عليه محمد بن رائق : أي أن يسوّي كل شيء إذا منحه سلطة واسعة (الجيش وإمرته ، والضرائب وتجميعها ، والإدارة وتسييرها) بذلك فقط يستطيع أن يحلّ المشاكل وأن يضمن تسيير الأمور . لجأ الخليفة إلى هذا الحل اضطراراً ، فسلم ابن رائق جميع السلطات ، ولقبه بأمرير الأمراء ، وتقش اسمه على السكة معه ، وذكر اسمه مع الخليفة في خطبة الجمعة : أي أنه أصبح صاحب السلطان بكامله ، وليس للخليفة من شيء ، إلا أنه هو الذي أعطاه السلطان .

اضطراب الدولة في الفترة ٣٢٤ - ٣٣٤ هـ

اتتهى الخلاف إذاً بين الجيش والوزراء والقواد والخليفة ، حين عجز

(١) كان وزيراً في عهد القنطرة سنة ٣١٨ هـ - المنقح .

الجميع عن تسوية الحال ، فاضطروا إلى أن يلجؤوا جميعاً ، إلى حاكم فرد يقوم بالأمر . هذا الحاكم لم يستطع أن يحلّ المشاكل و الأزمة المالية ، لاسيّاً وقد خلقت أمامه مشاكل أخرى ، أتت هذه المشاكل من طامعين جُدّد ؛ فقد كان الحمّديون في الموصل يتوقون إلى السلطة في دار الخلافة ، وكان الثوار يهاجمون دار الخلافة من حين لآخر ، فعجز ابن رائق ومن تبعه عن صدمهم في عهد الخليفة الراضي .

ما كان يهمّ الخلفاء^(١) من يتسلّم إمارة الأمراء^(٢) ، فلم يبق له من الأمر إلا سلطانه الروحي . عندما تقدم أحمد بن بويه ليدخل بغداد ، وكاتب المستكفي بذلك في السرّ ، فقبل منه ، لينتهي من أولئك الطامعين الذين لا يقدرّون على شيء . دخل جيش الديلم إلى بغداد ، برئاسة البويهيين ، فاستولوا على مركز أمير الأمراء ، ووضعوا الخليفة تحت وصايتهم ؛ واستولوا على كل شيء في العراق ، اللهم إلا السلطة الروحية التي كان يتمتع بها الخليفة بحكم منصبه .

تقدّم الحضارة العربية الإسلامية

شهد القرن الرابع والقرن الخامس نهضة في أرجاء العالم الإسلامي ، ارتفعت إلى الذروة ، وهي نهضة فكرية وأدبية وفنية ، أعطت الحضارة الإسلامية العربية نضجاً ورفعة وأصالة .

(١) الخلفاء في هذه الفترة : الراضي (٢٢٢ - ٢٢٩ هـ) ، المتقي (٢٢٩ - ٢٣٣ هـ) ، المستكفي (٢٣٣ -

٢٣٤ هـ) - المنتقم .

(٢) تسلّم إمارة الأمراء بعد محمد بن رائق : بجكم الرائي ٢٢٦ هـ ، ثم عاد محمد بن رائق للمرة الثانية

٢٢٩ هـ ، ثم استولى عليها حسن بن حمدان ٢٣٠ هـ ، ثم توزون ٢٣١ هـ ، ثم محمد بن يحيى بن شيرازد ٢٣٤ هـ ، وكانوا كلهم ضعافاً حتى آل الأمر إلى البويهيين - المنتقم .

هذه النهضة الحضارية يقابلها من حوادث السياسة ظهور دول تقاسمت ممتلكات الخلافة العباسية وهي : دول بني بويه وبني حَمْدَان والفاطميين . وسنعرض أولاً تشكّل هذه الدول والدور السياسي الذي لعبته ، ثم نستعرض النهضة التي اتسم بها هذا العصر .

نظرة إلى خريطة الدولة العباسية في أوائل القرن الرابع تشير إلى أربع مناطق حريّة بأن تلعب دورها في هذه النهضة وهي : بلاد إيران ، العراق ، الشام ، مصر . وقد لعبت كل منها دورها ، غير أن العراق انضوى تحت لواء إيران ، وانفصلت الشام إلى قسمين . قسم مستقل في الشمال وقسم في الجنوب التحق بمصر ، ولعب كل قسم دوره في نطاقه الخاص .

ينبغي ألا يؤخذ بعنوان هذا الفصل (تقدم الحضارة العربية الإسلامية) فنظن أن السياسة سارت جنباً إلى جنب مع رقي الحضارة . لا ، فالعصر مضطرب في شؤونه السياسية ولعله مضطرب في شؤونه العمرانية ، ولا سيما في العراق . غير أن النهضة العامة للعصر هي نهضة في الحضارة بلغت الأوج ، والحضارة الإسلامية العربية بعد هذا العصر تأخذ في التقهقر شيئاً فشيئاً .

حريّ بنا أن نلفت النظر الآن إلى أن هذه النهضة لم تكن وليدة الحضارة العربية الإسلامية ، تأخذ من منبعها فحسب ، بل نهلت من كل حضارة سابقة ، ثم قامت على سواعد عباقرة ، بذلوا من نفوسهم وعقولهم وأعمالهم ، فوثبوا وثبة خلدها لهم التاريخ .



حكم بني بويه في العراق

(٣٣٤ - ٤٤٧ هـ)

الحركات الاستقلالية في إيران :

تقدم معنا وصف الحركات الاستقلالية التي ثمت في خراسان وفي سجستان ، وفي جرجان والديلم ، وذكرنا أن الموفق - ولم يكن خليفة - استطاع أن يسوي هذه الحركات الانفصالية ، وأن يوقفها عند حد ، لكن الخلفاء الذين أتوا بعد ذلك لم يستطيعوا القضاء على الفكرة الانفصالية التي استقرت في أذهان الشعوب ، يشجعها عجز الخلفاء عن تسيير الأمور في العراق ، بل بلغ هذا الاتجاه حداً وصل به إلى الاستقلال النهائي عن الخلافة .

بلاد الديلم :

نرى بوادر ذلك في بلاد الديلم (طبرستان) ، وبلاد الديلم ، تقع في جنوبي بحر الخزر ، وهي منطقة جبلية يسكنها أقوام يسمون بالديلمية ، لغتهم هي اللغة الفارسية ، وثقافتهم - إن كان لهم ثقافة - هي الثقافة الفارسية ، إلا أن أصلهم - على ما يقول المؤرخون - ليس إيرانياً ، ولعلمهم مزيج من الإيرانيين والآتراك والشعوب الأخرى . هذا المزيج شعب صلب قوي ، شديد المراس ، معتاد على الحرب والقتال ، شجاع غاية الشجاعة . أما دينهم فهو الوثنية حتى في عهد العباسيين ، وكانت دارهم تعتبر دار

حرب ، وكان العباسيون^(١) يرسلون الجيش للجهاد في هذه المنطقة . استطاع الزيديون من آل علي أن يستميلوا الديالة إلى الإسلام ، وعاملوهم معاملة حسنة ، ونشروا فيهم المذهب الزيدي ، فأقبل الديالة على التشيع وتركوا الوثنية .

نشوء الدولة الزيارية :

ظهر من الديالة مرداويج بن زيار ، فأسس سنة ٣١٥ هـ الدولة الزيارية التي حلت محل الدولة الزيدية ، وكان مع مرداويج بعض بني بويه فولاهم بعض المناطق التابعة له . وكان منهم علي بن بويه حصل على إدارة الكرج ، وكان صاحب طموح ، فلم يقتصر على هذه الولاية ، بل مدّ سلطانه إلى أصفهان ، ومدّ أخواه الحسن وأحمد سلطانهما إلى كرمان والريّ والأهواز ، وخاف مرداويج من هؤلاء الإخوة الذين أظهروا له الطاعة ، واختفوا وراء سلطانه حيناً من الزمن ، غير أن الأتراك في جيشه قتلوه سنة ٣٢٣ هـ ، وأعطوا الحكم إلى أخيه .

ظهور بني بويه :

استفاد بنو بويه من هذه الفرصة السانحة ، فمدّوا أيديهم هنا وهناك واستولوا على فارس والجلال وهذان ، وشكّلوا دولة بني بويه .

بنو بويه يدخلون بغداد :

كان قد وصل إلى الخلافة المستكفي ، فكاتبه - كما ذكرنا - أحمد بن

(١) في عهد الرشيد قويت الاتصالات مع طبرستان حتى إن الرشيد عين ولاية متعددة ، ضربوا نقوداً عربية ساسانية ، ووضعوا أسماء عليها باللغة العربية ، وقليل منهم وضعوا أسماء بالفهلوية (وهي الكتابة الفارسية القديمة) - المنقح .

بويه^(١) ففتح له أبواب بغداد سنة ٢٣٤ هـ ، ودخل ابن بويه إلى بغداد ، فلقبه المستكفي (معز الدولة) ومنح أخاه علياً لقب عماد الدولة ، وأخاه الحسن لقب ركن الدولة .

دولة بني بويه :

انتقل الأمر إذاً إلى بني بويه ، وادّعى هؤلاء أنهم من نسل بهرام جور ، أحد الملوك الساسانيين : وأرادوا أن يعيدوا حكم بني ساسان ، مع أن دعواهم بأنهم ساسانيون غير صحيحة ، وأنهم ليسوا من تلك السلالة : ويقول بعض المؤرخين إن أصلهم ليس إيرانياً ، ومهما يكن من أمر ، فهم يتكلمون لغة إيرانية فارسية ، وهم يمثلون دولة الديلم ، وهي دولة ذات ثقافة إيرانية ومجد إيراني .

البويهيون والخلافة :

وهكذا نصب بنو بويه أنفسهم خلفاء للساسانيين ، وهم من مذهب شيعي زيدي ، وكان حرياً بهم أن يأتوا بخليفة من الشيعة الزيدية ، لكنهم رضوا بالخلافة العباسية ، فما هو السبب في ذلك ؟ - موقفهم يظهر في هذا متناقضاً .

إنهم كانوا بعيدي النظر ، ويذكر لنا المؤرخون أن أحمد بن بويه استشار أصحابه في تنصيب خليفة من آل علي ، فأشار عليه أصحابه بأن يتجنب ذلك ، وقالوا : « إنك لو أتيت بواحد منهم لكنت خادماً له ، ولكان هو صاحب الأمر من دونك ، فالديلم شيعة ، وإذا أمرهم بقتلك قتلوك ، وكنت بين يديه كالحاتم ، أما إذا تركت الخليفة العباسي ، فقد

(١) وكان مسيطراً على ولاية فارس والأهواز جنوباً - المنقح .

ضمنت لنفسك رجلاً تسيره كما تشاء ، تخلعه حين تريد ، وتحضر غيره متى شئت ، فالديالة جندك وأصحابك ، لا يدينون له بالطاعة باسم المذهب وباسم البيعة التي له في أعناقكم » . وعلى هذا النحو ابتعد أحمد بن بويه عن تنصيب خليفة من آل علي .

إبقاء الخلافة في العباسيين

هذا ما يذكره المؤرخون ، والحجة التي قدمها أصحاب أحمد صريحة ، واضحة ، لكننا ينبغي علينا أن نزيد عليها شيئاً آخر : وهو أن أهل العراق كانوا قد قبلوا بالخلافة العباسية ، واعتادوا عليها ، وأصبحت قطعة من حياتهم ، وللخلفاء العباسيين قوة بالسنية المنتشرة في العراق . إن رفع هذا المنصب من السنية وتنصيب خليفة شيعي ، لا يمكن أن يلقى رضا العراقيين ، بل لعله كان سيء إلى حكم بني بويه كل الإساءة ، فثورات الشعب ستقوم ، لذا لجأ ابن بويه إلى ما فيه عافيته وفيه مصلحته ، فأقر الحكم العباسي .

هذا ويجب التنبيه إلى أمر له أهميته ، ولو أن المؤرخين لم يذكروا إليه ، وهو أن الشيعة في العراق الذين قد يسعى بنو بويه إلى إرضائهم ، كانوا شيعة إمامية لا زيدية ؛ وهذا يعني أن بني بويه لا يكسبون مكسباً كبيراً إذا أتوا بإمام زيدي ، إذ يكاد أن يكون الأمر واحداً عند شيعة العراق عندما يكون الخليفة عباسياً أو زيدياً .

صفة الحكم عند بني بويه :

ما هي صفة حكم بني بويه ؟ وكيف تكونت هذه الصفة ؟ وما هي العوامل التي أحاطت بها ؟ إن صفة هذا الحكم أتت من وضع الدولة البويهية نفسها ومن وضع العراق معها فما هو ذلك الوضع ؟

أولاً : إن الدولة البويهية اجتاحت الحكم العباسي ، فوقع عليها عبء الدولة الإسلامية ، وكان الحمل ثقيلاً عليها ، لأن الدولة العباسية دولة واسعة كبيرة الرقعة ، عظيمة الأهمية .

ثانياً : إن هذا الاجتياح من الدولة البويهية للعراق لم يسبقه نوع من التمرن على الحكم وممارسته في دولة واسعة كالدولة العباسية . ففي سنة (٢٢٠) هـ عيّن علي بن بويه عاملاً على الكرج من قبل مرداويج الزياري ، وفي سنة ٣٣٤ هـ أصبح أخوه أحمد الحاكم بأمره في العراق والدولة العباسية ، وليس بين التاريخين زمن كبير للتدرّب والممارسة .

ثالثاً : لم يكن في بني بويه رأس متنفّذ واحد يقود الدولة جميعاً ، بل كانوا ثلاثة إخوة ، لكل منهم شطر من المملكة ، فعاصمة أحدهم شيراز ، والآخر بغداد ، والثالث الريّ . وقد كانوا أول الأمر متفاهمين فيما بينهم ، إلا أن ذريتهم اختلفت وتقاتلت كما سنرى .

رابعاً : إن الجيش الذي يعتمدون عليه ليس مؤلفاً من عصبية واحدة يستندون إليها ، بل هو مكوّن من طائفتين ، المشاة الديّالة ، وهم مجهّزون باللباس الحسن والدروع الباهية ، والفرسان الأتراك ومنظرهم على خيولهم جميل بأسلحتهم وسروجهم . الفريقان مختلفان في الطبع ومختلفان في الرأي .

خامساً : إن هذين الفريقين مختلفان أيضاً في المذهب ، فالديّالة زيديون والأتراك سنيّون ، ولهذا الاختلاف أثره الكبير .

سادساً : إن ماورثه البويهيون في العراق كان تراثاً صعباً جداً ، رأينا مراحل الاضطراب فيه ، فالمال والحكم والأنظمة قد آلت إلى درجة مضطربة

مشتبكة ، وأصبحت الدولة متناهية في الضعف . فلم يجد البويهيون إذاً أنظمة صالحة ولا وزارة منظمة ولا عهداً متسقاً . أما هم فليس لديهم الخبرة السابقة في تنظيم الدولة ، فاضطرب الحال .



إن ما ذكرناه يدلّ على أن عناصر الإخفاق كثيرة أمام هذه الدولة ، فهل استطاع البويهيون أن يتغلبوا على المصاعب ، وأن يكتفوا لأنفسهم حكماً مستمراً صالحاً ؟ - إن ما فعلوه لا يدلّ على ذلك ، بالرغم من أن أحدهم عضد الدولة حاول الكثير في هذا الشأن .

لننظر إذاً كيف سارت شؤون الدولة ، وما هي أوضاع الخليفة والجيش وأجهزة الدولة :

١ - وضع الخلفاء :

إن البويهيين بعدما أقروا العباسيين في الخلافة جرّدوهم من كل سلطان ، فقد منعوا عن الخليفة وارده ، واستلموه لأنفسهم ، وخصّصوا له وارداً محدداً ، مقداره خمسة آلاف درهم في اليوم . كان ذلك في عهد المستكفي ، ثم أنقصوا المرتّب فخصّصوا ألفي درهم للمطيع كل يوم ، وبعد المطيع جعلوا المبلغ سنوياً دفعة واحدة ، وهو مائتا ألف دينار ، ولكن مع ذلك إذا كانوا بحاجة إلى المال ، يطلبونه من الخليفة ويحصلون عليه : طلب بختيار من الخليفة مالاً للجهاد ، فباع هذا جواهره لتأدية ذلك المال .

كان الخليفة لا يستطيع أن يعيّن كتابه ووزراءه ، وإنما كان يعينهم

الملك البويهى بنفسه . كان الملك البويهى يقرن اسمه على السكة (النقد) باسم الخليفة ، ويضع على السكة ألقابه وكنيته كما يضع الخليفة لقبه وكنيته ، بل كان لا يترك الملك البويهى للخليفة أن يتميز عنه بشيء . كان من أعراف الخلافة أن يقرع الطبل للخليفة خمس مرات في اليوم ، مرة قبل كل صلاة . قلّد البويهيون الخليفة ، وقرعوا الطبل لأنفسهم ثلاث مرات في اليوم أولاً ، ثم جعلوها خمساً كاملة بعد ذلك .

لم يبق للخليفة من شيء إلا المظهر الخارجى ، فهو الذى يقلد الملك البويهى سلطانه ويعطيه العهد ، لكنه ليس هو الذى يحرر العهد ويضع شكله ، بل يكتبه البويهى ويوقعه الخليفة . يمنح الخليفة الملك البويهى الألقاب ، لكن الذى يضع الألقاب هو هذا الملك بالذات ، وإذا لم يوافق الخليفة على ألقابه ، استعملها دون أمر الخليفة . وكان كل ما على الملك البويهى أن يفعله نحو الخليفة هو أن يتظاهر باحترامه له . كان هذا لا بدّ منه أمام الشعب الذى اعتاد على احترام الخلافة العباسية . أراد البويهيون أن يسايروا الشعب فاحترموا الخليفة ظاهرياً ، واستمرت الرسوم التقليدية قائمة في الولاية والعهد ، وظلّ البويهى يسجد أمام الخليفة مرات ، وقد يبالغ فى ذلك ؛ الأمر الذى يدعو إلى سخرية من يعرفون الحقائق .

أما إذا أرادوا أن يزيحوا خليفة عن عرشه فهم يأمرّون ديالمتهم أن يأخذوه من يده ويسحبوه . كما فعلوا مع المستكفي .

تركوا للخليفة شيئاً ما كان باستطاعتهم أن ينالوه من الخليفة ، ذلك هو الخطط الدينية : فالخليفة هو الذى كان يعيّن القضاة والمفتين ، وهو الذى يعيّن الأئمة والخطباء ، ولا ريب أنه ما كان للملك شيعى أن يتدخل فى شأن هؤلاء باعتبار أن أكثرهم من أهل السنة ، حتى لو أنه أراد أن

يتدخل يخالفه الخليفة ولا يرضى بما قام به . إذا أراد الملك أن يصرّ ، عندئذ يثور عليه الناس ، ويتخرج الموقف .

٢ - وضع الجيش :

من عوامل الاضطراب في الحكم البويهى وجود جيش مؤلف من الديلم والأتراك ، تميل الكفة يوماً إلى هؤلاء ، ويوماً آخر إلى هؤلاء ، فيختلف الطرفان ويتشاحنان ، وتقوم الوقعة بينهما ، فيضطرب الحال أكثر مما كان عليه ، قرب معز الدولة الأتراك أولاً ، ولعله فعل ذلك إرضاءً للسنين في بغداد ، فالأتراك سنيون مثلهم ؛ ولعله فعل ذلك أيضاً لأن الأتراك مطيعون أكثر من الديالة ، فالديالة شديدون ، جفاة ، لم يعتادوا على الطاعة ؛ أما الأتراك فإنّ من يحكمهم في أول الأمر يلقي منهم طاعة واستكانة . غضب الديالة لأن الملك أبعدهم عنه ، ولأنه أغدق على أتراكه قطائع وأموالاً ، فثار روزبهان الديلمي في الأهواز ، ومال الديالة عن معز الدولة إلى روزبهان . ولما قضى معز الدولة على ثورته ، زادت الوحشة بينه وبين الديلم ، فأبعدهم عنه أكثر فأكثر . ثم أتى بختيار بن معز الدولة فوجد الأتراك على ثراء فاحش يتسلطون على إقطاعات كبيرة . وكان بختيار في حاجة إلى الأموال ، فوضع يده على أموال رئيسهم سبكتكين ، وقرب إليه الديلم ليأمن جانب الأتراك ، فوقعت الوقعة بينه وبينهم على ما رأينا ، حتى أسعفه عضد الدولة فأقرّ أمره .

٣ - القطاعات وتنظيم الدولة :

إن دولة بني بويه لم يكن لها مران في أمور الحكم كما ينبغي لها أن تكون ، وقد ذكرنا أنها لم تمارس الحكم كدولة كبيرة ، بل مارسه في حكومة صغيرة ، وفي بقعة محدودة ، ها هي ذي قد ورثت الحكم العباسي ،

ذلك الحكم الثقيل الواسع الذي ترك تراثاً ضخماً تنوء بحمله أحسن الدول تنظيمياً . أخفقت دولة بني بويه بصفة خاصة في الشؤون المالية ، وكانت تلك الشؤون أثقل حمل ورثته دولة بني بويه عن العباسيين . وقد رأينا أن الإفلاس كان يهدد الدولة العباسية من حين إلى آخر ، وأن الخزينة كانت تفرغ من المال ، فلا يجد الخلفاء وسيلة إلى تأدية رواتب الجند ، هذا الأمر هو الذي واجه دولة بني بويه ، فرزحت تحته وناءت به . هذا وإن دولة بني بويه ورثت نظام الإقطاع عن العباسيين ، وورثت عنهم فكرة تقوية الجند بالإقطاع والمال ، فكان على البويهيين أن يرضوا جندهم من الديلم والترك ، وكيف يرضون هذا الجند ؟ أطلق معز الدولة لهم أراضي الدولة في العراق وكأنها أراضيها بالذات ، أعطاهم تلك الأراضي يتصرفون بها كما يشاؤون . أراد بعض الأفراد من أصحاب الممتلكات أن يقووا بقوة الجند ليتخلصوا من الضرائب ، فلهجؤوا إلى الديلمة والأتراك يحتمون بهم ، وانتهى الأمر بهؤلاء إلى أن وضعوا أيديهم على الممتلكات ، وأسلموها إلى غيرهم .

أما تنظيم الضرائب فقد كان تنظيمياً لا يمكن أن يعطي الدولة دخلاً كافياً : فالجندي الذي امتلك الأرض ، كان يقدم الضمان الذي تعهد به للدولة إذا كان إنتاج الأرض كبيراً ، أو كانت صالحة للزراعة والإنتاج ، أما إذا كانت الأرض ضعيفة بعض الضعف ، فقد كان يردّها إلى بيت المال ، ويطلب استبدال أرض أخرى بها بعد أن زاد في ضعفها وخرابها . على هذا كانت القطاعات تنتقل بين الأيدي ، ولا تقف في يد إلا إذا كانت تؤتي الكثير دون جهد كبير . هذا وقد أصبح الجندي مشغولاً في زرع الأرض ، ولكن مع ذلك فإنه لا يستطيع الاهتمام بها . وعلى هذا النحو ضعف محصول الأرض .

حدث ما يسمى بالخطأ ، وهي أن تنقص قيمة الضريبة على أرض يدعون أنها لم تؤت أكلها ، كان الملك البويهى يتساهل في هذا ، لأنه يميل إلى إرضاء جنده ، ثم لا يستطيع مراقبو الضرائب وموظفو الري أن يراقبوا الأعمال في الأراضي ، فهم يخشون من هؤلاء الجند الخشنيين ، فيستبد هؤلاء بالماء والأقنية والسدود ، ويستعملونها حسب رغباتهم ، دون عناية ، فتخرب ، ويتدنى حال الزراعة في المنطقة ، ويزداد الطين بلة ، حينما تنقص غلة الفلاح بازدياد الضرائب ، فهذه الضرائب إنما تقع على الفلاح وعلى أصحاب الممتلكات من غير ذوي النفوذ . النتيجة أن الفلاح يشكو ويئن من الظلم ، وليس من يرحم .

محاولة الإصلاح :

هذا هو الوضع في عهد معز الدولة ، ولقد أشار علي بن عيسى الجراح عليه بإصلاح الحال ، فسار مدة على ما أشار به عليه ، وهو سدّ البشوق ، يعني رمّ المجاري التي كانت معطلة وسدّ الثغرات التي تهرب الماء ، ففتحها وأصلحها وعمل سدوداً وطرقاً للري . قام معز الدولة بهذا الأمر ، لكن الحاجة إلى المال اضطرته إلى أن يترك هذا الإصلاح وإلى أن يعطي جنده بدلاً من الأموال قطائع ، فاضطرب الحال على ما ذكرنا سابقاً ، ثم جاء بمختيار بن معز الدولة بعده ، فبالغ في توزيع القطائع ، وطلب من الوزراء أن يقدموا الأموال ، ولما عجزوا عن ذلك ، صار يصادرهم ، فساءت الحال أكثر من ذي قبل ، حتى إذا أتى عضد الدولة ، استطاع أن يفعل شيئاً عظيماً . تعرّض عضد الدولة للإصلاح بهمة عظيمة ، لم تأخذه في ذلك لومة لائم ، لم يهتم بالجند ولم يهتم بالوزراء . أقبل على الإصلاح بكل نفسه . كان الإصلاح خطوطه واضحة بيّنة . أولها - إصلاح وسائل الري ،

وثانيها - رفع الظلم عن الشعب ، وثالثها - العمران والبناء . وهذا ما عمد إليه عضد الدولة ، فقد فتح مجاري المياه في بغداد وكانت بمعظمها مسدودة ، وأقام المسنّيات (آلات لتوجيه الماء) ، وفتح أقنية جديدة ، فسال الماء يروي الأرض . لكي يمنع الناس من الاستبداد بالأقنية والمياه ، ووضع عليها الحراس ، بحيث لا يعتدي أحد على حق غيره ، ثم اهتم بإقامة العدل بين الناس والفلاحين ، فأبطل الضرائب المزيدة على الفلاحين ، ورفع الظلامات ، وأجاب شكوى المشتكين ، ولم يراع بذلك الجند ، بل طلب منهم تأدية ما عليهم . ثم إنه نظر في حال المزارعين ، فوجد أنهم لا يستطيعون تأدية الضرائب في المواعيد المحددة ، لأن المحصول كان يأتي بعد تلك المواعيد ، فأخّرها إلى ميعاد سماه (النيروز العضدي) وهو يأتي في وقت يكون محصول الأرض فيه قد ظهر وبان .

أقام مع كل ذلك العمارات ، واهتمّ بما فيه فائدة الشعب وصحته ، فأقام في بغداد البيمارستان العضدي ، وأقام قصوراً له ، منها قصر في شيراز فيه ثلاثئة غرفة ، وهو قصر عظيم ، وفيه خزائن كتب هائلة مفتوحة للعلماء .

إن حكم عضد الدولة لم يستمر طويلاً ، وما أن توفي حتى عادت الفوضى ، وعاد الإقطاع ، ووجد الجند متنفساً بوفاته ، فعادوا إلى الجور وإلى الحصول على الأراضي ، واستفادوا من السدود التي أقيمت والقنوات التي فتحت ، فكسبوا المال لأنفسهم ، وعاد نفوذهم ، وعاد مع ذلك النفوذ ظلم الرعية ، وتدنّت الحالة الاقتصادية بعد ذلك ، حتى قال المقدسي حين زار بغداد أول عام ٣٧٥ هـ : « إنها تكاد تكون خراباً من الظلم فيها والاستبداد ، واهتمام القواد بالكسب ، والكتاب بأخذ الأموال ، والشعب يئن وإذا كان الشعب غير مطمئن ، فلا مجال للعمران أو التقدم » .

٤ - وضع الشعب وظهور الفتوة :

في هذا الوضع السيئ ، كان الشعب في بغداد والعراق عامة يبحث عن الخلاص ، لكنه لا يجد سبيلاً إليه ، فالخليفة غير قادر ، والحكام أشداء ، والجند شرس ، حتى إذا اجتمع الشعب ضد الجند ، ووقع الخصام بين الطرفين ، تغلب الجند على الشعب ، وزاد في اضطهاده وظلمه . وقعت واقعة سنة ٤١٧ هـ ، تألم فيها الشعب ، لكنه باء بالخسران حينما حاول أن يقاوم الجند ، وبحث الشعب عن مخرج من هذا الأمر ، فلم يجد الأقوياء منه إلا أن ينتوا إلى حركة العيارين ، وهم فئة من الناس أصحاب حيلة ، وأصحاب فنّ ومقدرة ، يسعون عن طريق اللصوصية للوصول إلى المال ، لكنهم عبدوا هذا الطريق بشكل يجعلون منه نظاماً شريفاً . نظامهم أمسى يشبه نظام الفتوة الذي امتدّ وقوي في عهد الخليفة الناصر ، والفتوة من المروءة كما تعلمون ، والعيارون أخذوا بمبدأ المروءة . فالعيار على حدّ تعبيرهم هو الفتي الذي لا يزني ولا يكذب ، ويحفظ الحريم ، ولا يهتك ستر امرأة ، وهو إن أحلّ السرقة فلا يسرق إلا المثرين ؛ وإذا قطع الطريق وعرض له رجل فقير ، فهو يتركه يسير بسلام ؛ وإذا قطع الطريق وعرض له رجل متوسط في الغنى لا يزيد ماله على الألف دينار ، قاسمه المال شطراً بشطر ؛ وإذا لجأ أحدهم إليه أجاره وحماه . فحركة العيارين حركة منصبة على أولئك الأغنياء الذين أثروا ثراء فاحشاً عن طريق غير طريق الحق . أما الشعب الذي يؤن من الظلم ومن الضعف ، فلا يتعرض له العيارون بل قد يساعدونه بالمال ، ولا تقتصر فئة العيارين على طبقة الشعب العادي ، بل دخل فيها من الأمراء العباسيين أنفسهم ، ومن الأشراف من آل علي ، فهي إذاً حركة اجتماعية أكثر منها

حركة قطع للطرق وسلب ونهب . اشتدت هذه الحركة اشتداداً كبيراً ، حتى أمست بغداد في قبضة العيارين ، يحمونها ويجمعون الضرائب (الأتاوات) المفروضة على الخمارات ومراكز اللهو ؛ يحمون هذه المراكز ، ويضعون عليها الضرائب . هذا هو البرجمي كبير العيارين يأخذ بيده السلطان في بغداد أربع سنوات (٤٢١ - ٤٢٥) فهو السيد ، وهو الذي يجمع في يديه الأمر . حركة العيارين منظمة ، فعندهم ترتيب في الترقى والألقاب ، من مقدم إلى قائد إلى أمير ، وعندهم طرائق خاصة في الدعوة .

٥ - ملوك بني بويه وحوادثهم الكبرى :

إن البويهيين اختلفوا فيما بينهم بعد قليل من حكمهم تلك المملكة الواسعة ، وقد ذكرنا أن لكل منهم عاصمة كان يقوم فيها ، واستمر هذا الأمر بين الأخوة الثلاثة ، إلا أن أحدهم وهو عماد الدولة ، توفي بعد أن أوصى بملكه لابن أخيه عضد الدولة بن ركن الدولة ، ثم لما توفي معز الدولة انتقل الأمر إلى بختيار ، لكن بختيار تعرض لصعوبات في عهده ، فقد كان سيئ الإدارة والفكر ، طمع في الأثراك ، وفي ثروتهم ، فوضع يده على قطائع سبكتكين ، فثار هذا عليه ، واستطاع أن يخرج من بغداد ، فاستنجد بابن عمه عضد الدولة . سار هذا إلى بغداد ففتحها وأراد أن يستقل بالأمر دون بختيار ، لكن والده منعه من ذلك حفظاً للعهد إلى إخوته . لكن والده ركن الدولة توفي بعد ذلك ، فما إن توفي حتى سارع عضد الدولة إلى بغداد ، فأخذها من يد بختيار ، ثم إنه سلخ عن أخيه فخر الدولة وأخيه مؤيد الدولة أملاكها ، وجمع الدولة بكاملها في يديه .

وكان عضد الدولة خير ملك في بني بويه ، فقد أصلح الدولة ، وحسن أمورها وقيادتها ، وعظم سلطانه ؛ إلا أنه لم يستمر كثيراً في الحكم ؛ ترك

الأمر من بعده لابنه بهاء الدولة . استمر بهاء الدولة مدة طويلة في الحكم ، إلا أن حكمه كان مضطرباً ، وقد عاد فخر الدولة بعد وفاة عمه ، فاستولى على ملكه الأصيل ، وانتقل هذا الملك إلى ابن له ، عمره تسع سنوات ، فقامت بالأمر وصاية عنه والدته السيدة وبعد وفاتها آل الأمر إلى ابنها هذا ، فاستنجد بالسلطان محمود الغزنوي ، فأنجده ، لكنه استولى على ملكه . أما بهاء الدولة بن عضد الدولة فقد نقل حكمه إلى أبنائه فتنازعوا عليه ، إلى أن تقدم طغرل بك السلجوقي واستولى على العراق سنة ٤٤٧ هـ ، فزال حكم بني بويه .

لعلنا صوّرنا عصر بني بويه مع شيء من المبالغة لتتضح الصورة . وعلينا أن نقول إن بلاد فارس كانت على حال أحسن من العراق ؛ ومهما يكن من أمر ، فوسائل الحضارة في العصر البويهي لم تكن قليلة ، والنهضة التي أحدثها عضد الدولة - ولو أن مدة حكمه قصيرة - خلّفت أثراً كبيراً ، فنشط العلم ، ونشطت الفلسفة ، ونشط البحث الديني ، فازدهرت الحضارة إلا أن الأحوال الاقتصادية والسياسية والمالية السيئة كان لها بعض الأثر على نمو الحضارة وتقدمها . ويمكن أن نقول إن هذه الحضارة قامت بتأثير أفكار عباقرة قدموا مجهودهم للمجتمع الذي كانوا يعيشون فيه ، وكان للحكام أثر كبير في تشجيعهم ورعايتهم



الحمد لله

٣١٧ - ٣٩٩ هـ

· زال حكم العصبية العربية بزوال بني أمية ، وأتى العباسيون بحكم لا عربي ولا فارسي هو حكم العباسيين خاصة دون عصبية إلا عصبيتهم^(١) ؛ إلا أن العرب في الشام ومصر ما زالوا يثورون ويضطربون ، ويريدون أن يعود الأمر إليهم ، فيقفون إلى جانب الخلفاء الذين يأخذون بالزعة العربية ، كالأمين والمتوكل . أما بنو العباس ، فقد حاربوا كل الثورات ، ومنها ثورات العرب . ولنذكر أن جعفرأ البرمكي أخضع الفتنة التي حصلت في الشام ، وأن طاهر بن الحسين أخضع فتنات أخرى في الشام ومصر . لكن العرب ما فتئوا يبحثون عن متنفس لهم ، لا سيّما أولئك الذين كانوا منهم في حال فقر شديد ، ووجد هؤلاء متنفسهم مع القرامطة ، فحاربوا إلى جانبهم ، إلا أنهم كسروا في حربهم هذه ، وقضى على حركة القرامطة في الشام ، كما قضى عليها في العراق . ولا يذّر القرن الرابع حتى تشيع يقظة عربية كبيرة في قبائل العرب ، ويحمل لواء هذه اليقظة بنو تغلب . وبنو تغلب رجال أشداء أقوياء كثيرو العدد ، ذوو أثر في العصر الجاهلي ، بل لقد قال عنهم التبريزي : « إنه لو لم يظهر الإسلام لكان بنو تغلب التهموا كل العرب » . وبنو تغلب ينتمون إلى آل ربيعة ، وكانوا نصارى قبل الإسلام ، وبقوا على دينهم في أوائل الإسلام ، غير أننا نجدهم في أواخر القرن

(١) | كنا أشرنا إلى هذه النقطة ، وذكرنا أن العباسيين ما أرادوا أن يستندوا إلى عصبية معينة ، واعتبروا الرعية كلها عصبيتهم ؛ إلا أنهم في الواقع كآسرة كبيرة يشكلون عصبية صغيرة ، ضعفت مع الأيام ؛ لذا تآرجح حكمهم بين أصحاب القوى - المنقح .

الثالث للهجرة مسلمين ، ونجد منهم الحسن بن عمر بن الخطاب ، وقد أسس الجزيرة المنسوبة إليه (جزيرة ابن عمر) في عام ٢٥٠ هـ ؛ على أن الحالة المادية كانت سيئة ، واضطر قسم كبير من بني تغلب إلى الهجرة فهاجروا إلى البحرين ، وبقي قسم منهم في الجزيرة وفي شمالي العراق . هذا القسم هو الذي قاد لواء اليقظة الفكرية والسياسية في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع ، والذي ترأس هذه اليقظة هم بنو حمّدان من تغلب ، وكان حمّدان حليفاً لأحد الخوارج واسمه هارون ، ثم استولى حمدان على مدينة ماردين ، فذهب إليه الخليفة المعتضد ودخل بلده ، وكان حمدان قد هرب منها ، ووقف الحسين أحد أولاده إلى جانب الخليفة ، وحارب هارون الخارجي وأخضعه ، فاستسلم له ، فعفا الخليفة عن حمدان ووزع الأعمال عليه وعلى أولاده ، وأقام قسم من أولاد حمدان في بغداد ، فاشتركوا في الحوادث التي كانت تحدث فيها وانتوا إلى المؤامرة التي نصبت ابن المعتز خليفة ، فقهروا مع من قهر في هذه المؤامرة . ثم عفا عنهم المقتدر وعيّن أبا الهيثم بن حمدان على الموصل ، فبقي في الموصل ، وخلفه فيها ابنه الحسن واستولى على ديار بكر ومصر والجزيرة كلها ، ثم إن الخليفة المتقي هرب من البريدي وقد استولى على بغداد ، فالتجأ إلى الحسن هذا مع أمير الأمراء ابن رائق ، وأخذ مكانه في إمارة الأمراء ، ولقبه الخليفة (ناصر الدولة) ، ولقب أخاه علياً (سيف الدولة) ، وسار الحمدانيون بالخليفة إلى بغداد ، فاستولوا عليها من البريدي ، لكنهم لم يبقوا فيها أمداً طويلاً ، فإن توزون أخرجهم منها ، لكن الموصل والجزيرة بقيتا في أيديهم . ولما أتى البويهيون إلى العراق ناوشوهم ، فوجدوا أنهم غير قادرين عليهم ، فاستسلموا لهم ودخلوا في حكمهم ، وكانوا يؤدون لهم جزية سنوية وهم في الموصل .

سيف الدولة :

نبغ من الحمدانيين رجل عظيم هو سيف الدولة ، وكان صاحب فكر نير ، فوجد بعد البحث أن مقامه بالموصل والجزيرة غير مُجْدٍ له ، ووجد أن الإخشيديين ، وكانوا مستولين على مصر والشام ضعفاء في الشام ، فاتجه إلى ناحية الضعف هذه ، واستطاع أن يستولي على حلب وذلك عام ٣٣٣ هـ ؛ فأرسل الإخشيد كافوراً ليحاربه ، فوقع القتال بينهما ، لكن الإخشيد توفي في أثناء ذلك فعاد كافور إلى مصر ، وقصد سيف الدولة مصر ليحصل عليها ، إلا أن المصريين خرجوا إليه ، والتقوا به في الأردن ، فهزموه وعقد الصلح بين الطرفين على تراض ، وهو أن يأخذ سيف الدولة شمالي سورية ، والإخشيديون جنوبيها اعتباراً من دمشق . يذكر بهذه المناسبة أن سيف الدولة أراد عندما دخل دمشق أن يوزع الغوطة بين قواده ، فعرف ذلك أهل دمشق ، فوقفوا في سبيله وطلبوا النجدة من المصريين ، ولعلمهم كانوا سبباً في إنقاذ دمشق من حكم الحمدانيين .

سورية مهددة من قبل الروم :

هذه هي الحوادث التي جرت في تأسيس دولة بني حمدان ، ونرى فيها أن الحمدانيين استطاعوا أن يكوّنوا فرعين : فرعاً في الموصل وما يلحقها ، وفرعاً في حلب وشمالها وجنوبها ، الفرع الأول خاضع لحكم بني بويه ، أما الثاني فمستقل له قوته وشأنه . هذا الفرع الثاني هو دولة الحمدانيين في حلب ، هو الذي لعب دوراً هاماً في تاريخ تلك الحقبة ، ذلك أن حلب كانت مهددة من جهة الروم ، فقد حدث أن ظهرت نهضة في بلاد الروم ، وتيقظ الشعب هناك ، وتشكلت دولة المقدونيين ، وهي دولة قوية ، سارت على خطا الدولة اليونانية القديمة ، وأرادت أن تبعث مجدها ،

واستمدت هذه الدولة عناصر سلافية ، كانت قد نشأت في جهات الشمال منها ، وهي قبائل بربرية بالأصل ، إلا أنها أخذت في هذا العصر تتحضر ولكن مع قوة سلاح ومراس في الحروب . مدّت الدولة المقدونية يدها إلى بلاد الإسلام ، وكأنها كانت تبغي أن تستولي على القدس .

وجد الحمدانيون في حلب أنفسهم أمام هذه الدولة ، وهي تريد التوسع في بلادهم ، تصدّى سيف الدولة لحرب الروم ، وحاربهم محاربة شديدة ، وكان كفؤاً لهم في حربه ، لكن أولاده غلبوا أمامهم . وإليك خلاصة ذلك فيما يلي : تقدم سيف الدولة في بلاد الروم سنة ٣٣٩ هـ ، ليقضي على طمعهم ، وليربهم قوته ، حتى بلغ قيسارية ووصل إلى أواسط آسيا الصغرى ، فاستولى منهم على غنائم كبيرة ، وأظهر هيئته فيهم ، لكنه فوجئ^(١) بهم وهو عائد إلى حلب ، فاتقضوا عليه على حين غرة ، واستولوا على الغنائم التي كانت بين يديه ، واستطاع بشقّ الأنفس أن ينقذ نفسه وأتباعه ؛ ثم أدرك هو والروم أن أحد الطرفين لا يستطيع التغلب على الآخر ، فكوّنوا بينهم حدوداً محصنة قوية ، ووزعت الجنود في هذه الحدود ، وأقطعت الأراضي على أولئك الجنود ، لكن الحرب كانت تحدث كل سنة تقريباً بين الطرفين .

كانت أهم الحروب وقعت بين المسلمين والروم بقيادة الدّمستق (دومستيك) هجم الروم على بلاد الشام ، وقد كوّنوا جيشاً كبيراً من الروس والبلغار والخزر ، فتصدى له سيف الدولة وهزمه في معركة كبيرة

(١) تكرر مثل هذه الحادثة سنة ٢٤٩ هـ ، وكانت الغزوات العربية قبلها من سنة ٣٣٩ - ٢٤٩ هـ أكثرها موفقة ، مع أن الروم كانوا يغيرون بين حين وآخر ثم ينسحبون ، وينتقم للسلون منهم . إلا أن هذه النكسة التي وقعت في المسلمين سنة ٢٤٩ هـ لخالفه سيف الدولة رأي مستشاريه أطمعت الروم بالمسلمين ، حتى أنهم استولوا على عين زربة سنة ٢٥١ هـ وعلى خمسين حصناً ؛ ثم شنّوا بالأمري المسلمين تشنيعاً فظيعاً - المنقح .

وأمر قسطنطين ابن الدمستق وأحضره إلى حلب ، فمات في حلب وأُخرج له جنازة كبيرة .

تهيأ الروم خلال أمد طويل لحرب كبيرة في الشام ، فجمع تقفور^(١) ملكهم نحواً من مئتي ألف مقاتل ، وسار بهم إلى سيف الدولة وغافلته ، فوصل إلى أبواب حلب ، ولم يصمد له سيف الدولة ، وأحاط تقفور بحلب ، ووقع الاختلاف بين أهلها والشرطة ، فاغتم تقفور هذا الاختلاف ، ودخل حلب فقتل فيها عشرة آلاف إنسان ، وخرّب قصر سيف الدولة المسمى بالدارين وهو خارج حلب .

استمرت الحرب بين سيف الدولة وبين الروم ، تسعرتارة ، وتهدا تارة ، ويتغلب سيف الدولة مرة ، ويتغلب الروم مرة أخرى ؛ وسار سيف الدولة في هذه الحرب سيرته ، حتى إذا أصابه فالج لم يهتم به ، بل استمر على محاربة الروم . لم يمهل الزمن كثيراً ، بل توفاه الله بعد ذلك عام ٢٥٦ هـ ، فأوصى بأن يجمع الفبار الذي علق بدرعه وثيابه في أثناء حروبه مع الروم ، فيعمل من ذلك لبنة يوضع رأسه عليها في قبره حين يدفن ، وتنفذ وصيته .

سيف الدولة يمثل لنا إذاً بطلاً عريباً رهن نفسه وجسمه للجهاد ، يحارب الروم بقوة وعزم ، مع أن الروم كانوا أقوىاء في عصره غاية القوة ، ويمثل لنا عهده أيضاً نهضة فكرية ، قلّ مثيلها ، شملت نواحي مختلفة من العلم والأدب والفن والعمران .

سيرة سيف الدولة مع أبي الطيب المتنبي معروفة ، وكذلك مع أبي

(١) ابن الأثير ٨ / ١٧٨ يذكر أن مهاجم حلب هو الدمستق لا القيصر نفسه ، وكان ذلك سنة ٢٥١ هـ بعد فاجعة عين زربة ، وهو تقفور الثاني (الملقب بالفقّاش) - للنقح .

فراس الحمداني ، تحدثنا كتب الأدب عن مجالسه التي كان يقع فيها المناظرات ، ولا سيما بين ابن خالويه اللغوي وأبي الطيب المتنبي . شجع سيف الدولة الكتاب والمؤلفين غاية التشجيع ، فأعطى أبا الفرج الأصفهاني ألف دينار لتأليفه كتاب الأغاني ، وأقام عنده الفارابي فخصص له جراية معينة ، بل إن سيف الدولة كان طباخه شاعراً وهو كُشاجم ، وكان له خطيب مصقع هو ابن نُبّاتة ، وكان ابن نُبّاتة يحرّض الجيش على قتال الروم بخطبه العظيمة . أصبحت حلب في عهد سيف الدولة مركزاً مهماً للثقافة والحضارة ، وبنى فيها سيف الدولة مقراً له أسماه الدارين ، وأقام في حلب داراً للعلم ، جمع فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد ، وسبّلها للعلماء . فازدهرت حلب بالرغم من الحروب الكثيرة ، ومن النكبات التي كانت تأتيها من تلك الحروب .

سعد الدولة وعلاقة الروم بالحمدانيين والفاطميين :

أما سعد الدولة ابنه فقد استولى على الحكم بعده ، وكان له قائد اسمه فرغويه ، فأخذ له البيعة في حلب ، واستقر فرغويه في حلب ، ثم لمع فيها ، وأراد أن يكون صاحب الأمر ، وما كان باستطاعته أن يحارب سعد الدولة ، وأن يقف أمامه دون عون ، فأرسل إلى الروم وطلب عونهم ، وصالحهم على جزية سنوية يؤديها لهم . ولما هجم سعد الدولة على حلب لاستخلاصها من بين يديه ، أتاه الروم ، ودفعوه عن حلب ، ثم إن سعد الدولة جمع أمره ، وقوى نفسه ، وهجم على حلب فاستولى عليها ، فسار إليه الروم ، ووجد أنه لا قبل له بهم ، فصالحهم على الجزية نفسها التي كان يؤديها فرغويه . ظهر في هذه الأثناء الفاطميون في مصر ، وامتدت يدهم إلى سورية ، ف وقعت الواقعة بينهم وبين الحمدانيين ، ووجد الروم مصلحتهم

إلى جانب الحمدانيين ، ذلك أنه كان أسهل عليهم أن تقوم دويلات من أن تأتي دولة كبرى كدولة الفاطميين ، فتقف إلى جوارهم ، ثم يضطرون إلى محاربتها . وهكذا ساعدوا الحمدانيين في حلب على الفاطميين ، وعقدوا معهم صلحاً حتى إذا سار الفاطميون إلى حلب ، استنجد الحمدانيون بالروم ، فسار إليهم باسيل الثاني بجيش قدره سبعة عشر ألف رجل ، فأجلى الفاطميين عن حلب ، ولم يدخلها ، وكان بإمكانه أن يستولي عليها ، وكان كل ذلك بحساب مقدر ، فلو أنه قضى على دولة الحمدانيين ، لواجه الفاطميين وجهاً لوجه ، والروم كانوا مشغولين بحروب واضطرابات في بلادهم .

سعيد الدولة ونهاية الدولة الحمدانية :

وأتى بعد سعد الدولة ابنه سعيد الدولة ، وكان إلى جانبه قائد اسمه لؤلؤ ، وهو والد زوجته . مد لؤلؤ يده إلى الحكم وسجن سعيد الدولة ، فدانت له حلب ، ثم تقدم نحو الفاطميين فطلب حمايتهم ، وبذلك انتهى حكم الحمدانيين في سورية ، ودخل الفاطميون حلب .

حكم الحمدانيون في حلب وفي الموصل حكم دولة عربية شيعية ، اعتمدت على قوة ساعدها وبنت أمرها على الحرب والجهاد ، وسارت سيرتها كالدول الشيعية الأخرى البويهية والفاطمية ، فاعتمدت على نوع من الدعوة ، واعتمدت بصفة خاصة على تشجيع العلم والثقافة وعلى العناية بالعمران . أخطأت في آخر عهدها فتحالفت مع الروم لتنقذ نفسها من الهلاك ، لكن وحدة مصر والشام كانت أقوى من أن توقفها المنافع المحلية ، فدالت دولتها .



الفاطميون

٢٩٧ - ٥٦٧ هـ

تشكل الدولة الفاطمية :

رأينا تشكل دولتين شيعيتين استقلتتا بالأمر وخضعتا للحكم العباسي عن طريق الاعتراف بالخلافة ، ولنا الآن سعي سلالة تدّعي النسب إلى فاطمة ابنة الرسول للحصول على الخلافة نفسها كاملة عامة موحدة . إنه سعي القائلين بالإمام السابع ، أي السبعية . وقد رأينا وضع هؤلاء حين البحث عن القرامطة ، وقد مرّ معنا كيف أن القرامطة درجوا على أسلوب خاص لهم في الدعاية ، وفي تكوين الدولة . كان رأس هذه الحركة ميمون القداح ، وهو الذي وضع حجر الأساس لحكم الباطنيين ، لكن غاية ميمون^(١) القداح ترمي إلى شيء آخر فهو إنما يريد الخلافة ، ولا يريد ثورة هنا وهناك وبطشاً وقتلاً ونهباً . وهكذا يمكن القول إنه يجب الفصل بين الفاطميين والقرامطة .

نسب الفاطميين :

تثار قضية في شأن ميمون القداح ، وهي أن أولاده الذين استولوا على الخلافة الفاطمية كانوا غير فاطميين ، مع أنهم كانوا يدّعون أنهم من سلالة فاطمة الزهراء . وقف المؤرخون في هذا الأمر موقفين مختلفين : فبعضهم يرى أن الفاطميين ليسوا من سلالة فاطمة ، وبعضهم الآخر يرى أنهم من

(١) ربما توضحت غاية الحركة في الوصول إلى الحكم في عهد ابنه عبد الله - المنتج .

تلك السلالة ، ويقدم كل من الطرفين حججه ودلائله . الدلائل تميل إلى جانب من ينكرون صحة نسب السلالة : فال علي أنفسهم كانوا يرفضون الاعتراف بصحة سلالة الفاطميين ، والقرامطة أنفسهم وقفوا موقفاً مماثلاً في هذا الأمر ، وهم سبعية كالفاطميين . ومهما يكن من أمر فإننا مبالغون مع معظم المؤرخين إلى أن الفاطميين ليسوا من سلالة علوية ، على أن هذا الأمر من الناحية التاريخية لا يقف سداً يحول بين الفاطميين وبين الحصول على الخلافة ، فوسائل التمويه في الأمر كثيرة ، والمهم الوصول إلى الحكم ، وقد تيسر لمن سُموا بالفاطميين الوصول إلى الحكم .

أسلوب الفاطميين في الدعوة :

تيسر لهم بلوغ الحكم والخلافة بأسلوب أرى أنه يشابه أسلوب العباسيين ، وأرى أننا إذا اتبعنا عرضاً يشابه عرضنا لوصول العباسيين إلى الحكم عن طريق الدعوة ، فهمنا تطور تاريخ الفاطميين الأول . هذا رجل ولنسمه ميمون القداح ، وكان يسمي نفسه أو سمي بعد ذلك بمحمد الطيب ، يختار السمية^(١) (قرية تقع شرقي حماه) مركزاً للدعوة إلى المهدي المنتظر من أبناء محمد بن إسماعيل ، ويوجه الدعوة إلى أقطار العالم الإسلامي ، وهو في نظر دعائه رئيس الدعوة لهذا المهدي المنتظر ، كما كان محمد بن علي بن عبد الله بن عباس يرأس الدعوة من الحمية إلى أقطار العالم الإسلامي . إن الدعوة القداحية لا تسمي الخليفة ، وكل ما في الأمر أن رئيسها عارف كيف يوجهها ، وعارف بالأماكن التي يمكن أن تنتشر فيها دعوته ، وعارف بالأشخاص الذين يتقبلون هذه الدعوة ويؤدون إليه خمس أموالهم . وتمضي الأيام فتنتشر الدعوة على شكل قرمطي في العراق ثم تمتد

(١) عبد الله بن ميمون القداح هو الذي اتخذ سلمية مركزاً له - المنقح .

إلى بلاد الشام ، فيجد ابن^(١) ميون القداح وهو عبيد الله ، أن الدعوة اتجهت اتجاه الثورة والقتال والاضطراب ، وأنها أخفقت في العراق ، وهي الآن في سورية تسعى سعيها ، ولكنها لا تمشي باضطراب .

نقل الدعوة إلى المغرب :

ويلوح له في الجو بسمه أمل تعطيه صورة تشابه الصورة التي حصلت للعباسيين فهذا أبو عبد الله الشيعي أحد دعائه يسير إلى مكة ، فيجتمع ببعض أفراد قبيلة كتامة من البربر ، فيجد عندهم استعداداً كبيراً لتقبل دعوة الفاطميين ، فيذهب معهم في المغرب^(٢) ويبحث دعوته بينهم . وهكذا وجد عبيد الله طريقتين في العمل : إحداهما أن يتحالف مع القرامطة ، وأن يثور بثورتهم ، والأخرى هي أن يلتحق بالمغرب ، فينشر دعوته هناك ، ثم يسعى سعيه منه في الانتفاض على الخلافة العباسية . أيّ الأمرين أجدى له ؟ لا ريب أن وجوده في سورية يعرضه للمخاطر ، أما في المغرب فسيكون بين قبيلة بربرية قوية شديدة المراس . إنّ الجوّ ممهد في المغرب ، فقد أسس الأدارسة دولتهم هناك على أسس شيعية ، فتعرف السكان على الشيعة ، فلا يمتنعون إن صدرت دعوة شيعية بينهم . إنّ القرامطة يعرفون أصل عبيد الله حق المعرفة ، ولعل بادرة ظهرت منهم نحوه في أنه ، وإن كان رئيسهم ، إلا أنه يدعو للمهدي المنتظر ، وهو ليس

(١) ليس القصد هنا بأنه ابن ميون بالذات ، لأن المعروف أن عبيد الله هو ابن الحسين بن عبد الله بن ميون القداح : لكن النسب الذي ادعاه عبيد الله المهدي هو عبيد الله بن عبد الله بن الحسين التقي ابن أحمد الوفي ابن عبد الله الرضا ابن محمد المكتوم ابن إسماعيل - المنتح عن زمباور . أما فيليب حتي فهو يلقب محمداً (التام) - المنتح .

(٢) قبل أن يذهب الشيعي إلى مكة ويتعرف بالكتاميين اتصل بابن حوشب الذي كان ينشر الدعوة في بعض بلاد اليمن وساعده - المنتح .

ذلك المهدي كما يعرفون . أما في المغرب فليس يعرفه إنسان ، اللهم إلا داعيته أبو عبد الله الشيعي ، وهو يأمن جانبه وعلى ذلك فقد كان الخيار واضحاً أمامه ، ولما قدم عليه زكرويه وابنه يطلبان منه تفاهماً معها في شأن الثورة بالشام ، لم يأبه لهما ، وسافر بعد ذلك إلى مصر ، ومن مصر إلى القيروان ، لكنه حدث له في سجنه ما حدث لإبراهيم بن محمد بن علي قبله ، فقد ألقى القبض عليه ، غير أن الأمور كانت تسير في مصلحته ، فأبو عبد الله الشيعي استطاع أن يضرب الأغلبية أصحاب تونس ، وأن يستولي على القيروان وعلى ملكهم جميعاً ، وبذلك أنقذ عبيد الله وأخرجه من سجن صاحب سجلماسة واستقدمه إلى القيروان فدخلها منتصراً سنة ٢٩٧ هـ .

تأسيس الدولة الفاطمية :

وهكذا وجد عبيد الله نفسه وهو على رأس جيش وحكومة ، قائد هذا الجيش أبو عبد الله الشيعي ، وهو رئيس الدولة ، فدعا نفسه المهدي ، واتخذ لقب أمير المؤمنين ، وعدّ ذاته خليفة ، ثم اتخذ سبيل العباسيين أيضاً ، فعمر مدينة لنفسه ولجيشه سماها المهديّة ، وذلك سنة ٣٠٨ هـ ، وهو في هذا يفعل ما فعل أبو جعفر المنصور حين عمر بغداد .

ويقتضي بنا الأمر أن نذكر أنّ هناك تشابهاً واضحاً في ثورة العباسيين على الحكم الأموي ، وثورة الفاطميين على الحكم العباسي ، والأسلوب يظهر تقريباً واحداً ، بل الحوادث متشابهة أيضاً في العلاقة بين أبي عبد الله الشيعي قائد الفاطميين وبين المهدي عبيد الله أمير المؤمنين للفاطميين ، فأبو عبد الله الشيعي يريد أن يكون له شيء من الأمر والشأن ، وهو الذي فتح المغرب للفاطميين ، والمهدي عبيد الله يريد أن يكون له كل الأمر ، ويثور عليه أبو عبد الله فتخفق ثورته ، ويقتله المهدي كما قتل أبو جعفر المنصور قبل ذلك أبا مسلم الخراساني .

التوسع نحو الغرب وضمّ مراكش :

وكان أمام الفاطميين بعد هذا أن يسوّوا الأمر في المغرب ، وأن يبسطوا سلطانهم فيه ، فألفوا أنفسهم أمام صعوبتين : أولاها : وجود الإدريسيين في مراكش ، والأخرى : وجود الخوارج بين البرابرة . قاموا بما يقتضي عليهم الأمر في ذلك ، فحاربوا الأدارسة وتخلصوا^(١) منهم واندفعت جيوشهم في بلاد المغرب ، ووصلت إلى مراكش ، لكن عبد الرحمن الثالث الأموي أوقفهم في جهات سبتة ، على أن المغرب وقع أكثره في قبضة أيديهم . أما مع الخوارج فقد اضطروا إلى حرب شديدة واسعة ، فقد خرج عليهم رجل من الخوارج اسمه أبو يزيد ، وعانوا في شأنه الأمرين ، حتى استطاعوا بعد معارك طويلة علم ٣٢٦ هـ أن يقضوا عليه .

النظر إلى الشرق والتفكير بضم مصر :

كانت غاية الفاطميين الأساسية أن يكونوا خلافة عامة تحلّ محلّ الخلافة العباسية ، لذلك كان عليهم أن يتوجّهوا في فتوحهم إلى مصر ، ومن مصر إلى العراق ، والواقع أنهم لم يكفّوا عن التفكير في ذلك ، حتى في الساعات الحالكة من تاريخهم بالمغرب ، ومن المهديّة وجهوا إلى مصر عدة حملات في السنوات : ٣٠٢ و ٣٠٧ و ٣٢١ هـ و ٣٢٣ و ٣٢٢ هـ لكن هذه الحملات أخفقت بالرغم من أن الفاطميين استولوا على الإسكندرية واضطروا إلى الانسحاب . يعود سبب الإخفاق إلى أن مصر كانت في وضع متين ، لا سيما أخيراً في عهد الإخشيد ، وهو رجل سياسة وحكم ، حكم مصر ودعا

(١) ليس لدينا دليل واضح على التخلص منهم ؛ ذلك لأن حكم الأدارسة امتدّ حتى أواخر القرن الرابع الهجري ، ثم انقسموا على أنفسهم ، وخلفهم أسر حاكمة في المغرب . وظل المغرب الأقصى يبنأى عن الحكم الفاطمي .
المنقح .

فيها للخليفة العباسي ، ولقبه الخليفة الإخشيد أي ملك الملوك ، وهو لقب تركي معروف في بلاده الأصلية ، ولم يصرف هذا الإخفاق الفاطميين عن رغبتهم في الاستيلاء على مصر ، ولم يمض أمد يسير حتى توفي الإخشيد ، فاضطربت الأحوال من بعده واستولى على مصر كافور ، وهو عبد أسود ، واضطرّ الناس إلى أن يقبلوا بحكمه عليهم مرغمين غير راضين ، ولم يستمر كافور أكثر من سنتين^(١) . ثم أشرف على الأمور الوزير جعفر بن الفرات ، فساءت الأمور في عهده أكثر . واستاء الشعب من شغب الجند وبذخ الحكام الذين أقبلوا على ملذاتهم ؛ وظهرت أزمات اقتصادية ومجاعات ، ووقع ظلم على السكان ؛ وكان القرامطة لا يزالون في سورية يقومون بضرباتهم المتوالية ، كانت جهتهم هذه المرة مصر ، أخذوا يهثثون أنفسهم للانقضاض عليها . كان أهل مصر يشعرون بذلك ، لكنهم لا يستطيعون القيام بشيء أمام هذا الخطر الداهم ، في ذلك الحين جهز المعز الفاطمي جيشاً للاستيلاء على مصر ، وكان قبل ذلك قد أرسل دعائه إليها يهثثون الدعوة بين السكان .

الحالة الراهنة في مصر قبل الاحتلال الفاطمي :

لنتخيّل الآن موقف مصر من هذه الدعوة : كانت مصر في الواقع أمام أعداء ثلاثة : العدو الأول : هو القرامطة بمذهبهم وبثوراتهم وقلقلهم ، وكان العدو الثاني ماثلاً في مصر نفسها وهو اضطراب الحالة ، واختلاف الجنود ، وتفاقم الأزمات الاقتصادية ، والظلم المحيق بالسكان ؛ وكان العدو الثالث هو ذلك الذي يتربص ليهاجم على مصر من جهة المغرب ، وهو جيش الفاطميين

(١) حكم كافور كوصي على أبناء الإخشيد مدة عشرين سنة ، ثم حكم مباشرة مدة سنتين (٢٥٥ - ٢٥٧ هـ) .

(هـ) - المتنح .

وقد أعدّ إعداداً حسناً ، هذا الجيش يدعو دعوة فاطمية إسماعيلية ، أو دعوة شيعية فيها شيء من المغالاة ، وكان على أهل مصر أن يختاروا بين أحد الأعداء الثلاثة . لا ريب أنهم لم يختاروا القرامطة فهم يخشون شرهم أكثر من شرّ العدوين الآخرين ، ثم إن العدو الداخلي شديد عليهم ، فهم في حالة اضطراب وأزمة عامة ، أما ذلك العدو الآتي من المغرب ، فهم لم يروا بعد من سيئاته شيئاً ، بل سمعوا عنه أنه يعيش عيشة بدوية بعدل واستقامة ، ولا ينفق الأموال على البذخ والتهتك كما يفعل أمراء مصر في ذلك العصر ، لكنه مع ذلك عدو ذو مذهب يخالف مذهب أهل مصر ، فهو شيعي ، وأهل مصر مالكية وشافعية متحفظون ، فهل يرضون به ؟ - يبدو لي أن الفاطميين في المغرب لم يتخذوا في بادئ الأمر مذهباً مغالياً في التشيع ، ولعلمهم كانوا على مذهب علوي لا يعدو^(١) كثيراً مذهب الإمامية إلا بوقوفهم عند الإمام السابع ، ثم إنهم كانوا عارفين بطبيعة الشعب المصري وميله المذهبي ، فبثوا دعائهم فيه بأسلوب حسن لين لطيف ، فماذا كانوا يقولون ؟

العهد الفاطمي إلى أهل مصر قبل الاحتلال :

ليس بين أيدينا نصوص تدلنا على سير دعوتهم في مصر لنعرضها هنا ، لكن حدث حين هاجم الفاطميون مصر أن أعطوا عهداً لأهل مصر ، يظهر فيه شكل الدعوة التي كانوا يبثونها ، فلنستعرض إذاً هذا العهد الذي قطعه القائد جوهر باسم الخليفة المعزّ لأهل مصر حين دخل أبوابها ، ولما يصل إلى مصر نفسها ، هذا العهد يمكن أن نلاحظ فيه ثلاثة أمور : الأمر

(١) ظهرت حقيقة دعوة الفاطميين فيما بعد ، وما كان من صالحهم أن تعرف لا في شمالي إفريقيا ولا في

مصر قبل أن يتوطد مركزهم - المنتج .

الأول : الإشارة إلى الخطر الذي كان يتهدد مصر من جهة الجنوب مع القرامطة ، ويصوّر هذا الخطر في العهد تصويراً قوياً ، ولا بد أن الدعاة كانوا يصوّرونه في خطر أشد مما كان يصوّره العهد ، يقول هذا في فقرة من فقراته : « ... إنه - صلوات الله عليه - لم يكن إخراجهم للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم ، إذ قد تخطفتم الأيدي واستطال عليكم المستذلّ ، وألمعته^(١) نفسه بالاعتداء على بلدكم في هذه السنة والتغلب عليه ، وأسر من فيه ، والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان الشرق ، وتأكد عزمه ، واشتدّ كلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - بإخراج العساكر المنصورة ، وبإبادة الجيوش المظفرة دونكم ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين عمّهم الخزي وشملتهم الذلّة . واكتفتهم المصائب وتتابعت الرزايا ... » .

هذا واضح في إظهار الخطر الذي يريد الفاطميون أن ينقذوا منه مصر ، وهو خطر القرامطة ، وهنالك خطر آخر ينذر الفاطميون به أهل مصر أيضاً ، وهو الأمر الثاني : خطر الحالة الداخلية المتفككة . ففي نص آخر من العهد يؤكد القائد جوهر أن أمير المؤمنين أوعز به إلى عبده (جوهر) « من نشر العدل ، وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفي الأذى ، ورفع المؤن ، والقيام في الحق وإغاثة المظلوم مع الشفقة والإحسان . الخ » ويستأنف بعد ذلك قائلاً : إن أمير المؤمنين يأمرني به من « إسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضي - صلوات الله عليه - بإثباتها

(١) كذا وردت في (المقرئزي - اتعاط الحنفا ... طبعة HUGO BUNZ ليبريغ ١٩٠٩ ص ٦٧) : أما

الدكتور جمال الشيال في طبعته ١٩٤٨ - ص ١٤٩ - فقد أصلحها وقال : (وأطمعته) - المتقح .

عليكم ، وأن أجيركم^(١) في المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات^(٢) موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفا (كذا) بها ، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال ، وأن أتقدم في رمّ مساجدكم ، وتزيينها بالفرش والإيقاد ، وأن أعطي مؤذنيها وقومتها ومن يؤمن الناس فيها أرزاقهم ... » وظاهر من هذا أنه سترك ما كان على ما كان في شؤون الأوقاف ، وهو بهذا يستميل القائمين على المساجد ودور العبادة ، وهو الأمر الثالث وغايته الإصلاح الداخلي .

أما الطريقة التي يستميل بها السكان بصفة خاصة لإزالة تخوفهم من المذهب الشيعي فإنه يبدو في قوله : « إذ كان الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهي إقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجري الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونصّه نبيه صلى الله عليه في سنته ، وإجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه ، ولكم عليّ أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام في أنفسكم وأموالكم وأهلكم ونعمكم ... الخ » .

هذا العهد هو الذي كان يدّعيه الدعاة ، بل لعلهم كانوا يستزيدون فيه شيئاً وأشياء يتبسطون بها ، لأنّ القول غير العهد المكتوب .

(١) الشيال (أجريكم) - المنتق .

(٢) كما وردت في طبعة الشيال ، أما طبعة BUNZ فقد وردت فيها (بركات) - المنتق .

يبدو واضحاً أن العبيدين (أو كما يسميهم المؤرخون الفاطميون) ضمنوا لأهل مصر ألا يؤذوا في مذهبهم وأن يستمروا على سنتهم ، فلم يبق إذاً أمام المصريين مجال للتردد في انتخاب أحد الأعداء الثلاثة ، إلا أن ينتخبوا عدوهم الفاطمي الذي تخلى عن العداوة ، وجاء إليهم لينقذهم من القرامطة ، لينقذهم من الفوضى والظلم الذي هم فيه ، وليترك لهم أمر دينهم يقومون به كما يشاؤون .

الاستيلاء على مصر :

هياً الفاطميون إذاً دخولهم إلى مصر تهيئة محكمة ، وهيؤوا جيوشاً لغزو مصر ، إن وقع القتال مع أهلها ؛ فقد أعدّ المعزّ جيشاً ينوف على المئة ألف مقاتل من البربر والمغاربة عامة والروم والصقالبة والسودان ؛ وكان قد جمع ثروة هائلة بسبب تقشفه وحياته البدوية ؛ قُدّرت هذه الثروة بأربعة وعشرين مليون دينار ، كانت بين يديه تعدّ في الصناديق ، فوضعها لهذه الحملة . بعد أن تلقى وفداً من المصريين في المهديّة أتاه شبه مبايع ، أرسل أحسن قواده جوهراً الصقلي وأصله رومي من صقلية ، وسيّره بأوامره ، وما بلغ أبواب مصر حتى خرج إليه من المصريين وفد يؤيدون الوفد الأول . تلقى جوهراً الوفد بالترحاب وعقد لهم عقده الذي ذكرنا بعضاً من نصوصه ، فأمنوا له ، واستسلموا لأمره ؛ غير أن الإخشيديين ومن كانوا يميلون إليهم لم يستسلموا لتلك القوة الدافقة ، ويزدعنوا لرغبة الشعب ، بل خرجوا ليصدّوا جيش جوهراً الصقلي ، فوقفوا وراء النيل من جهة الجيزة ، ولما وصل جوهراً خاض جيشه النيل إليهم ، وهاجمهم هجوم الأسد الكاسر ، وقتل فيهم مقتلة كبيرة ، ثم دخل جوهراً الصقلي الفسطاط .

تأسيس الدولة الفاطمية في مصر :

وكانت أمامه خطة واضحة للعمل ، وهو أن يشرع حالاً في تأسيس مدينة لجنده لئلا يختلط بالسكان وتقع المشاكل : أسس ما يسمى بعد ذلك بالقاهرة المعزّية ، نسبة للخليفة المعزّ وهي القاهرة ، أسسها وخططها خططاً مختلفة ، فوزع الجند فيها ، وجعل لكل طائفة منهم حياً خاصاً ، فللبربر حيّهم ، وآخر للروم وثالث للسودان .. وهكذا ، ثم وجد المعزّ لدين الله الأمور في مصر قد مهّدت له ، وأقيمت مدينة من أجله والحاشية ، فانتقل من مقره في المهديّة إلى مدينته الجديدة القاهرة المعزية وذلك سنة ٣٦٢ هـ .

التوسع خارج مصر :

وكان أول ما فعله المعزّ أنه تصدّى لجيش القرامطة ، وكان هذا الجيش خطراً على مصر وخطراً عليه . نعم إن أصل الفاطميين المذهبي وأصل القرامطة المذهبي واحد ، فهم جميعاً يعترفون بالإمام السابع ، ولكن القضية المذهبية ، إنما هي أمر ثانوي بالنسبة إلى القضية السياسية الأساسية : فالفاطميون يريدون أن يكونوا أسياداً بخلافه لهم خاصة ، والقرامطة يريدون أن يستولوا على مصر لأنفسهم ، وهكذا وقع الصدام بين فئتين يكاد يكون مذهبهما واحداً . ظهر شأن القرامطة خطيراً ، فقد استطاعوا مرة ومرتين أن يصلوا إلى أبواب القاهرة ، وأن يهددوا الفاطميين في عقر دارهم ، لكن جوهرأ استطاع أن يردّهم ، وخرج المعزّ لهم أيضاً واستعمل الحيلة في تفريقهم عن محالفهم من البدو ، فدحروا وكان البويهيون يسندونهم ، بعد أن كانوا مخالفين لهم ، يسندونهم ليتخلصوا من عدو جديد فاجأهم إلى جانبهم في بلاد واسعة الثراء ، كبيرة النفوذ ، قوية الجيش ، ومركزها وسط في العالم

الإسلامي ، فخطر الدولة الجديدة عليهم فيها شديد . لم يأبه الفاطميون لمساندة البويهيين بل أخذوا في التوسع ، فساروا إلى بلاد الشام ، ودحروا فيها القرامطة مرة أخرى ، ووصلوا إلى جهات الشمال ، فوجدوا الحمدانيين أمامهم فحاربوهم ، وتقدموا في بلادهم حتى بلغوا حلب ، وقد رأينا أن الحمدانيين لجؤوا إلى الروم لمحايتهم من الفاطميين . إن اندفاع الفاطميين في بلاد الشام ظل يستمر حتى استطاعوا أن يضمنوا آخر الحمدانيين ، فاستسلم لهم ودخلوا حلب .

تقدم الفاطميون أيضاً من جهة الجنوب فدخلوا الحجاز ، وتمكن أمرهم في جنوبيه ، وهكذا سيطروا على رقعة من العالم الإسلامي هي أكبر رقعة في عصرهم ، فقد امتدّ حكمهم من البحر الأطلسي إلى بلاد الشام المتاخمة للعراق ، إلى الجزيرة العربية وأراضيها الواسعة الشاسعة ، وكذلك تكونت دولة كبيرة ، لعل دولة بني العباس لم تكن أوسع سلطاناً منها إلا في عصور محدودة .

أدوار تطوّر الدولة الفاطمية :

امتد حكم الدولة الفاطمية في العالم الإسلامي نحواً من مئتين وسبعين عاماً منذ أول تأسيسها في المغرب إلى تاريخ انقراضها ، من هذا العدد من السنين كان نحو من مئة وخمسة عشر عاماً يعتبر عصر العز والقوة للدولة الفاطمية ، وتلا ذلك نحو من سبعين عاماً كانت الدولة الفاطمية على ضعف سياسي ولكن مع حضارة وصلت إلى ذروتها ، ثم أتت خمسة وثمانون عاماً تدهورت الأمور فيها وآلت إلى انقراض تلك الدولة .

ينبغي لنا قبل الدخول في عرض هذه المراحل ، أن نذكر ما هي صفات العصر الفاطمي إجمالاً ، فعهد الطويل الذي امتدّ أكثر من قرنين

ونصف ، ترك أثراً كبيراً في مصر وفي العالم الإسلامي ، فما هي صفته ؟
سنتكلم عن الحالة والمزايا العامة للدولة الفاطمية ، في مصر خاصة ، وعهد
الفاطميين في مصر يظهر على الشكل الآتي إجمالاً :

أولاً - تتجلى فيه مظاهر الأبهة والعظمة ، فالمظاهر هي السائدة فيه
والمال الكثير والفخامة في كل شأنه .

ثانياً - الحكم متسامح في ظاهره مع الشعب ، فللشعب أن يقوم بأعماله
بحرية في الإجمال ، وأن يعتقد ما يشاء بحرية ، إلا في أوقات معينة ،
سنبحث بها بعد هذا ، والشعب أيضاً على الإجمال غني في بعض طبقاته ،
يعيش في مجبوحة .

ثالثاً - العمران كثير ووسائله كثيرة والدار فخمة ، تصل إلى إحدى
عشرة طبقة ، لكن الممتلكين لهذه الدور إنما هم الخلفاء ، لا أفراد الشعب ،
والشعب إنما يمتلك داره ودكاكينه وحوانите ومصانعه .

رابعاً - العلم منتشر انتشاراً كبيراً ، وللعلم دوره ، وهو يدرس في
المساجد أيضاً ، ويلقن في قصر الخليفة نفسه ، لكن هذا العلم هو علم فاطمي
لغاية فاطمية ، والقصد منه الدعوة الإسماعيلية ، ونشر تلك الدعوة . ومع
ذلك فإن دور العلم هذه وتلك الدعوة لم تكن ناجحة كما كان يأمل الخلفاء
الفاطميون ؛ أما الشعب فتمسك بسنيته لا يحيد عنها ، بل هو يستخدم دور
العلم وحلقات الدراسة لنشر فكرته السنية ، وللتغلب على الفكرة
الإسماعيلية ، ويرى الخلفاء ذلك ، فتثور ثائرتهم ، لكنهم لا يستطيعون أن
يفعلوا شيئاً كبيراً .

خامساً - ترتيب دقيق في أنظمة الدولة وفي دواوينها ، وتسلسل في طبقات

الموظفين ، وقوانين تطبق بالشدة أو بالتسامح ، لكنها تطبق ويمكن أن تقول إجمالاً : إن العدل كان سائداً في المملكة .



الوضع العام تحت الحكم الفاطمي :

هذه الصفات تنبئنا عن صفة عامة أساسية تنطبق على العهد الفاطمي وهي أن هذا العصر عصر حضارة وتنظيم ، كل شيء فيه منتظم على قدر الأبهة والحضارة والبنيان والعمران كل ذلك سائر سيرته ، وطبيعي مع هذا أن يستمر الحكم الفاطمي على ضعفه الأساسي من حيث الأصل . والواقع أن الحكم ضعيف حقاً ، لأنه حكم طبقة ليست من الشعب ، فالفاطميون مهما كان نسبهم لم يكونوا من منبت مصري ، بل هم لم يعينوا المصريين في أعمال الدولة الكبرى ، فقد كانوا لا يعينون في المراكز الأساسية إلا من كان على مذهبهم ، والمصريون من أهل السنة ، غير أن الفاطميين تساهلوا مع المسيحيين واليهود الذين لا يخشون شرهم فأسلموهم المراكز ، وكان من اليسير عليهم أن ينتزعوها منهم متى يشاءون . نعم إن المسيحيين واليهود من الشعب المصري ، إلا أنهم كانوا أقلية . فالضعف إذاً في الحكم الفاطمي هو أنه لم يحكم عن طريق الكثرة الشعبية ، عدل هذا الضعف وخفف أثره ذلك التنظيم الإداري في الحكم ، والنمو الاقتصادي الذي أخذ ينعم به معظم السكان من طبقة المثريين والمتوسطين .

الجيش الفاطمي :

استطاع الفاطميون أن يسندوا حكمهم سندا قويا من الناحية

العسكرية فقد كان جيشهم قوياً أيضاً ، ولم يسمح للجيش بالتدخل في شؤون الحكم كما كان الأمر عند العباسيين ، والسبب في ذلك هو ما ذكر من أن الفاطميين اعتمدوا في مصر أول الأمر على المغاربة والبربر الذين أتوا بهم من المغرب ، لكنهم وضعوا إلى جانب ذلك الجيش جيشاً آخر مكوناً من الأتراك والأكراد والسودان ، فكان هذا الجيش أو الحرس يقف أمام جيش المغاربة ، وكان المستولي على الأمر في عهد الفاطميين يستطيع أن يحكم بين هاتين الطائفتين من الجيش ، ويوازن بينهما ، فلا تتغلب إحداها على الأخرى .



فأصول العهد الفاطمي إذاً تنحصر برقيّ في الحضارة ، واقتصاد مزدهر ، وترتيب وتنظيم في القوانين ، وجيش لا يستطيع أن يلعب دوره في توجيه الخليفة أو السيطرة عليه .

أما تدهور الحكم الفاطمي ، فقد نتج أولاً من الفاطميين أنفسهم كما سنرى ، ثم نتج من ضعف أثر الخلافة الفاطمية في خارج مصر ، ثم أتى أخيراً من أن الخلفاء الفاطميين أنفسمهم أمسوا في عصر من العصور أولاداً صغاراً لا يعرفون التصرف ، فيقعون تحت نفوذ أشخاص طامعين طامعين .



عهد سلطة الخلفاء الفاطميين :

نتقل الآن إلى العهد الأول للخلفاء الفاطميين في مصر ، وهو عهد

سلطة الخلفاء . أول هؤلاء الخلفاء المعز لدين الله ، وثانيهم ابنه العزيز نزار وثالثهم الحاكم بأمر الله . إن الذي أسس الدولة الفاطمية على الأسس التي ذكرناها ، وأعطها صفاتها التي رأيناها إنما هو العزيز . فهذا رجل يشبه أبا جعفر المنصور في الدور الذي لعبه وهو الذي أرسى أسس الدولة الفاطمية ، وعيّن خط سيرها ، وإليك السياسة التي اتبعها في ذلك نلخصها بما يلي :

أعمال العزيز التنظيمية :

شكل الوزارة على أسس قوية ، وجعل الدواوين مرتبة ترتيباً متقناً ، وانتخب وزراء أقوياء في ترتيبهم ونظامهم وفكرهم لكنهم ضعفاء أمامه ، وقد اختارهم من اليهود والنصارى كابن كيلس^(١) وعيسى بن نسطوريوس^(٢) الخ ، ثم إنه وضع أصول الأبهة والمظاهر الفخمة للخلافة ، فحاط الخليفة بهالة من المظاهر الطنانة ، وجعل الناس ينظرون إليه نظرتهم لعزيز مصر ، ثم إنه نظر في جيشه وحرسه فوجده متألفاً من المغاربة البربر على الأكثر ، فخشي أن يتغلب هؤلاء المغاربة على الحكم والخليفة ، وهو قد بدّل شكل الحكم عما كان عليه في المغرب ، وأراد أن يمنع حدوث أي خطر قد يصدر من المغاربة في المستقبل ، فاستخدم في الوقت نفسه جيشاً من الترك والأكراد والسودان ، واعتمد على هذا الجيش بصفة خاصة ، فعهد إلى قواده بولاية الولايات ، فكان من ذلك أن اضطرب حال المغاربة ، ووقعت بينهم وبين الأتراك والأكراد الواقعة ، إلا أن هذه الواقعة - كما رأينا - كانت في مصلحة الحكم إجمالاً ، خلافاً لما يقوله المؤرخون ، لأنها

(١) هو يعقوب بن يوسف ... بن كلس اليهودي الأصل تولى مرتين ٣٦٥ - ٣٨١ هـ - المنقح .

(٢) عيسى بن نسطوريوس المسيحي ، تولى ٣٨٥ - ٣٨٦ هـ - المنقح .

منعت كلاً من الطرفين من أن يستبد بالحكم ، ولا ريب أن الفتنة بينهما كان لها أثر سيئ على الشعب في العهد الفاطمي ، لكن هذا الأثر السيئ هو الذي سبّب نقص^(١) الحكم الفاطمي ، فأسباب نقص ذلك الحكم يأتي من جهة أخرى ، أما الوسيلة التي وضعها العزيز لدوام الحكم في الخلافة الفاطمية فهي أنه عرف كيف يستخدم سلاحين مهمين ، وهما السيف والمال ، فهيبة الخليفة الفاطمي كانت مع السيف ، إلا أنه لم يكن يضطر كثيراً إلى استعمال السيف ، فالذهب الكثير كان يطلق هنا وهناك ، فيخضع الناس ويمشون راغبين .

سياسة العزيز الدينية :

أراد العزيز أن يجعل الإسماعيلية هي المذهب الأساسي الرسمي في مصر ، فاستبعد كل من لم يأخذ بالإسماعيلية ، وقرر سبّ الصحابة ونشر الدعوة الإسماعيلية ، واستطاع بمساعدة جوهر القائد أن يفتح قسماً كبيراً من الدولة الإسلامية ، فيصل حكمه حتى المؤصل ، ويدعى له فيها مرة ، ويسري حكمه على سورية بأجمعها ، وعلى الحجاز ، ناهيك عن شمالي إفريقيا . وزبدة القول إنه هو الذي وضع أسس الحكم الفاطمي في مصر .



الحاكم بأمر الله : أعماله

والخليفة الذي أتى بعده ، وهو ابنه الحاكم بأمر الله ، سار على طريقة والده في أول الأمر ، وذلك في تقوية جهاز الدولة وتثبيت الأمور ، بل

(١) القصد من هذه الكلمة (قصور الحكم الفاطمي عن إكمال وضعه العام) - المنتق

أصلح موقف والده من أهل السنة ، فأظهر ميلاً إليهم ، وتودّد إلى علمائهم ، وأنفق عليهم المال ، وأقام لهم دار العلم^(١) وأجلسهم فيها ، وصار يتبع أوامر الدين بدقة ، بل يغالي في ذلك . مثال ذلك : أنه منع الناس من زراعة العنب حتى لا يستحصلوا منه على الخمر ، ومنع النسوة من الخروج إلى الشارع ... وسار سيرته في ذلك مدة من الزمن ، واضطهد المسيحيين واليهود وخرب بعض كنائسهم ، ككنيسة القيامة في بيت المقدس ، وألزمهم لبس السواد لتمييزوا عن المسلمين ، واضطربهم إلى أن يحملوا في أعناقهم صلباناً كبيرة بوزن كبير قبل أن يدخلوا إلى الحمامات ، وأفرد لهم حمامات يدخلون إليها وحدهم ، فلا يدخلون حمامات المسلمين .

تقلب الحاكم وشدوذه :

ولكن الحاكم كان ذا شخصية متقلّبة كل التقلب ، وهو لا يدري ماذا يفعل ، ويسير مع عاطفته ومع اضطراب مزاجه ، فبعد أن يتسامح مع أهل السنة ، يتتبعهم بشدة ، ويقتل بعضهم ، وبعد أن كان قد التزم بأمر الدين التزاماً متشدداً متزمتاً ، إذا به ينظر إلى نفسه نظرة الألوهية ، ويسمح لأتباعه بأن يذكروا في الجامع الأزهر فضائله ، وأن فيه شيئاً من روح الإله ، يسمح بذلك لدرزي في أول الأمر ، فيتبعه الناس محاولين قتله ، فيختفي ، ويسمح بعد ذلك لحمزة ، فيتبعه الناس أيضاً ، فيلتجئ إلى دار الحاكم . ويبدو الحاكم راضياً عنها ، وعما يقولان ، وقد اتخذ لنفسه في آخر عهده صفة التجديد ومظاهر التأليه ، فأضر هذا الاتجاه بالإسماعيلية ، فقد ثار الشعب على ذلك واضطرب وهاج ، ولا ندري على الضبط ماذا

(١) دار العلم هي المكتبة الملحقة بدار الحكمة - المنقح .

حصل حوالي عام ٤١١هـ ، والذي نعلمه أن الحاكم خرج خارج القاهرة ولم يُعَدُّ واختفى ، ولعل الفاطميين أنفسهم هم الذين دبّروا وسيلة إخفائه وقتله ، فقد أُمست الحالة في آخر عهده لاتطاق .

الوضع العام بعد الحاكم :

وما أن اختفى الحاكم حتى تغيّرت الأمور ، وانتقلت بالنسبة للفاطميين ، وبدأ عهد الانحطاط بقوتهم السياسية . وقد يكون مرّة ذلك إلى أن العاقلين من الفاطميين ومن الوزراء والحريم ، رأوا أن من المصلحة أن تخدم فكرة التّأليه ، وألا يكون على عرش الفاطميين رجل قويّ يفرض إرادته ويؤّله نفسه ؛ فعمدوا إلى اختيار الأولاد الصغار الذين لم يبلغوا الحُلُم ، يوجهونهم وجهتهم كما يريدون . ولعل ذلك الاختيار حصل عفواً فابن الحاكم - وهو الظاهر - كان صغير السن حين توفي والده ، لكن كثرة الخلفاء الصغار الذين تولّوا الحكم أمر يلفت النظر ، ولعله حدث عمداً وليس صدفة . هذا العهد الجديد هو عهد الحريم أولاً ، ثم زال حكم الحريم فأُتي حكم الوزراء ثم زال حكم هؤلاء فأُتي حكم قواد وزراء على صفة الديكتاتورية ، ومع هذا الانحطاط السياسي كانت الحضارة مازالت زاهية قوية في بداية القرن الخامس ، وسنذكر حوادث العهد باختصار .

الفتن والأخطار في دور الانحطاط :

تولى الظاهر ، وكان صغيراً ، فحكمت أخت الحاكم واسمها ست الملك باسم ابن أخيها ، وسيّرت الأمور تسييراً حسناً ، لكنها لم تدم طويلاً على الحكم . ثم خلف الظاهر المستنصر ابنه ، فحكمت أمّه باسمه أيضاً ، ثم زالت أمّه ، وحكم وزراءه وظهر الاضطراب بعد ذلك بين المغاربة والأتراك ، وكثرت الفتن ، وامتدت ؛ ولم يستطع الخليفة أن يقف أمام هذه الفتن ،

وزالت هيئته ، ولم يجد حلاً لهذه المشكلة الطارئة التي لم يكن وزراؤه قادرين على حلها ، إلا أن يستدعي ديكتاتوراً يقوم بالحكم ، ذلك الديكتاتور هو بدر الجمالي ، وأصله أرمني أسلم ، وكان يحكم في فلسطين ، وكان ذا قوة وشكينة ومعرفة ؛ فسلمه المستنصر قيادة الجيش والوزارة ، فحكم حكماً شديداً صالحاً ، وأعاد هيبة الخلافة ، لكنه لم يستطع أن يقف أمام تيار خارجي كان يهدد الدولة الفاطمية ، ذلك أن الأتراك السلاجقة أخذوا يدخلون إلى العراق ، ومن العراق إلى بلاد الشام ، وأخذ حكمهم في بلاد الشام ينتقل من مدينة إلى مدينة ، فينسحب الفاطميون أمامه . هذا وقد بدا إلى جانبهم تيار آخر أخذ ينتشر ويتقدم ، وهو تيار الصليبيين ، فهؤلاء تقدموا في ساحل سورية واستولوا على بيت المقدس نفسه ولم يبق في يد الخليفة الفاطمي إلا عسقلان ومدينة أخرى .

إصلاح بدر الجمالي وحضارة الفاطميين :

سوى بدر الجمالي الحالة الداخلية في مصر ، وأصلح شأن الأمور المالية ، وقويت الحضارة قوة هائلة ، فوصلت إلى الذروة في عهد المستنصر ، ودام عهد المستنصر أمداً طويلاً . ولنا في وصف ناصر خسرو^(١) في رحلته إلى مصر دلائل واسعة على قوة تلك الحضارة . ينبغي أن ننبّه إلى أن ناصر خسرو يصف لنا الفاطميين بمديح كبير ، ولعله مبالغ في وصفه ، ولعله وهو على مذهبهم أو شبهه دعا لهم دعوة كبيرة ، ونحن هنا نورد خلاصة عن وصفه لذلك العهد ، يقول ناصر خسرو : « إن في قصر الخليفة المستنصر ثلاثين ألف شخص يخدمون ، وإن للمستنصر على النيل إحدى وعشرين سفينة تنتظره لتنقلاته على النيل ، وكل واحدة منها طولها خمسون ذراعاً

(١) راجع المقرئزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار عن كنوز الفاطميين - المنقح .

وعرضها عشرون ، ويملك الخليفة عشرين ألف دكان وثمانية آلاف بيت يؤجرها . أما الشعب ففني ، والدليل على غنائه أنه كان في القاهرة وحدها خمسون ألف بهيمة مسرحية تكرر في التنقلات في أنحاء البلد .. » يظهر لنا من كل هذا أن حالة الرخاء^(١) كانت سائدة في عهد المستنصر ، ولو أن الحالة السياسية لم تكن متناسبة مع المستوى الحضاري .

الدولة بعد المستنصر :

استمرت الخلافة الفاطمية يحكمها ديكتاتور ، فبعد بدر الجمالي حكم ابنه الملك الأفضل ، وهو الذي عيّن خليفة بعد المستنصر وهو المستعلي أخذه من صغار أبناء المستنصر ، وكان في ذلك سبب انشقاق في الإسماعيلية نفسها ، إذ انقسمت إلى مستعلية ونزارية . كان نزار الابن الأكبر للمستنصر ، استبعده الملك الأفضل ، بسبب خلاف وقع بينها في عهد المستنصر ، ووضع بذلك حجر العثار في سبيل تقدم تلك الدولة . ثم أتى خليفة قوي لم يخول أحداً أن يلعب دوراً إلى جانبه ، وهو الأمر بأحكام الله ، قتل الملك الأفضل لينفرد بالسلطة ، إلا أنه كان سيئ الإدارة ، فلم ينفع بشيء . عادت الخلافة الفاطمية بعده تستعين بالوزراء والقواد ، فدخل مع الفائز رجل اسمه الملك الصالح وأصل اسمه طلائع بن رزّيك ، ولم يرق إلى درجة بدر الجمالي ، إلا أنه عمل ما في وسعه وجهده ، وواجهته مشاكل ، منها مجاعات كثيرة سببها انخفاض مستوى النيل ، فصار يصادر

(١) من الجدير بالذكر أن نلج إلى الشدة العظمى التي حلت بمصر وبالعالم الإسلامي ؛ والتي استمرت ثماني سنوات بين ٤٤٦ - ٤٥٤ هـ حيث عم القحط والوباء ، وانتشرت المجاعة في جميع الأرجاء حتى أكل الناس القحط والكلاب ، وكان يموت عشرة آلاف شخص كل يوم ، حتى اضطر المستنصر أن يبيع كنوزه ... كان هذا قبل أن يعهد المستنصر إلى بدر الجمالي بالسلطة سنة ٤٦٤ هـ - المنقح .

الأموال ويضع الضرائب فساء حال الشعب ، وتدهورت الحالة الاقتصادية ، واضطرب الحكم .

أتى آخر الخلفاء الفاطميين العاضد وكان صغير السن ، وكان الحريم يتنافس على الحكم مع المتسلطين وأخيراً قتل الملك العادل رزّيك بن طلائع ، ووثب إلى الحكم شاور حاكم قوص . كانت المشاكل في مصر كبيرة ، فالصليبيون بلغوا مصر ، والزنكيون مدّوا أيديهم لينعوا الصليبيين ، وجاءت المجاعات ، فاضطر الخليفة العاضد إلى أن يلجأ سنة ٥٦٣هـ إلى القائد الزنكي شيركوه^(١) ، فعينه وزيراً له ، ومنحه السلطات الواسعة ليضع حداً لسوء النظام ؛ ثم خلفه صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٤هـ فحلّ محلّ شيركوه بعد وفاته . بعد أن مات العاضد تقض صلاح الدين الخلافة الفاطمية ، وقضى على المذهب الإسماعيلي^(٢) ، ووحد بين مصر والشام ، ثم قاتل الصليبيين ، فنجح في طردهم من بيت المقدس^(٣) .



(١) هو عم صلاح الدين الأيوبي وهو من الأكراد - المنقح .

(٢) يرجع إليه الفضل في إعادة السنية مذهباً رسمياً - المنقح .

(٣) هذه الخلاصة عن نهاية العهد الفاطمي غير وافية . يمكن مراجعتها في نشوء الدولة الأيوبية في بحث

آخر - المنقح .

آراء عامة عن عصر الحكم الشيعي

رأينا أن الخلافة العباسية استطاعت أن تخرج من غمرة فوضى الأتراك ، وأن تستعيد سلطانها ثم رأينا أنها عادت مرة أخرى ، فتعرضت لصعوبات جديدة ، وانتهى بها الأمر إلى أن استسلمت إلى الديكتاتورية بعد أن عجزت عن إدارة الأمور . ثم ظهرت دولة بني بويه ، وطفقت عليها ، وظهرت قبل ذلك دولة بني حمدان ، فاستقلت عنها ، وظهرت بعد ذلك دولة الفاطميين ، وأسست حكماً سياسياً دينياً خلافاً جديداً . وهكذا رأينا أن العالم الإسلامي قد انضوى في معظمه تحت سلطان الدول الشيعية : بني بويه والقرامطة والحمدانيين والفاطميين والزيديين في جنوبي الجزيرة العربية . كيف حصل كل ذلك ؟ - لاريب أن هناك أسباباً بعيدة : إن آل عليّ - منذ نشأة الدولة الأموية - مازالو يبحثون عن طريق العودة إلى الخلافة ، فيثورون المرة تلو المرة ، ويبثون دعائهم في أنحاء العالم الإسلامي ، ويتغلغلون في طبقات الشعب ، لكنهم كانوا يبوؤون بالفشل المرة بعد المرة ، إلا في ناحيتين في جنوبي بحر الخزر مع الزيدية مدة من الزمن لم تطل كثيراً ، وفي مراكش مع الأدارسة . هاتان منطقتان ضعيفتان ، لم يتغلغل فيها حكم بني العباس . لجأ إليهما آل عليّ ، فاستطاعوا أن يكونوا حكماً مستقلاً فيها . وعلى ذلك فإن كان ثمة أمل أمام آل عليّ ، فهو أن يلجؤوا إلى مناطق بعيدة وأن يكونوا دولاً فيها ، ثم يرددوا على الدولة العباسية ، فيقضوا عليها ، إن أمكنهم ذلك . وهذا ما فعلوه بالذات ، بعد أن أخفقت حركة الإمامة الزيدية ، حلّوا في بلاد الديلم في جنوبي بحر

الجزر ، ومكّنوا لأنفسهم في هذه المنطقة ، فاستمروا على نشر دعوتهم فيها ثم كونوا بها دولة البويهيين ، وساروا منها إلى بغداد . لجأ المتشيعون أيضاً إلى أقصى المغرب في إفريقية ، فكوّنوا دولة الفاطميين العبيدية ، ومنها زحفوا إلى قلب البلاد العربية . وهكذا كان زحفهم من جهتين ، إلا أن الاتفاق بين الجهتين لم يكن تاماً ، والمذهب مختلف بينهما ، فأحدهما إسماعيلية لم تقم على سواعد آل عليّ أنفسهم وهي دولة العبيديين الفاطميين ، والأخرى زيدية ، كانت نواة دولة بني بويه . امتدت دولة الحمدانيين المتشيعية من شمالي أراضى الخلافة العباسية ، فاستقلت عن تلك الخلافة في الموصل وحلب . وعلى هذا النحو استطاع الشيعة هذه المرة أن يحكموا بلاد الإسلام ، ماهو السبب الذي مكن لهم أن يصلوا إلى هذه النتيجة ؟ .

إن من أسباب نجاحهم حسن اختيار الاستراتيجية ، إن صحّ هذا التعبير ، فهم كما رأينا زحفوا من مناطق نائية إلى وسط الدولة ، لكن هذا الزحف لا يكون موفقاً إلا إذا كانت الأسباب مهيئة له ، فكيف كانت التهيئة ؟ قام الشيعة بدعوة كبيرة في العالم الإسلامي ماقترت لحظة واحدة منذ بدأ العصر الأموي ، وامتدت هذه الدعوة في كل ناحية : في الأفكار والكتب والسياسة والاقتصاد وفي كل شيء ، وهذه الدعوة كانت منظمة غاية التنظيم ، اعتمدت بصفة خاصة على الفلسفة ، وكان لهذا الاعتماد على الفلسفة أثره الكبير ، فهي حاربت الفكرة السنية من خلال الفلسفة ، وحاربتها أولاً عن طريق الاعتزال ؛ ولئن لم يكن المعتزلة أنفسهم شيعة محضاً ، إذ كانوا أكبر من ذلك كانوا مدافعين إجمالاً عن الإسلام ، فإن الشيعة مالاّتهم ، وسارت مع الاعتزال ودفعته في عهد الدولة الأموية ، وفي أول عهد الدولة العباسية ، ولما لم يدعن الاعتزال لها كما كان يراد منه ، انتقلت منه

إلى فلسفة جديدة ، فلسفة تخالف الاعتزال ، وهي الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، والفلسفة الأفلاطونية الحديثة تعتمد على العاطفة أكثر مما تعتمد على العقل كما يريد المعتزلة ، والاعتقاد على العاطفة في الفلسفة الأفلاطونية الحديثة كان ملائماً لروح التشيع ، عاطفة في أصله ، وهو دعوة إلى أهل البيت ، أولئك الذين تلقوا الضربات الشديدة خلال تاريخهم ، فوقع منهم الشهداء في كل مكان . إن هذه العاطفة ليست كل شيء في المذهب الأفلاطوني الحديث فهو يستند إلى المعرفة ، واستمد الشيعة من هذا المذهب طرائقهم في البحث ، فبنوا مذهبهم على أصول في المعرفة ، وعلى ضروب من العاطفة ، فاجتمع لهم بذلك أسلوب فلسفي ديني ، أقاموا عليه دعوتهم ، وهذا الأسلوب قريب من نفوس الناس ، لاسيما منهم الذين أقاموا في العراق منذ قديم الأزمنة قبل الإسلام ، ولم يكونوا عرباً ، فهؤلاء هم بالأصل غنوصيون ، والغنوصية^(١) مذهب فلسفي يعتمد على المعرفة ، والغنوصية باعتبارها على المعرفة وتفسيرها للكون يمكن أن تنضم إلى الأفلاطونية الحديثة ، فتكون كتلة واحدة ، ترأسها فرقة الشيعة المتطرفة ، فجعلت منها أساس مذهبها . هذا المذهب القريب من نفوس الناس ، إذا اجتمعت معه دعوة منظمة دقيقة ، آل أمره إلى النصر . وهكذا أخذ الشيعة يدعون دعوتهم ، وابتدأت الدعوة تنتشر في العالم الإسلامي فساعدت مساعدة كبيرة على التمهيد ، لتظهر الدعوة الشيعية في ميدان السياسة ، وخلاصة القول إن الشيعة استندت على عنصرين قويين : الاستراتيجية الصالحة ، والدعوة الفلسفية الناجحة .

(١) الأستاذ أحمد أمين في فجر الإسلام ص ١٢٧ ذكر هذا التعبير (الغنوصية) والدكتور فيليب جتي (٢ / ٥٢١ و ٥٢٢) ذكره (الغنوصية) وهي عقيدة مذهب المعرفة بالله عند الصوفيين . ينسب المذهب إلى كلمة gnose ومعناها (المعرفة والدراسة) - المنهج .

نعم إن السبب الأساسي الذي أوصل الشيعة إلى النصر السياسي هو ضعف الدولة العباسية ، لكن ضعفها ليس كل شيء في الميدان ، فما كان بإمكان الشيعة أن تتغلب عليها إن لم تكن دعوتها قد صارت وعمت وتمكنت في نفوس الناس .

رد الفعل عند أهل السنة :

بعد أن تمّ للشيعة هذا الانتصار على السنية ، ماذا فعل أهل السنة ؟ هل قبلوا بالأمر الواقع ؟- إنهم قبلوا بذلك من وجهة النظر السياسية ، فهم قد خضعوا للتشيع من أقصى البلاد الإسلامية إلى أقصاها ، لكنهم من الناحية الفكرية والدينية لم يخضعوا له ، بل حاربوه في مهده . والواقع أن الشيعة حينما استولوا على العالم الإسلامي ، هيّؤوا وسائل الدعوة وهي العلم والكتب ، فنشروا ذلك في كل مكان ، وأسسوا دور العلم ووقفوها على العلماء ، وأنفقوا عليها الأموال الضخمة ، وقبلوا في هذه الدور أهل العلم السنيين إلى جانب الشيعة ، وغايتهم من ذلك أن يدخلوا في فكر علماء السنة مذهب التشيع ، لكن هؤلاء عرفوا الخطأ ، وعرفوا ما عليهم أن يفعلوه ، فأخذوا يجادلون الشيعة ، وينتصرون للسنة من الناحية العلمية ، ويكافحون كل فكرة مغالية .

أسلوب أهل السنة في محاربة الشيعة :

ثم رأوا أن خير طريقة لمحاربة التشيع الفلسفي هي ضربه من الناحية الفلسفية ، وكما تعلمون أسس أبو الحسن الأشعري مذهب الكلامي الذي ضرب به المعتزلة ، فوقف الأمر بعض الشيء عند ما وضعه الأشعري ، واستولى الشيعة على الدولة الإسلامية . رأى أتباع الأشعري الفلسفة الشيعية تنتشر ، فنصبوا أنفسهم لضربها بالفلسفة الكلامية المبنية لا على المذهب

الأفلاطوني الحديث العاطفي ، بل على أساس الفكر الفلسفي المنطقي ، على طريقة أرسططاليس ، أي أنهم حاربوا التشيع الأفلاطوني بالأشعرية المنطقية ، والذي حمل لواء هذا الدفاع هو محمد بن الطيب الباقلاني ، (المتوفى سنة ٤٠٢) فهو الذي كان يستعيز الشيعة منه ، وهو الذي وضع نظرية الجوهر الفرد ، تلك النظرية المبنية على المنطق الأرسططاليسي ، والتي ليس من شأننا أن ندخل في تفاصيلها . وعلى هذا النحو وقفت أمام الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، فلسفة منطقية ، وحصل الصراع بين الاثنين ، وكانت الغلبة للفلسفة المنطقية الأشعرية الباقلانية ، ودخلت هذه الأشعرية كل دور العلم التي أنشأها الشيعة ، فنحن نرى في بغداد مثلاً دار العلم لسابور ، وهي مقر أهل السنة ، مع أن رؤساءها من الشيعة ، ونرى دار العلم في حلب لسيف الدولة وأهل السنة هم المستبدون فيها ، ونرى دار العلم في القاهرة وأهل السنة يبثون مذهبهم فيها ، حتى أن مؤسس هذه الدار وهو الحاكم بأمر الله اضطرب لذلك كل الاضطراب ، فأقفل الدار مرة ، وأعادها بأسلوب شيعي فاطمي ، فعاد أهل السنة إليها مرة ثانية ، وأخذوا ينشرون مذهبهم فيها ، ثم إن الفاطميين أعطوها صيغة شيعية ، ووضعوا فيها داعي الدعاة ينشر فيها المذهب ، لكن هذا الأمر لم ينجح أيضاً ، فاضطروا إلى إقفالها ، وأعادوها بعد ذلك في مكان آخر بعيد عن قصرهم ، لئلا تفسد عليهم أمورهم .

حارب المتكلمون إذاً الشيعة بسلاحهم ، فتغلبوا عليهم من الناحية الفلسفية ، أما من الناحية السياسية فلم يستطع الشيعة في شرقي الدولة الإسلامية جعل الدولة شيعية ، وقصر البويهيون - كما رأينا - عن حكم الدولة العباسية حكماً صالحاً ، واضطربوا وضعفوا أمام عنصر جديد سني أتى

من المشرق وهو عنصر السلاجقة ، فقد هيا أهل السنة أنفسهم في شرقي العالم الإسلامي ببعث السنية بين الأتراك السلاجقة على المذهب الأشعري الباقلاني ، وسار هؤلاء إلى بغداد ، فقصوا على حكم البويهيين فيها . أما الفاطميون فقد استطاعوا أن يكونوا خلافة ، لكن هذه الخلافة كانت ذات صفة سياسية فقط ، وما كانت تستطيع أن تفرض مذهبها على الشعب ، فبقي الشعب في طرف وهي في طرف آخر ولم تستطع أن تحكم البلاد التي استولت عليها في سورية ، وجايتها حروب الصليبيين ، فاضطربت أمام ذلك ، وكان أن استولى صلاح الدين الأيوبي على الحكم فيها ، وقرض دولتها ، وأسس السلاجقة المدارس على مذهب الأشعري ، وجعلوها مكان دور العلم ، فهزمت المدارس دور العلم ، كما هزمت السنة التشيع .

هذه هي الخلاصة عن عصر التشيع ، وهو عصر سادت فيه الفكرة الأفلاطونية الحديثة تحت ظل الحكم الشيعي ، إلا أن أهل السنة لم يلقوا سلاحهم فيه ، فأخذوا يناضلون حتى هزموا أصحابه في مدة لم تتجاوز المئة عام .



تكون الثقافة الإسلامية العربية

وثائق الحضارة العربية الإسلامية :

بلغت الحضارة العربية الإسلامية أوجها ، فازدهرت ازدهاراً عظيماً لا مثيل له في العصر العباسي . إن المستوى الحضاري يقاس بالآثار المكتوبة الفكرية (يعني الكتب والتأليف) ، ولو رجعنا إلى مادة الفكر والتأليف لرأينا العرب بلغوا من الدرجات ما لم يبلغ الغرب مثلها إلا في العصر الأخير ، ولنأخذ على ذلك مثلاً يوضح الأمر : هذا عالم من علماء الأندلس عاش في القرن الثامن الهجري ، هذا العالم وجد عند طالب من طلاب العلم كتاباً عليه : المجلد السادس والخمسون من فهرس الكتب ، وليس هذا المجلد الأول والأخير من بين أجزاء الكتاب ، والمجلد مؤلف من نحو أربعمئة ورقة ، أي نحو : ثمانمئة صفحة ، وليس فيه إلا ذكر أسماء الكتب ، مع أسماء المؤلفين ، ونسبهم وألقابهم ، وتاريخ وفاتهم . هذه الطريقة اتبعها حاجي خليفة صاحب « كشف الظنون » في تعداد أسماء الكتب . إذا حصرنا عدد الكتب التي ذكرت في هذا المجلد بلغت أكثر من ستة عشر ألفاً من الأسماء ، ولو فرضنا أن الكتاب يكمل بهذا المجلد ، فتكون الكتب المذكورة في المجلدات جميعها أكثر من مليوني كتاب . ذلك العدد يدل على الكتب التي ألفت حتى القرن الثامن للهجرة ، باللغة العربية ، وهو عدد - كما ترون - ضخم ، ولو قارناه بما يؤلف اليوم في أوروبا لوجدناه يناقس تأليف الغرب في الكمية ، فلو أخذنا من بلاد الغرب عدداً من النفوس يعادل عدد ما كان في بلاد العرب في العصر العباسي ، لوجدنا أن هذا العدد لا يخرج اليوم كل

عام من الكتب العلمية دون الروايات أكثر بكثير مما كان يخرجها العرب .
فالعرب في الماضي كانوا يخرجون حسب هذا الإحصاء أكثر من ألف وخمسة
كتاب كل عام ، فمقابلة ثقافتنا بثقافة الغرب من ناحية الإنتاج ، تدلنا على
درجة عظيمة ليس لأحد أن يمتن حق العرب بها .

تراكم الحضارة العربية الإسلامية من خلال العصور :

هذه النهضة لم تبدأ في العصر العباسي نفسه ، بل كانت جذورها قبل
ذلك ، فقد كانت نامية منذ العصر الأموي ، وعلينا أن ننفي ما يقال عن
ذلك العصر ، من أنه عصر رواية شفوية ، فذلك ليس بصحيح ، وقد كتب
العلم في عهد الرسول ﷺ ، وأذن الرسول ﷺ بكتابه لبعض الصحابة ممن
يستطيعون التمييز بين الوحي وغيره ، ثم كان في عصر الصحابة الأولين
صحف للعلم يتداولها الناس ، منها صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص ،
وهي الصادقة ، وصحيفة في قرابة سيف علي ، وصحيفة جابر الطويلة ،
وصحيفة فيها علم الفرائض كتبها زيد بن ثابت الأنصاري ، ثم صار الحديث
يُنقل في الصحف ، حتى إذا أتى عصر الروائيين ، رأينا عدداً كبيراً من
العلماء يؤلفون ، ويجمعون الكتب ، ويتدارسون الصحف ، ويؤلفون في
التاريخ ، ويترجمون من اللغة السريانية إلى اللغة العربية ، حتى إذا انتهى
عصر الأمويين كان هنالك مجاميع كثيرة من الكتب يعرفها الناس ، إلا أنها
مجاميع غير مرتبة ، لم تصنف على أسلوب دقيق ، ومن ثمَّ يصح القول بأن
التصنيف ابتدأ في العصر العباسي ، ومعنى هذا أن تصنيف الكتب على
أسلوب دقيق منظم بدأ في العصر العباسي ، إلا أن الكتابة والتأليف والجمع
حدث قبل العصر العباسي ، وأياً كان الأمر فالحركة في العصر العباسي كانت
قوية بدرجة تذهل الإنسان : فهذه البصرة تؤلف الكتب وتستخرج

الآراء ، وتضع النحو ، وهذه الكوفة تكتب في التاريخ والأدب ، وتؤلف في النحو ، وهذه بغداد تضم خضاً هائلاً من العلماء ، يتكاثرون في المساجد ويكتبون العلم ، حتى إذا وصلنا إلى عصر المأمون ، رأينا معظم المعلمين ينكبون على التأليف ، وعلى إخراج الكتب . . كل ذلك كانت خميرته مهياة في عصر بني أمية ، ثم نضجت تلك الخمرة في العهد العباسي ، وأدت إلى ما أدت إليه .

أصول الثقافة القديمة :

لدرس ثقافة ذلك العصر وتياراته المختلفة ، يجب علينا أن نمهد البحث في وضع البلاد قبل الإسلام : فبلاد الشام والعراق وفارس ومصر كانت مهداً لثقافات كبيرة واسعة ، هنالك مدارس قديمة يعرفها الناس ، كانت تؤلف فيها الكتب وتترجم : اشتهرت منها مدرسة الرُّها ، ونصيبين ، وحرّان ، وفي مصر مدرسة الاسكندرية ، وفي العراق مدارس للصابئة ، وفي فارس مدرسة جُنْدَ يُسابور . كانت هذه المدارس تتفاعل بثقافة يونانية وعلوم دينية مسيحية ؛ وكانت أشهر هذه المدارس الاسكندرية ، وهي مدرسة للطب وعلوم اليونان . وقد أحدثت هذه المدرسة مذهباً فلسفياً جديداً دعي بالمذهب الأفلاطوني الحديث^(١) ، استفاد منه العرب كثيراً ، وتدارسوه ، وأثّر في ثقافتهم ، وأثّر بصفة خاصة في فرق الباطنية وعند أصحاب التصوّف . أما مدارس سورية فقد نقلت الكتب اليونانية إلى السريانية ، فاطلع علماء العرب والإسلام بواسطتها أولاً على

(١) الاسم الحقيقي لمؤسس المذهب أفلوطين من علماء الإسكندرية . عندما اطلع العرب على فلسفته ظنوه أفلاطون اليوناني القديم ، ثم تعرفوا على الفرق بين فلسفة القديم والحديث ، فاصطلح الباحثون على تسمية الفلسفة الأفلوطينية بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة . المنقح .

آثار اليونان واستفادوا منها في مختلف العلوم ، وقدمت مدرسة جُنْدَ يُسابور عدداً كبيراً من الأطباء للدولة العباسية فترجموا كتب الطب وآلفوا فيها .

بيوت العلم :

كيف استفاد خلفاء بني العباس حتى عصر المأمون من هذه المدارس ، وكيف نشطت في عهودهم حركة التأليف والترجمة ؟ - إنهم فعلوا ذلك بالاتصال بعلماء هذه المدارس ، فقد كانوا يستدعونهم إلى بغداد ، وينفقون عليهم الأموال لترجمة الكتب إلى اللغة العربية ؛ وقد وضع نظام دقيق لهذه الحركة العلمية ، لذلك فإنه ما حلّ عصر المأمون حتى كان قد ظهر في بغداد ما سمي بـ « بيت الحكمة » . كان أُسس نواة هذا البيت في قصر الخلافة نفسه منذ عهد هرون الرشيد ، لكنه تكامل حتى أصبح بيت الحكمة وصار يجمع بيوتاً كثيرة تترجم فيها الكتب وتؤلف ، وتقام بها المراسد وتستخدم فيها أساليب التنجيم ، هذا البيت توسّع ، وأخذ شكله النهائي في عصر الخليفة المأمون ، فقد وضع عليه الحفّاظ ، وأتحفه بالترجمين والعلماء ، واستطاع الخليفة أن يجعل من هذا البيت كعبة العلماء ، وأن ينظّمه التنظيم الدقيق ؛ وقد عُرف هذا البيت باسم المأمون ، واشتهر به .

اقتناء الكتب اليونانية :

إذا بحثنا في تنظيم بيت الحكمة من ناحية الترجمة ، أدركنا كيف تمّ للعرب ذلك الشأن من المعرفة والعلم . أرسل المأمون قبل كل شيء بعثة إلى بلاد الروم لتحضر له كتب اليونان المخزونة ، وكان الروم آنذاك لا يُعنون بها ، وقد أقفلوا عليها الأقفال ، فاستخرجتها هذه البعثة وعادت بها إلى بيت الحكمة ، وكان المأمون قبل ذلك قد طلب عدداً من الكتب من بلاد

الروم أرسلت إليه ، ثم إنه هادن ملك قبرص على أن يعطيه خزانة من الكتب كانت لديه .

حركة الترجمة :

نظم المأمون عمل الترجمة ، فوضع عليها أميناً وهو يوحنا بن البطريق ، ووضع بين يديه الكتاب الحذاق العارفين بالسريانية واليونانية ، وأحضر كبار المترجمين ، فكان الكتاب يترجمون الترجمة الأولى إلى السريانية أو العربية ، ويحرّر الترجمة المترجمون أنفسهم من أصحاب الاختصاص في مادة الكتاب ؛ لكن الأمر ما كان يقتصر على ذلك ، فإلى جانب هؤلاء وهؤلاء ، وضع مصحح للغة العربية وهو حنين بن إسحاق ، ينظر في النسخة الأخيرة ، من حيث اللغة ، وكان عالماً باللغة العربية ، تلقّاها في البصرة عن كبار علمائها . على هذا النحو خرجت الكتب تتوالى مترجمة مصحّحة في نسخها الأخيرة ، وكان قسم منها قد ترجم في عهد الرشيد ، فأعيدت ترجمته لتكون أصحّ وأدقّ ، ولتكون مبنية على نسخ أصيلة قديمة وردت من بلاد الروم .

ترجمت إلى العربية كتب أرسططاليس ، ومعظمها في الفلسفة والمنطق ، وكتب أقليدس في الرياضيات ، وكتب بطليموس في الكواكب والنجوم والفلك ، وكتب جالينوس وإيبقراط في الطب ، كما ترجم من اللغات الفارسية والهندية عدد من الكتب في عصر الرشيد ، وترجم من كتب التاريخ الفارسية عدد آخر في عصر المأمون .

تمازج الثقافات :

زخرت خزائن بيت الحكمة بالكتب المترجمة ، وأقبل الناس على قراءة هذه الكتب والتمعن فيها ، فأدّى كل ذلك إلى حركة فكرية جديدة في

التأليف والنشر ، هذه الحركة أنتجت ثقافة واسعة مبنية على القديم والحديث . منذ اطلع العرب المسلمون على الثقافات القديمة حصل ما يسمى بتمازج الثقافات ، وقد أنتجت هذه الحركة الثقافة العربية الإسلامية الحديثة ، أخذ بها المثقفون الجدد ؛ ولكن لا يعني هذا أن كل الناس أقبلوا عليها بدرجة واحدة وبمستوى واحد .

يقال : إن هذه الكتب ، وتلك الدراسات آلت في آخر عصر المأمون إلى حركة تعصب من المأمون نحو الفكر ، ونحو المنطق ، وتمثلت تلك الحركة بالقول بخلق القرآن . الواقع أن المأمون وقف في هذه الحركة موقفاً متعصباً ، متمزماً متشدداً ، مع أنه كان عليه أن يترك للناس حريتهم ، في التفكير . لقد حصلت في ذلك العصر محنة الفكر والعلم ، أتت على يد رجل هو قائد العلم والفكر ، هو المأمون الذي أحدث تلك النهضة الهائلة ، وذلك من غرائب الحركات الفكرية (التحول من الشيء إلى نقيضه) .

وبعد فيجب علينا ألا نبالغ في أثر ذلك الخضم من الأفكار التي تمازجت بعضها مع بعض من فارسية ويونانية وهندية ويهودية ونصرانية ، فإن أثر هذه الأفكار المتمازجة لم يتجاوز حداً معيناً ، مهما كانت سعة تلك الحدود ، ولننظر في أثر كل من الثقافات التي ذكرناها ، ولنبدأ بالثقافة الفارسية .

أثر الثقافة الفارسية :

لا ريب أن الثقافة الفارسية أثرت في الأدب العربي ، وطبعته ببعض الطابع - فالأدب - لا سيما منه الرسائل - كان في أيدي الوزراء والكتّاب ، فكان معظمهم من الفرس ، وتأثر الشعر أيضاً بالأدب الفارسية القديمة ، وبالعقيدة الفارسية القديمة ، فظهر فيه في القرن الثاني أشعار سبكت على

الطريقة المزدكية الفارسية ، وأشعار تصوّف وزهد قرضت على الطريقة المانوية ؛ وظهرت في الكتابات الأدبية قصص أنشئت على النحو الفارسي ، ذكرت فيها حكم فارسية أيضا . ظهر أثر آخر للفرس في سياسة الملك وتاريخ الأمم ، فقد اطلع خلفاء بني العباس على تاريخ ملوك الفرس وتنظيياتهم ، واتبعوا بعضها .

أثر الثقافة الهندية :

أما الثقافة الهندية ، فقد أثرت أيضاً في الثقافة العربية عن طريق علوم الرياضة والطب ، وخاصة في علم النجوم . ترجم للمنصور منها كتاب (السند هند) . أثرت الثقافة الهندية في الفكرة الدينية ، وطبعت بطابعها بعض المذاهب : من حيث الأخذ بفكرة الحلول والتناسخ أي بأن الأرواح تنتقل من جسم لآخر ، ومن حيث الزهد بهذه الحياة على الطريقة الهندية التنسكية .

أثر الثقافة اليونانية :

أما أثر الثقافة اليونانية ، فواسع في الفلسفة والمنطق خاصة ، أخذ العرب فلسفة اليونان من كتبها ، حتى أن عدداً من كتب اليونان القديمة لا يوجد الآن إلا باللغة العربية أو مترجم عن العربية . دخل منطق اليونان في الفكر العربي الإسلامي ، وتجلّى به ، وناقش الناس المسائل على طريقة المنطق اليوناني ، وقد ذكرنا أن الأفلاطونية الحديثة أثرت في حركة تصوّف ، ولا سيما بفكرة الفيض والإشراق التي قالت بها . لليونان أثر آخر كبير في علم الطب والهندسة والميكانيك (علم الحيل) والكيمياء . . . وما أشبه ذلك .

أثر الثقافة اليهودية :

أما الثقافة اليهودية ، فقد أثرت بإيراد القصص التوراتية وتفسير التلمود ، فأقبل المفسرون على هذه الأخبار ، علّها تبين لهم تفسير قصص القرآن . وبالعكس بعضهم في ذلك ، فنشأت تفاسير دخلت فيها نزعات يهودية ، وأقاصيص إسرائيلية . فكان أن تأثر بعض المسلمين ببعض آراء اليهود عن صفات الله ، فأثاروا فكرة التشبيه والبحث بالصفات ، وصار المعتزلة وغير المعتزلة يبحثون في ذلك ، حتى انتقل الأمر إلى القول بخلق القرآن .

أثر الثقافة المسيحية :

وفي ميدان الثقافة المسيحية ، نرى تأثيراً في الأدب وفي الشعر ، فقد كان شعراء النصارى في العهد الأموي قد لعبوا دوراً مهماً في الشعر ، وامتد أثرهم إلى العصر العباسي ، فظهر أثر الرهينة والأديرة في أقوال بعض الشعراء وفي اتجاهات بعض المتصوفة .



هذه هي خلاصة آثار الثقافة الأجنبية في الثقافة العربية الإسلامية ؛ ولو أردنا الآن أن نقارن بين هذا الأثر وبين التراث الإسلامي العربي في مجمله ، لوجدنا أن المزيج الذي حصل ليس كما يدعيه المغرضون من أنه ثقافة صولها غريبة أجنبية دون جديد وابتكار . إن الأمر على عكس ذلك ، لكفة الراجحة في هذا المزيج هي الثقافة الإسلامية من جهة والثقافة لعربية من جهة أخرى : ففي الفقه وعلوم الحديث لا شك أن الثقافة إسلامية هي الأصل ، ولو أنه حصل استفادة من مناهج الثقافات

الأخرى ، أما الشعر والأدب العربي فلم يتقبّل إلا ما يوافق مزاجه ، واستبعد كل شيء يخالف ذلك المزاج ، ويتعارض مع العقلية الإسلامية ؛ فلم يأخذ مثلاً بأدب اليونان الأسطوري ، لأنه يخالف العقلية العربية .

نعم إن أثر الثقافات الأجنبية ظهر في علوم الأوائل كالطب والرياضة والفيزياء والكيمياء ، ولكن أية أمة لا تنقل هذه العلوم عن غيرها ؟ - إن كل أمة ملزمة بأن تنقل عن سبقها تجاربهم في هذا الميدان ، وكل أمة تختلف عن غيرها في أنها تحدث أو لا تحدث الجديد المبتكر ؛ والجديد المبتكر في العلم العربي الإسلامي كثير ، كما سنرى في أبحاثنا التالية . ولنأخذ منذ الآن مثلاً سريعاً عن المزج الذي حصل ، ونجد هذا المثل مبيّناً في علم الكلام ، فصبغة الامتزاج بين الثقافات المختلفة العربية والإسلامية والأجنبية تظهر بصفة خاصة فيه ، وهذا ما يثبته أستاذنا المرحوم أحمد أمين في ضحى الإسلام . وبعد فعمل الكلام وإن أخذ من الثقافات الأجنبية ، فقد كان في مزاجه وروحه إسلامياً عربياً ، لا نجد فيه أثراً للترجمة ، ولا نجد فيه أثراً لعناصر المزيج الأولي ، بل هي تتحد^(١) فيه بمزيج جديد وبخلق مبتكر ، امتزجت به أصول الفكر الإسلامي العربي الخالص الذي أنتجه العصر الأموي ، فظهر في تأليف واصل بن عطاء (توفي في أواخر العصر الأموي أو في أوائل العصر العباسي مباشرة) ثم امتزجت بتلك الثقافات الواسعة ، لكنها ظلت بالرغم من ذلك ذات لون إسلامي عربي واضح ، بل كانت أساساً لفلسفة إسلامية مبتكرة ؛ وفي هذا دليل على ثقافتنا الناتجة عن المزيج ، ثقافة خالصة من شوائب الاختلاط غير المستقيم ، هي ثقافة لها طابعها ومزاجها الخاص .

(١) يمكن أن نقول في هذا الصدد إن العرب المسلمين بعدما اطلعوا على الثقافات القديمة وفهموها وأدركوها ، همضوها همضاً جيداً ، فأعطوا نتاجاً ملوناً ، لكنه نتاج عربي إسلامي أصيل - المنقح .

أثر العرب في العلم

سندّل في هذا البحث على الدعوى التي أوجزنا القول فيها سابقاً من أن ثقافتنا القديمة ثقافة مبتكرة . وليس أصلح في السبيل الذي نحن فيه من أن نبين أثر العرب في التراث العلمي الإنساني . ونحن حين نقول العرب ، لا نقصد العرب عنصراً صافياً ، بل كل من كتب باللغة العربية ، ففي رأينا أن كل من تكلم بالعربية وامتزج بالتاريخ العربي كان عربياً .

مضى عهد على الأوربيين كانوا ينظرون فيه إلى العرب نظرهم إلى شعب غير ذي حضارة ، وكانوا يدعون أن العرب لم يأتوا في حضارتهم بالشيء الجديد ، بل ساروا على طريقة اليونان والأمم السابقة ، نقلوا حضارتها دون أن يدخلوا فيها جديداً ، وهذا الرأي بني على التعصب والقصد الاستعماري ، فالتعصب ضد الإسلام والعربية كان يدعو الغربيين في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين إلى أن يمتهنوا حق العرب في الإنتاج العلمي ؛ وكان الاستعمار يدفعهم في الوقت نفسه إلى أن لا يعترفوا بأن للعرب قيمة علمية حضارية ؛ لأن اعترافهم بهذه القيمة يجعل تدخلهم في أراضيهم تدخلاً لا معنى له ، ويبطل دعواهم من أنهم جاؤوا إلى بلاد العرب لإبلاغ الحضارة إليهم ، ولتعليمهم . من الواضح أنه إذا كان العرب متحضرين ، ولهم أثر قديم في العلم ، فإنهم يكونون بالتالي بغنى عن سادة يحكمونهم ليرفعوا مستواهم .

على كل فقد انقضى عهد الاستعمار ، ونحن اليوم في عصر أخذ الغربيون يعترفون بمكانة العرب وبمكانة الحضارة العربية الإسلامية ، وأخذوا يقرّون

بالجديد الذي أحدثته تلك الحضارة ؛ وإن استشهدنا بأقوالهم خير دليل لنا ، سنبدأ بإيراد جملة مختصرة عن أثر العرب في العلم والتقدم الفكري .

إن أكبر أثر للحضارة العربية الإسلامية العلمية هو في الطب والفلك والرياضيات والجغرافيا والتاريخ ، إلى جانب آثارهم الدينية غير الدنيوية . إن الذي دفع المسلمين إلى العلم ، والأخذ بالعلم ، إنما هو القرآن الكريم ، دفعهم إلى المشاهدة ، وإلى النظر في هذا الكون ، وإلى استعمال العقل ، وإلى فهم خفايا الأشياء ، بثّها الله في هذا الكون ، فالمشاهدة والنظر في القرآن أمران يحضّ عليها في مناسبات عديدة ؛ والمشاهدة إنما هي مفتاح العلم ، ومفتاحه الثاني التجربة ؛ والتجربة أخذ بها العرب ، وعملوا بها ، وأدخلوها في علومهم ، فتهيأت لهم فتوح في العلم عديدة ؛ والإسلام حضّم على دراسة الطب بل إن الرسول - ﷺ - كان يقول الكثير في الطب ، حتى جُمع ما قاله في كتب ، سميت بكتب الطب النبوي ، ومن أحسنها كتاب (الطب النبوي) لابن قيم الجوزية . دعا الإسلام العرب والمسلمين إلى دراسة الحساب فهو أساس لا تتمّ الفرائض إلا به .

بعد هذه المقدمة الموجزة نستطيع أن ندخل في البحث ، فننوّه بكل علم على حدة ، ونبين جوانب الاكتشاف والابتكار الجديد الذي تمّ فيه .

الطب :

عني العرب بالطب عناية فائقة ، وأسسوا له المستشفيات ، وكانت تسمى البيمارستانات ، أسسوها منذ عصر الوليد بن عبد الملك في دمشق ، ثم توسعت توسعاً كبيراً ، وأضفى عليها خلفاء بني العباس أبهة عظيمة . أسس هارون الرشيد البيمارستان الكبير ببغداد ، أسسه على طراز البيمارستانات الفارسية . وكان في البيمارستانات خزائن للأدوية والأشربة .

اختيار مكان المستشفى :

عني المسلمون باختيار الأماكن الصالحة للمستشفيات ، وكانت لهم طرائق عجيبة في ذلك ، فقد ذكر لنا أن عضد الدولة البويهري أراد أن يبني بيارستانا في بغداد ، فانتدب لذلك أبا بكر الرازي ، فبحث الرازي عن مكان يقيم به ذلك المستشفى على الوجه الآتي : أحضر قطعاً من اللحم الفريض ، فألقاها في أماكن مختلفة من بغداد ، ثم رجع إليها بعد أيام ، فاختار المكان الذي لم تفسد قطعة اللحم الملقاة به . تلك هي طريقة صالحة في اختيار الهواء العليل الصافي الصحي .

فحص المتطبيين :

عني العباسيون بأن يكون الأطباء قديرين في طبهم ، ويذكر لنا بهذه المناسبة خبر طريف في طبقات الحكماء لابن القفطي الصفحة ١٣٠ من الطبعة المصرية : « وفي سنة تسع عشرة وثلاثئة ، اتصل بالمقتدر أن رجلاً من الأطباء غلط على رجل فمات ، فأمر بابطيحة^(١) محتسبة بمنع جميع الأطباء إلا من امتحنه سنان [ابن ثابت الحراني ، وكان شيخاً كبيراً من مشايخ الأطباء] وكتب له رقعة بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة ، وأمر سنانا بامتحانهم ، وأن يطلق لكل واحد منهم بما يصلح أن يتصرف فيه من الصناعة ، وبلغ عددهم في الجانبين من بغداد ثمانئة ونيفاً وستين رجلاً ، سوى من استغنى عن امتحانه باشتهاره بالتقدم في الصناعة ، وسوى من كان في خدمة السلطان . . . » .

(١) يبدو معناها في النص وكأنها (تعميم) أو (تحذير) يصدر من المحتسب لمنع التطبيين الدجالين أن يمارسوا مهنة الطب دون الحصول على إذن - للنقح .

المستشفى المتنقل :

امتدت العناية أكثر من ذلك أيضاً ، فهذا علي بن عيسى بن الجراح (وزير المقتدر) يكتب إلى سنان ما يلي (في طبقات ابن القفطي صفحة ١٣٢) قال : « . . . فكرت فيمن بالسواد من أهله ، وإنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبب عليهم ، لخلو السواد من الأطباء ، فتقدم - مد الله في عمرك - بإنفاذ متطبين وخزانة من الأدوية والأشربة ، يطوفون في السواد ، ويسيرون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم ، ويعالجون من فيه ، ثم ينتقلون إلى غيره . ففعل سنان ذلك » .

الصيدلة :

العرب هم أول من أحدث دكاكين لبيع الأدوية التي كانت تسمى بالأقرباذين ، وقد عُنوا بالأدوية ومفردات الطب عناية كبرى ، فهم كانوا يرون أن المعالجة يجب أن تتم على طريقة التداوي الصحيح ، بل كان ابن وافد الأندلسي يعالج الناس علاجاً صحيحاً يشفون به على يديه ؛ فسئل بماذا نجحت صناعتك ؟ فقال : « الذي ميّزني بها وجعل شفاء الناس على يدي أكثر من غيري ، هو أنني إذا أتاني مريض ، ورأيت أن شفاؤه بالغذاء والحمية ، عالجته بالحمية ، وإن وجدت أنه لا يشفى بذلك ، عالجته بالنباتات والأعشاب ، وإن لم تكن معالجته بذلك ، عالجته بالأدوية الكيماوية المركبة » .

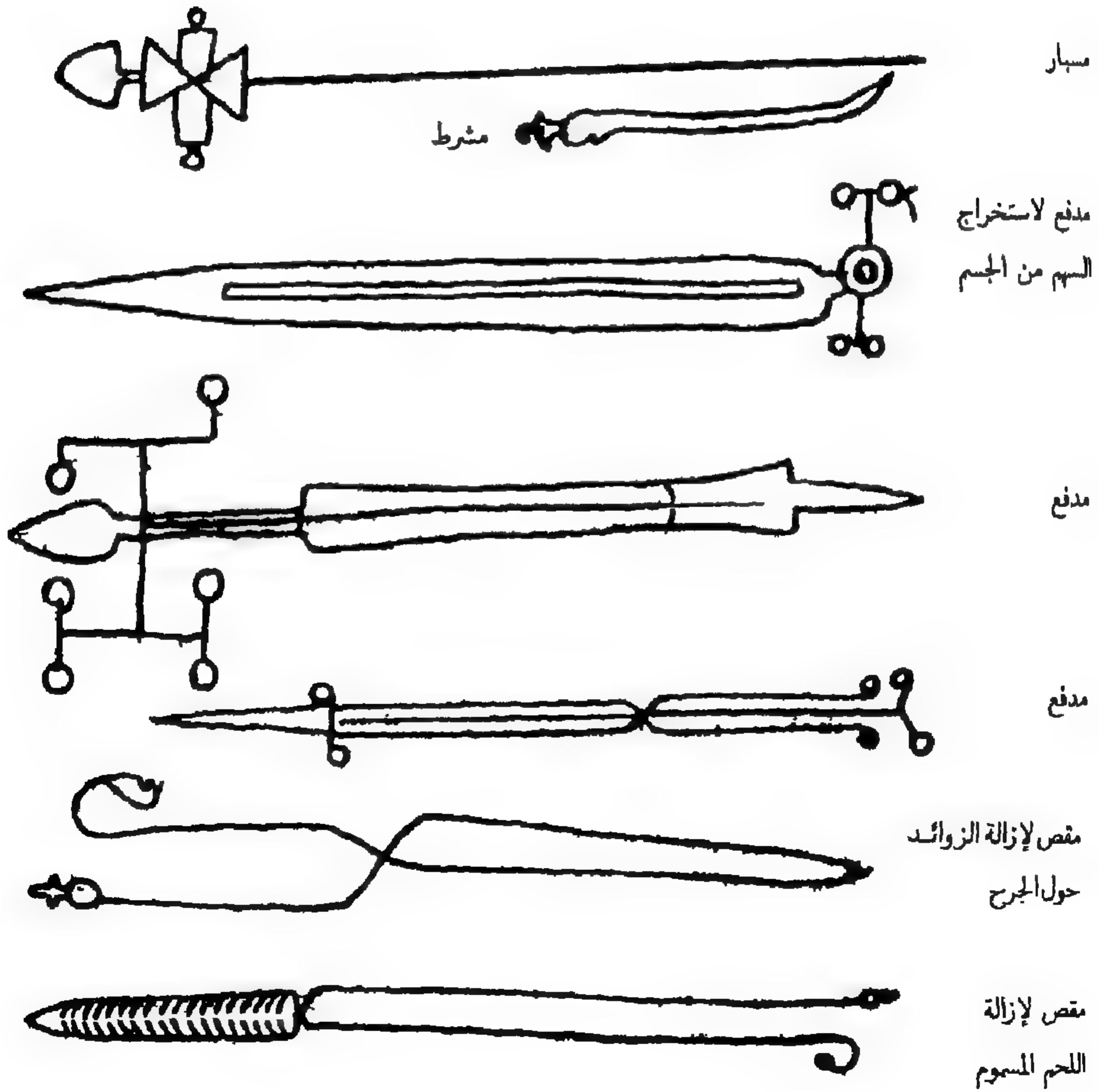
دراسة جسم الإنسان وأهم المكتشفات الطبية عند العرب :

عني العرب أيضاً بمعرفة جسم الإنسان : أي بالتشريح ووصف الأعضاء . كانوا يستعينون على ذلك بتشريح القرود ، لأن تشريح الجثث ممنوع في الاسلام ، كانوا يعرفون من أجسام القرود أوصاف الأعضاء منها ،

ويقابلون ذلك بما يرونه في الإنسان المجرّوح في القتال . وكانوا يعالجون المجرّوح ، و يقيّمون العمليات ، ويستخدمون لذلك المخدّرات ، فلا يشعر المريض بالجراحة التي يقومون بها ، ومنها جراحات عسيرة جداً ، لم تيسّر

استخرجت هذه الرسوم من كتاب فن التشريح « التصريف لمن عجز عن التأليف » لأبي القاسم خلف الزهراوي المتوفى سنة ٥٠٠ هـ ؟ هذه المخطوطة محفوظة في المتحف الوطني بدمشق الصفحة ٢١٣

تستعمل هذه المجموعة من الأدوات الجراحية لاستخراج السهم من جسم المحارب



للأطباء إلا في عهد الحضارة الحديثة . استعملوا الفتيلة للجروح والعمليات ، وهم أول من استعمل ذلك . وتقدموا في الجراحة تقدماً هائلاً . بين أيدينا اليوم كتاب للزهراوي^(١) في الجراحة وآلاتها ، وقد رسمت فيه الآلات المستعملة في الجراحة . اكتشف علي بن العباس المجوسي الحركة الدموية الشعرية ، وقد ادعاها أطباء الغرب لأنفسهم . واكتشف الرازي مرض الحصبة ووصف دواءها . شَرَح الأطباء العين وعرفوا طبقاتها وأمراضها مما لم يكن معروفاً من قبل ، وفي ذلك كتاب لعلي بن عيسى الكحال . يظهر لنا ما اكتشفه العرب والمسلمون من جديد في كتاب الحاوي لأبي بكر الرازي ؛ هذا الكتاب المطبوع باللغات الأجنبية الذي لم يطبع بعد باللغة العربية ، يذكر في كل مرض ما قاله قدامى الأطباء ، ثم ما اكتشفه العرب ، ثم يذكر الرازي بعد ذلك ما اكتشفه هو بنفسه عنه ، وقد رأيت لا يُخلّ بهذا الترتيب .

انتقال الطب العربي إلى بلاد الغرب :

كان الطب العربي يدرّس في أوربة مدة من الزمن ، وكان الكتاب الذي يدرس فيه هو كتاب (القانون) لابن سينا الذي ترجم إلى اللاتينية ، ويقول أوسلير^(٢) : « إن هذا الكتاب درّس في العالم الغربي مدة فاقت أي كتاب آخر درّس فيه » .

(١) اسم الكتاب : « التصريف لمن عجز عن التأليف » في المتحف الوطني بدمشق نسخة مخطوطة معروضة في قاعة المخطوطات من فرع الآثار العربية الإسلامية - المنقح .

(٢) هو Sir William Osler طبيب إنكليزي متوفى في أكسفورد سنة ١٩١٩ أصدر كتاباً هاماً سنة ١٨٩٢ « مبادئ وممارسة في الطب » .

الرياضيات :

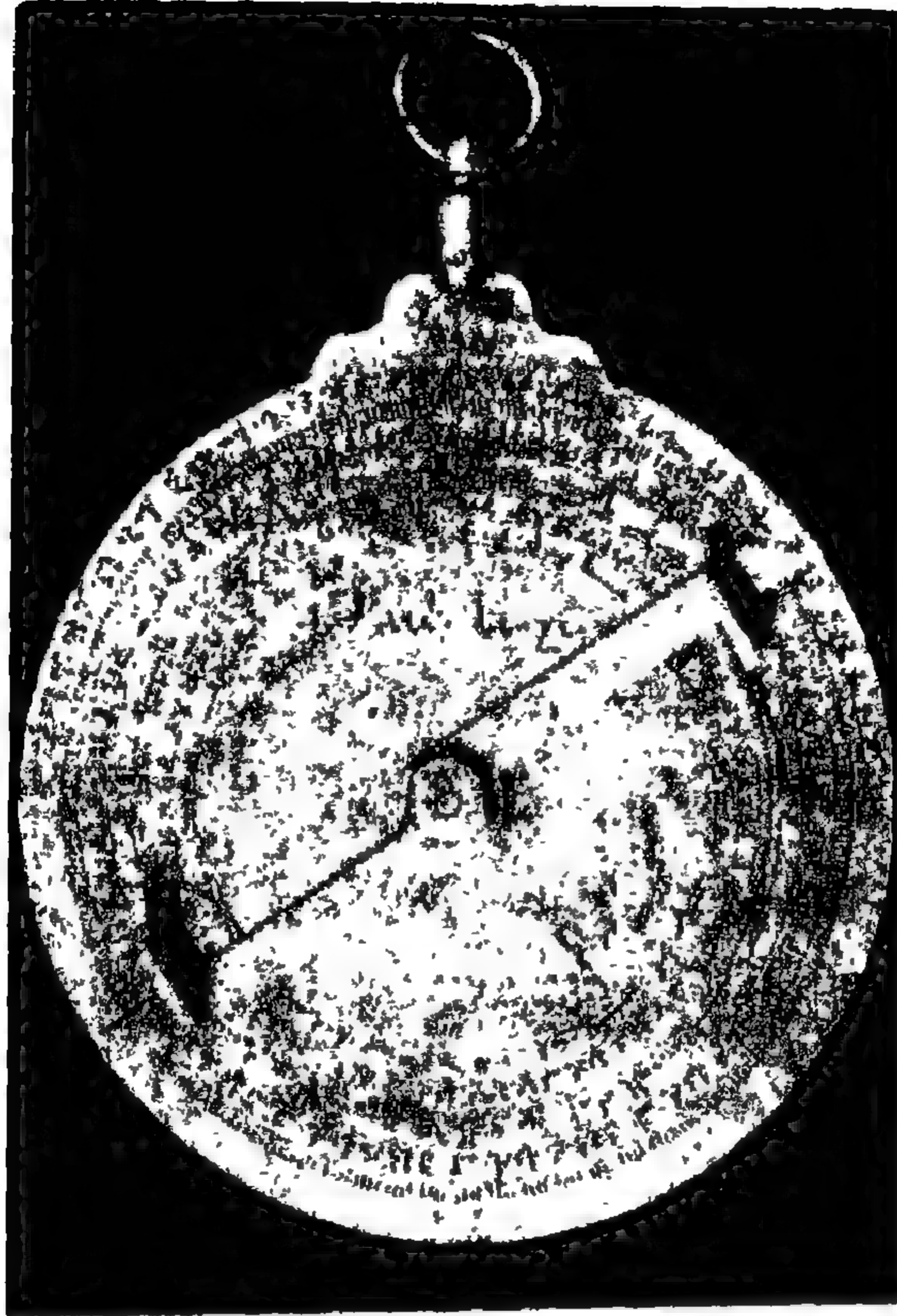
الحساب والجبر :

كان أثر العرب في الرياضيات كبيراً ، فهم الذين أدخلوا الترقيم العشري في الحساب ؛ وفي هذا رقي في العلم كبير ، بني على تقدم غير في مفهوم الرياضيات وفي طبيعتها ، وكانت الأعداد حتى ال (٩) معروفة ترقم ، إلا أن الصفر لم يكن معروفاً ، والعرب هم الذين أدخلوا الصفر بالشكل العام المطلق الذي سار فيه ، إن لم يكن هم الذين اخترعوه ، ومنهم انتقل على كل حال إلى الغرب ، والذي عمم الصفر هو الخوارزمي ومعه حبس الحاسب ويقال : إنها أخذاً ذلك من كتاب (السند هند) . والعرب على كل حال هم الذين وضعوا الترقيم العشري . أما الجبر فإنه أول ما وضع باللغة العربية ، فالخوارزمي له كتاب (الجبر والمقابلة) ومنه تبدو أصول الجبر . أما الذي تقدم بالجبر خطوات كبيرة فإنه عمر الخيام ، لقد حلّ حلولاً هندسية من الدرجة الثالثة ؛ إذاً العالم مدين للعرب والمسلمين بالجبر ، بل إن الاسم نفسه عربي صرف .

علم الفلك :

أثر الحضارة الإسلامية في الفلك كبير ، فقد حصلت حركة واسعة جداً في هذا الأمر ، وأسست المراصد الكبيرة ، وقومت الأطوال الفلكية . أول مرصد كبير أحدث أثراً عظيماً ، هو المرصد الذي أوجده المأمون في الشماسية ببغداد ، ومرصد آخر أوجده على جبل قاسيون بدمشق . وأنشئ بعد العصر العباسي مرصد كان واسعاً هائلاً ، هو مرصد مراغة ، أحدثه التتر وأقاموا عليه الطوسي ، وأدخلوا فيه الآلات الفلكية كالآلات ذوات الحلق و الربع و الحائطي لقياس ارتفاع الكواكب في القبة السماوية ،

ودائرة بروج لقياس الانقلاب الصيفي والشتوي . وتييز تقدم هذا العلم
عند العرب بالزيج أي بالتقاويم الفلكية الدقيقة ، وأخذت عنهم أوربة
هذا العلم .



اصطرلاب محفوظ في المتحف الوطني بدمشق
وهو مؤرخ من سنة ٩٨٢ هـ

كان للمسلمين أثر في التقويم السنوي ، فهذا عمر الخيام وضع التقويم الجلالى ، وحدّد به عدد الأيام في السنوات ، وهو أدقّ من التقويم الفريغورى المعمول به اليوم . أما الاكتشافات الأخرى في الفلك ، فهي قياس المسافة بين خطّي طول من دوائر النهار على الأرض ، تمّ ذلك في عصر المأمون على أيدي أبناء شاكر ؛ إن القياس الذي حصل عليه العرب لا يختلف عن القياس المعروف اليوم إلا بمقدار نحو من كيلو متر واحد .

تمّ اكتشاف آخر لحركة القمر ، تدعى بالتغيّر ، وهذه الحركة وضعها بعد ذلك بدقّة تيشو براهي Tycho - Brahé الفلكي المشهور . نستطيع أن نقول إن البتاني استطاع أن يعدّل مما وضعه بطليموس في الفلك ، وأن يحسّن ذلك ، وأن يحدث الجديد فيه ، فهو قد ضبط مقدار الانحراف الموجود في دائرة البروج ، وقدره بـ (٢٢ درجة و ٢٥ ثانية) . ودرس أيضاً تقهقر خطوط الاعتدال أحسن من بطليموس وحدّد ذلك أيضاً .

علم المثلثات :

والحدث الجديد أيضاً في تاريخ العلوم عند المسلمين هو وضعهم لعلم المثلثات الكروي ؛ فهم الذين اكتشفوا الجيب والتجيب ، والمماس والظل . . . الخ ، من الأشياء المتعلقة بعلم المثلثات ؛ وبهذا لم يقدموا فقط للهندسة مادة جديدة ، بل قدموا ذلك للرياضيات جميعاً ، ولعلوم الفيزياء أيضاً .

التاريخ :

وتجد لهم اكتشافات وطرائق جديدة في التاريخ ، إلا أن علمهم في ذلك كان محصوراً في رقعتهم ، اللهم إلا شيئاً قليلاً تسرّب عن طريق إسبانيا وقرطبة . أما في التاريخ فقد عرفوا أساليبه وطرائقه ، فكتب

التراجم عندهم أرقى ما يمكن أن تبلغه ، فهي منظمة على الحروف الأبجدية في معظمها ، تتناول سيرة الشخص من أطرافه المختلفة . وهناك أيضاً كتب التاريخ المرتبة حسب تسلسل السنين المسماة (الحوليات)^(١) ، وصلوا في ترتيبها إلى أبعد ما وصلت إليه . يضاف إلى ذلك أنهم نظروا إلى التاريخ نظرة جديدة فقد بحث علماءهم في تحولات حوادث التاريخ وأثر الإقليم في تلك الحوادث ، وأثر الجماعات فيها ، فهذا هو المسعودي يورد مادة حسنة في ذلك ، وهذا هو ابن خلدون ، وهذا هو المقرئ وغيرهم ينظرون إلى التاريخ النظرة الجديدة . إن التاريخ عند العرب ليس مجرد حوادث ، بل هو إلى جانب ذلك حضارة ودين وفكر وعلم وفن وعمارة : الأمر الذي يجعل الباحث يلم بجميع جوانب الحياة العامة . وضع العرب أيضاً كتبهم في فلسفة التاريخ ، وإن ابن خلدون يعتبر أنجحهم في ذلك في كتابه (المقدمة) وهو كتاب له أثر كبير في العالم الغربي .

الجغرافية :

وفي الجغرافية تقدم العرب تقدماً هائلاً ، فهم كانوا مضطرين إلى أن يعرفوا اتجاه المكان وخريطته ، ذلك أن قبلتهم الكعبة ، فيجب أن يعرف مكان البلدة واتجاهها بالنسبة للكعبة . كانت أقاليمهم واسعة ، فكان عليهم أن يعرفوا طرقاتها معرفة دقيقة ؛ ولقد وضعوا الخرائط^(٢) في ذلك ، وقاسوا المسافات ، وعرفوا أثر الجو في طبائع الناس في إقليمهم : ودرسوا حالة المدن من الناحية التجارية ، ومن ناحية العادات ، فهم إذا لم ينظروا إلى الجغرافية على أنها تصوير للأرض فحسب ، بل نظروا إليها على أنها

(١) أحسن من كتب على هذه الطريقة : الطبري وابن الأثير وابن كثير المتقح .

(٢) لعل الإدريسي والاصطخري أشهر الجغرافيين الذين رسموا الخرائط . المتقح .

جغرافية بشرية وإقليمية وطبيعية وما أشبه ذلك . . . ، وكتبهم في الجغرافية كثيرة ، ومن أطرف تلك الكتب « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » للمقدسي ، فهو قد وصف أخلاق الناس وطبائعهم في تجارتهم وجميع أعمالهم ، وآلم بجوانب الحياة على طريقة جغرافية جيدة .



شهادة العلماء الغربيين بالحضارة العربية الإسلامية :

هذا ما يمكن أن نقوله بصفة مختصرة في قيمة العلم عند العرب والمسلمين والمستعربين ، ولنر الآن أقوال الغربيين في ذلك شاهداً على ما نقول . قال عالم كبير من علمائهم ومؤرخ لتاريخ العلم ، اسمه (سارتون ^(١)) : « إن الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني حمل أعباءه المسلمون ، فالفارابي أعظم الفلاسفة كان مسلماً ، وأبو كامل ^(٢) وإبراهيم بن سنان (بن ثابت بن قرة) أعظم علماء الرياضيات كانا مسلمين ، والمسعودي أعظم رجال الجغرافية والموسوعات كان مسلماً ، وكذلك قل في الطبري أعظم المؤرخين » . سارتون يتكلم عن العصور الوسطى ، لذا فإنه جعل علماء المسلمين هم القائمين بالنهضة في تلك العصور .

بعد أن قارن علماء الغرب الحضارة الإسلامية بحضارة القرون الوسطى ، نظروا فيما أحدث العرب من جديد ، فوجد المنصفون منهم الشيء الكثير من ذلك ، وعدّدوا ما عثروا عليه ، وسنقرأ ما أورده بعض المؤرخين الغربيين ، فنستدل منهم على تعرّفهم على أثر العرب والمسلمين فقد قال تاتشير Thatcher وشويل Schwill في تاريخ أوربة العام Histoire

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب (المجلد) ج ٢ ص ٤٧٨ .

(٢) هو شجاع بن أسلم المصري الذي تقح في أوائل القرن العاشر كتاب الجبر للخوارزمي .

Generale de L , Europe وقد نقلنا قوله عن ولز Wells في (مختصر تاريخ العالم Esguisse de L , Histoire Universelle ص ٣١٠) من الطبعة الفرنسية) قال : « أسس العرب الرياضيات على الأسس التي وضعها رياضيو اليونان . إن أصل الأرقام المسماة بالعربية مبهم ، ففي عهد تيودوريك الكبير Theodoric le Grand (٤٧١ - ٥٢٦ م) اتخذ بوئيتيوس Boëthius بعض الإشارات التي تشابه الأرقام التسعة المستعملة اليوم ، واستخدم أحد طلاب جربرت ^(١) Gerbert أيضا إشارات تشابه أرقامنا أكثر منه ، لكن الصفر ظل مجهولاً حتى القرن الثاني عشر ^(٢) الميلادي ، اكتشفه عربي اسمه محمد بن موسى ^(٣) وهو أيضاً أول من استعمل الترقيم العشري ، وأعطى الأرقام قيمة بحسب مكانها في العدد . ولم يضاف العرب كبير شيء في الهندسة على إقليدس ، غير أن الجبر هو في الواقع من وضعهم ؛ ولقد وسّعوا أبحاث المثلثات الكروية ، مكتشفين الجيب والمماس وتمام المماس ، واخترعوا في الفيزياء الرقاص ، ووضعوا مؤلفات في علم البصريّات ، وتقدموا بعلم الفلك ، وأقاموا المراصد ، وصنعوا عدداً كبيراً من الآلات الفلكية ، التي لا تزال مستعملة حتى اليوم ، وحسبوا زاوية الميل ، وتقهر خطوط الاعتدال . لا ريب أن معرفتهم بالفلك ، كانت عظيمة . وصلوا في الطب إلى أبعد مما وصل إليه اليونان بكثير ، ودرسوا علم وظائف الأعضاء والصحة ؛ وكانت أدويتهم هي الأدوية ذاتها التي نستعملها اليوم ، فنحن لا نزال نطبق كثيراً من طرق معالجتهم ، وكان

(١) هو البابا سلفستر الثاني الذي درس في الأندلس - المنقح .

(٢) ربما يقصد الكاتب أن الصفر ظل مجهولاً في أوربة حتى القرن ١٢ م لكن العرب عرفوه قبل ذلك -

المنقح .

(٣) هو الخوارزمي (توفي ٢٢٢ هـ ٨٤٧ م) وقد دعاه الطبري بالمجوسي (حتى ٢ / ٤٦٣) - المنقح .

جراحوهم يعرفون أثر المخدرات ، وقد مارسوا من الجراحات أصعب ما عرفه العالم منها . وبينما كانت ممارسة الطب في أوربة محظورة من قبل الكنيسة التي لم تكن تتوقع الشفاء إلا من صلوات الكهنوت الدينية ، كانت للعرب معرفة حقيقية بالطب . سلك العرب طرقاً مجدية في حقل التجارب ، فقد اكتشفوا كثيراً من المواد الجديدة : كالغُول^(١) ، والبوتاسيوم ، وماء الفضة ، وتحت كلور الزئبق وأحماض الليمون والكبريت .

أما في حقل الصناعات ، فقد تفوّقوا بمهارتهم وتنوع مصنوعاتهم وبمجال رسومهم ، على كل ما كان العالم آنذاك يستطيع أن يصنعه ، فكانوا يصنّعون كل المعادن من ذهب وفضة ونحاس وبرونز وحديد وصلب ، وكانوا يصنعون الأواني من الزجاج والفخار من أجود الأصناف ، ويعرفون كل أسرار فن الصباغة ، وكانوا يصنعون الورق ، ويحضّرون الجلد على أشكال مختلفة . وكان عملهم في ذلك مشتهراً في أوربة بأجمعها . كانوا يصنعون الصباغات والعطور والأشربة ، ويستخرجون السكر من قصب السكر ، وعندهم أنواع عديدة من الخمر الجيدة ، وكانوا يحرقون الأرض بأسلوب علمي ، ويعرفون طرقاً للريّ عديدة ، ويعرفون قيمة الأسمدة ، ويلأثون بين أنواع الحبوب وطبيعة الأرض ، وقد أجادوا في الزراعة والتطعيم وعنّوا بإنتاج أنواع جيدة من الثار والأزهار ، وأدخلوا إلى بلاد الغرب كثيراً من الأشجار والنباتات التي أصلها من الشرق وصنّفوا كتباً في الزراعة العلمية . . .

هذا قول منصف مدرك ، نعارض به قول من يقول بأن حضارتنا

(١) الغُول هي الكلمة العربية الصحيحة بما يطلق على الكحول خطأ - المنقح .

كانت حضارة مقلّدة لا جديد فيها ، فظاهر منه أنها مدّت المدنيّة ، وأتحفتها بأشياء جديدة ، وساهمت بمقدار حسن فيها .

وقد ورد أثناء البحث ذكر فئة من أسماء العلماء الذين برهنوا في النهوض بتلك الحضارة ونضيف إليهم اسماً يرد في نص لبروكلمان ، في تاريخ الشعوب الإسلامية (الترجمة العربية ، المجلد الثاني ، ص ٣٩) حيث قال « وفي عهد المأمون استهل أبو يوسف يعقوب الكندي فيلسوف العرب ، وأحد العقول الكبرى في تاريخ العالم - كما دعاه كاردانو Cardano سنة ١٥٥٢ م - استهل نشاطه الفكري الذي لم يقتصر على تعريف مواطنيه بالفلسفة الأرسططالية والأفلاطونية الجديدة ، من طريق الترجمة والاقتباس فحسب ، بل عدا ذلك إلى توسيع آفاقهم العقلية ، بما أخرج من دراسات في التاريخ الطبيعي وعلم الظواهر الجوية ، مكتوبة بروح تلك الفلسفة » .

ونذكر في الختام ، اسماً آخر نتّوج به أسماء العلماء العرب ، ألا وهو الخليل بن أحمد الفراهيدي ، فهذا الرجل هضم حقّه ، ولم يعرف في بلاد الغرب ، ذلك أنه لم يبحث في العلوم الطبيعية أو الرياضية ، لكنّه على رأينا من أعظم رجال العلم فكراً ، وإبداعاً ، وابتكاراً ، إلى جانب ما كان يتحلّى به من أخلاق سامية . وهو من عبقريته وفكره ، أنتج إنتاجات لا مثيل لها سعة وعمقا . فقد صنّف الموسيقى ، ولم يكن موسيقياً ووضع علم العروض تاماً كاملاً لم يعتوره بعده تغيير ، ووضع مُعْجَماً مصنفاً على طريقة عجيبة ، فيه روح اللغة العربية وعبقريتها ، وباسمه نختم بحثنا هذا الذي طفنا به في جوانب من العلم مختلفة ، ورأينا أثر العرب والمسلمين في العهود العربية في مادة العلم والحضارة والمدنيّة .



الحضارة المادية في عصر الخلافة العباسية

ذكرنا عن الفكر والثقافة شيئاً مختصراً ، ودللنا على قوة الثقافة العربية والإسلامية بذلك . ولكن يجدر بنا أن نلقي نظرة إلى الحضارة المادية عندما ندرس الثقافة ؛ فهل كانت الحضارة المادية عند العرب ، وبها تعرف مكانة الأمة بين غيرها من الأمم ، في مستوى ثقافتهم العقلية ؟ - إن ما بين أيدينا من الأخبار ، وما يمثل أمامنا من الآثار ، يدلنا دلالة واضحة على أن الحضارة المادية بلغت الأوج في عهد العباسيين ، بل إن تلك الحضارة غلت في ماديتها وفي وسائلها وفي بذخها ، وفي عمرانها ؛ ولولا التخريب الذي حصل ، ولولا ضياع الكنوز الثمينة ، لكان بين أيدينا اليوم آثار هائلة عن تلك الحضارة إلى جانب الأشياء المبعثرة التي نراها في المتاحف اليوم . ويمكن القول بأن الحضارة العربية الإسلامية منذ نشأتها إلى أن طرأ عليها الجمود في القرن ٩ هـ وصلت إلى حدٍّ لم تتجاوزه الحضارات الأخرى في المادة ، إلا ما أتت به الحضارة اليوم من وسائل الآلة والبخار والكهرباء والذرة . وسنستعرض في هذا البحث بذخ الحضارة العربية في العهد العباسي وعمرانها ووسائلها .

إن بغداد التي كانت عاصمة الدولة ، كانت في الوقت نفسه عاصمة البذخ ، وتلحق بها القاهرة التي أصبحت مكاناً للحضارة رحباً جميلاً ؛ والصور التي تقدمها اليوم عن الحضارة المادية لا تقصد بها وصف تلك الحضارة ، بل تقصد بيان الأوج الذي بلغته ، أما وصف الحضارة المادية فصعب ، ويقتضي مجالاً أوسع بكثير مما نحن فيه . أما بغداد فقد وصفها

الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (الجزء ١ ص ١١٩) ، فأثنى عليها ثناء لا مثيل له ، قال : « لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلاله قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها ، وتميّز خواصّها وعوامّها ، وعظم أقطارها ، وسعة أطرارها^(١) ، وكثرة دورها ومنازلها ، ودروبها وشعوبها ، ومحالّها وأسواقها ، وسككها وأزقتها ، ومساجدها وحماماتها ؛ وطُرُزها وخاناتها ، وطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، وبرد ظلالها وأفيائها ، واعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها ، وزيادة ما حُصر من عدّة سكانها » . ويعطينا الخطيب البغدادي نفسه (في تاريخ بغداد الجزء ١ / ص ١١٧) تعداداً لخطة تدل على الحضارة في بغداد أحسن دلالة ، وهي الحمامات ، فيقدم لنا بهذه المناسبة عدداً يفوق التّصوّر والوصف ، فيقول عن أحمد بن أبي طاهر في كتاب بغداد : « وأن عدد الحمامات كانت في ذلك الوقت (عصر المأمون) ببغداد ستين ألف حمام . وقال : أقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر : حمامي وقيّم ، وزبّال ووقّاد وسقّاء . يكون ذلك ثلاثمائة ألف رجل . وذكر أنه يكون بإزاء كل حمام خمسة مساجد ، يكون ذلك ثلاثمائة ألف مسجد ، وتقدير ذلك أن يكون أقل ما يكون في كل مسجد خمسة أنفس ، يكون ذلك ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان » لكننا نرى في هذا مبالغة ، ولا نستطيع أن نقبل هذا التقدير . فأما أن يكون لكل حمام خمسة نفر ، فليس ضرورياً وقد يكون في الحمام نفران فقط أو أكثر أو أقل ؛ ثم أن يكون بجانب كل حمام خمسة مساجد ، فذلك ليس ضرورياً ؛ أما أن يكون عدد الحمامات ستين ألفاً ، فذلك مبالغة .

هذا إحصاء وهناك إحصاءات أخرى ، ولعلها أقرب إلى الحقيقة ، فقد

(١) جمع (طر) وهو شفير النهر والوادي - المنقح .

تقدم أبو محمد المهلبى إلى أبي الحسن البادغجي - وهو صاحب المعونة - يعدّ المساجد والحمامات يقول إبراهيم بن هلال الصابي (في تاريخ بغداد ١ / ١١٨) : « فأما المساجد فلا أذكر ما قيل فيها كثرة ، وأما الحمامات فكانت بضعة عشر ألف حمام ؛ وعُدّت إلى معز الدولة وعرفته ذلك ، فقال : « اكتبوا في الحمامات بأنها أربعة آلاف » . واستدللنا بقوله على إشفاقه وحسده أباه على بلد هذه عظُمة^(١) وكُبُره . وقد أحصيت في أيام المقتدر بالله ، فكانت سبعة وعشرين ألف حمام ، وليس بين الوقتين من التباعد ما يقتضي هذا التفاوت قال هلال (الصابي) وقيل : « إنها كانت في أيام عضد الدولة خمسة آلاف حمام وكسرا . . » .

ومهما كان من هذه الأرقام ، فالعدد كبير ، ولا ريب أن الحمامات دليل على الحضارة ودليل على النظافة ، فلو كانت خمسة آلاف حمام ، أي حسب أقل عدد من الأعداد المحصاة لكانت مقداراً هائلاً . لو أننا قلنا إن هذه الصفحة من تاريخ بغداد التي أوردها الخطيب بعيدة عن الحقيقة فهل من دليل آخر على عظم تلك الحضارة المادية ؟ نرجع إلى كتاب آخر هو كتاب المنتظم لابن الجوزي (٦٠ / ٧) فهو يذكر لنا في حوادث سنة ٣٦٢ للهجرة ما يلي : قال : « احترقت أموال عظيمة (في النخاسين إلى السماكين) وجماعة من الرجال والنساء والصبيان في الدور والحمامات ، فأحصى ما احترق . فكانت سبعة عشر ألف وثلاثمائة دكان ، وثلاثمائة وعشرين داراً ، أجرة ذلك في الشهر ثلاثة وأربعون ألف دينار » .

هذا في بغداد ، أما في القاهرة ، فقد تقدمت الأحوال المادية في عصر المماليك ، ولنا في رحلة خالد البلوي إلى القاهرة سنة ٧٨٦ هـ دليل على

(١) كذا ضبطت الكلمتان في طبعة القاهرة سنة ١٩٣١ م - للنقح .

تلك الحالة ، فقد قال [مخطوطة نسخة المكتبة الظاهرية - جغرافية / ١٠٨ - ورقة ٧٥ الوجه الأول] : « أخبرني أحد كتاب السلطان أنهم كتبوا وأحصوا المراكب الجارية في هذا النيل المعدة لإساق^(١) الزرع خاصة ، فألفوها تنوف على مائة ألف مركب ، ما عدا الزوارق الصغار التي للصيد والركوب وغير ذلك ، فكأنها أكثر من أن تحصى ، وأخبرني الشيخ الإمام القدوة شمس الدين الكركي قال : عن صاحب وزير الملك الظاهر أخصى الجمال الداخلة إلى القاهرة بالماء في كل يوم ، فبلغت مائتي ألف جمل ، ما عدا البغال والحمر والسقائين (كذا) الذين بالزقوق وغيرهم ؛ فإن ذلك شيء لا ينضبط ولا ينحصر ، وهذه الجمال المذكورة تحط بالمدينة في كل يوم من أيام الصيف سبع أوانات ، وفي الشتاء أقل من ذلك ، قال : وأخصى دكاكين السقائين (كذا) المعدة للسقي بالقاهرة ، فبلغت ستين ألف دكان ، ما عدا السقائين الذين بالأكواز والأكواب في الطرق والأسواق وغيرها .

ونعود مرة أخرى ، فنرى في ذلك مبالغة إلا أنها ذات دلالة على سعة الدكاكين وكثرة عدد الجمال والمراكب والسقائين ، والسقاية دليل على سعة الزرع ، ودليل على عدد النفوس ، وكانت القاهرة مشتهرة بأن مبانيها ترتفع إلى إحدى عشرة طبقة .

البذخ والترف المفرط :

وأياً كان المفهوم من ذلك ، فالثروة كانت هائلة في بغداد وفي غيرها من المدن ، وتأتينا الأخبار عن الثروة وعن المال وعن الجواهر ، وعن البذخ والكرم الذي لا يحده حصر ، فنستغرب ونعجب ؛ وقد سمعتم ولا ريب بما كان يقدمه الخلفاء للشعراء وغير الشعراء من مال كثير وجراية هائلة ؛

(١) إساق من أوسق أي تحميل الزرع - المنقح .

ولعل من أعظم ما نسمعه في ذلك ما ذكره المؤرخون (حتى ص ٢٧٥) عما جرى في العرس الذي أقيم للمأمون على بوران بنت وزيره الحسن بن سهل ، « قيل : إنه في أثناء العرس وقف العريسان (كذا) على حصير ذهبي مرصع بالدر والياقوت ، فنثرت على بوران ألف درّة من صينية ذهب ، وأوقدت شموع العنبر ، وزن كل واحدة مائتا رطل ، فانقلبت الظلمة ضياء ؛ وانتهى أمر ذلك العرس العظيم بأن نثر المأمون على الهاشميين والقواد والكتّاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار ، وغير ذلك ، فكانت البندقة إذا وقعت في يد رجل فتحها ، فيقرأ ما في الرقعة ويمضي فيستم ما فيها ، سواء كان ضيعة أو ملكاً آخر ، أو فرساً أو جارية أو مملوكاً » . [عن الطبري ج ٣ ص ١٠٨١ الطبعة الأجنبية] .

رفاه الحياة بسبب الغنى المفرط :

لا ريب أنّ هذه هي البحبوحة في العيش والكرم الزائد المبالغ به الذي لا يقرّه عقل ، وأن المحيطين بالخلفاء والملوك وأرباب الأمر ، تنعموا بهذه الثروة الهائلة ، فكانوا يعيشون ببذخ كبير ، ولهم الغلات الوفيرة ، والأجور الضخمة . هذا خبر عن أجور كان يتقاضاها طبيب من أطباء الخلفاء وهو جبرائيل بن بختيشوع (أخبار الحكماء لابن القفطي ص ٩٩ - ١٠٠) قال : « ذكر أن رزقه كان برسم العامّة في كل شهر من الورق عشرة آلاف درهم ، وبرسم الخاصّة في المحرم من كل سنة من الورق خمسون (كذا) ألف درهم ، وثياب بقيمة عشرة آلاف درهم ، ولفصد الرشيد دفعتين في السنة مائة ألف درهم ، ولشرب الدواء دفعتين في السنة مائة ألف درهم ، ومن أصحاب الرشيد كل سنة على ما فعل مع ما فيه من قيمة الكسوة وثن الطيب والدواب ومن الورق أربعمائة ألف درهم ... ومن غلة ضياعه في

جنديسابور والسوس والبصرة والسواد في كل سنة ثمانمائة ألف درهم ، ومن فضل المقاطعة بسبعمائة ألف درهم ؛ وكان يصير إليه من البرامكة في كل سنة من الورق ألفا ألف وأربعمائة ألف درهم . . . فيكون جميع ذلك في خدمته للرشيد ، وهي ثلاث وعشرون سنة ، وخدمته للبرامكة ثلاثة عشرة سنة ، سوى الصلات الجسام ، فإنها لم تذكر في هذا المدرج من الورق ثمانية وثمانون ألف وثمانمائة ألف درهم .

وبديهي أن هؤلاء الأطباء الذين كانوا يتناولون جراحة ورزقاً بهذا المقدار كانوا يعيشون على أنعم حال مادي ، وقد وصف لنا كيف كان يعيش حنين بن إسحاق ، وكان يخدم المأمون في الطب ويترجم له الكتب ، قالوا (وفيات الأعيان لابن خلكان مجلد ١ / ٤٤٦) : « إن حنيناً كان في كل يوم عند نزوله من الركوب يدخل الحمام ، فيصبّ عليه الماء ، ويخرج فيلتف في قطيفة ويشرب قدح شراب ويأكل كعكة ، ويتكئ حتى ينشف عرقه ، وربما نام ، ثم يقوم ويتبخر ، ويقدم له طعامه وهو فروج كبير مُسْنَن قد طبخ زيرباجا ، ورغيف وزنه مائتا درهم ، فيحسو من المرققة ، ويأكل الفروج والخبز وبنام ، فإذا انتبه شرب أربعة أرطال شراباً عتيقاً ، فإذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامي والسفرجل ، وكان ذلك دأبه إلى أن مات » .

طريقة تقديم الطعام وتنوع ألوانه :

يكثر إلى جانب ذلك ألوان الطعام ، وأشكال تقديم الطعام والبذخ في الآنية وفي وسائل الأكل ، ونحن نعجب اليوم من أهل الغرب ، كيف يأكلون أكلهم مقدماً على مراحل صحفاً بعد صحف ، لكنّ هذا خبر يفيدنا بهذا الأسلوب (إرشاد الأريب لياقوت الحموي مجلد ١٧ / ص ١٥١) :

« ذكر أنهم [في دعوة لآبي الحسن أحمد بن محمد الكراريسي] قَرَّبوا فيها مائدة عليها خيار ، وفي وسطها جامات عليها « فُطِرَ نَخْشَب ^(١) » فسمَّيتها مسيحيَّة ، لأنها أَدَمَ النصارى ، وأنهم قَرَّبوا بعد ذلك سَكْبَاجَة ^(٢) بعظام عارية ، فسمَّيتها شِطْرُنْجِيَّة ، وأنهم قَرَّبوا بعدها مَضِيرَة ^(٣) في غُضائر بيض ، فسمَّيتها مُعْتَدَّة ، وكانت بلا دسم ، والمُعْتَدَّة لا تَمَسُّ الدُّهْن والطيب ، وأنهم قَدَّموا بعدها زيرِياجَة قليلة الزعفران ، فسمَّيتها عابدة ، تشبيهاً بلون العُباد من الصفرة ؛ وأنهم قَرَّبوا بعدها لوناً فسمَّيتها قُنْبِيَّة ^(٤) ، وقَرَّبوا بعدها زيبِيَّة سوداء سمَّيتها موكبِيَّة ، وأنهم قَرَّبوا بعدها قَلِيَّة ^(٥) بعظام الأضلاع فسمَّيتها حَسَكِيَّة ، ثم قَرَّبوا بعدها فالوذجة بيضاء فسمَّيتها صابونيَّة » . الأُغْرَب من كل ذلك أن صاحب الدعوة وهو الكراريسي اعتذر عن دعوته هذه قائلاً إن ابنه مريض وإنه لم يستطع أن يوفِّي القوم حقَّهم ، في مائدته هذه التي بسطها خارج بيته بعيداً عن ابنه المريض .

الاستفادة من علم الميكانيك في الحياة المادية :

وتعتمد الحياة المادية على وسائل في الصناعة والميكانيك ترسي عليها قواعدها ، بحيث نستطيع أن نتخيَّل حضارة أمة من الأمم بمقدار ما تستعمل من وسائل ماديَّة ميكانيكية ؛ وقد تجاوز عصرنا الحاضر في ذلك حداً بعيداً ؛ فالوسائل التي بين أيدينا للرفاهية وصلت إلى مقدار لا يحلم به أصحاب الخيال الكبير من الأقدمين ؛ ومع ذلك لو أننا رجعنا إلى حضارتنا

(١) نَخْشَب : من مدن ما وراء النهر .

(٢) مِرْقَة تعمل من اللحم والحل - كلمة فارسية - المنقح .

(٣) مَضِيرَة : فتة بدون دسم - المنقح .

(٤) قُنْبِيَّة : من القنب ربما كانت حلوى يبزر القنب (القنيس) - المنقح .

(٥) قَلِيَّة : مقلية .

القديمة ، لوجدنا أنها سبّاقة في هذا المضمار بالنسبة للحضارات القديمة ، وأنها إن لم تبلغ شأوا الحضارة المادية الحديثة ، فهي لم تقصّر عنها إلا في البخار والكهرباء والذرة أخيراً ؛ أما في شؤون الميكانيك ، فإنها قد وصلت إلى درجة سامية ، وبلغت في ذلك ما لم تبلغه حضارة قبلها ، بل إننا ندهش حين نطلع على أخبارها في ذلك ، وهذا خبر يذكره لنا أبو الحسن الطبري الفقيه الملقب بالكيا ، فهو قد أرسله السلطان بركياروق إلى إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سُبُكتكين عام اثنين وتسعين وأربعمئة للهجرة ، فيقول : [كما ورد في المنتظم لابن الجوزي ج ٩ ص ١٠٩] « فرأيت في مملكته ما لا يتأتى وصفه ، فدخلت عليه وهو جالس في طارمة عظيمة بقدر رواق المدرسة ، وفوق ذلك إلى السقف صفائح الذهب الأحمر ، وعلى باب الطارمة الستور التنيسي ثم أمر خادمه أن يطوف بي في داره ، فدخلنا إلى خركاه عظيمة قد ألبست قوائمها من الذهب ، وفيها من الجواهر واليواقيت شيء كثير ؛ وفي وسطها سرير من العود الهندي ، وتمثال طيور بحركات ، إذا جلس الملك صفقت بأجنحتها ، إلى غير ذلك من العجائب » .

وهذه الحركات التي تقوم بها الحيوانات والتماثيل منها ، أمر يظهر أنه انتشر عند الملوك بل عند الأمراء وأتباعهم ، فهذا يوم الجمعة من غرة ذي الحجة من سنة ٥٤٧ هـ ، ينطلق فيه الناس إلى اللعب وإلى الصيد ، فيجعلون أبنية وقباباً وتماثيل عجيبية ، قال ابن الجوزي في المنتظم (المجلد ١٠ / ص ١٤٨) : « وعُلِّقت القباب ، فعمل الذهبيون قبة على باب الخان العتيق عليها صورة مسعود ، وخاص بك وعباس ، وغيرهم من الأمراء بحركات تدور ، وعُلّق ابن المرخم قبة فيها خيل تدور ، وعليها فرسان

بمركات ، وعلقت بنت قاروط بباب درب المطبخ قبة فيها صورة
السلطان ، وعلى رأسه شمسة ؟ وعلق ترشك قبة على سطح داره على تماثيل
صور أتراك يرمون بالنشاب ، وعلق ابن مكي الأحذب قبة عليها جماعة
من الحذب ، وعلق جعفر الرقاص بباب الغربية قبة عليها مشاهرات
فاكهة أترج و نارنج ورماني وثياب ديباج وغير ذلك ؛ وأقام السودان
الكلالة فوق القبة يغنون ويرقصون . وعمل أهل باب الأزج حذاء المنظرة
أربعة أرحى تدور وتطحن الدقيق ، لا يُدري كيف دورانها ، الملاحون
سُيْرِيَّة على عجل تسير . وانطلق الناس في اللعب ، وبقي التعليق إلى يوم
العيد . فهذه آلات وتماثيل تتحرك وتقام في أيام الأعياد ويهرع إليها
الناس ، فيتمتعون بحركاتها العجيبة . وعندنا خبر آخر عن حمام عجيب فيه .
ففي [المنتظم مجلد ١٠ / ص ٨١] . . . وبمناسبة تقض المسترشد دراه التي
كان طولها ستين ذراعاً في أربعين ، وعملت فيها الصور ، وفيها الحمام
العجيب ، فيه بيت مستراح فيه بيشون^(١) إن فركه الإنسان يميناً خرج الماء
حاراً ، وإن فركه شمالاً خرج بارداً .

وفي الأندلس كان لأمير المؤمنين في عهد المرابطين مقصورة تتحرك
بواسطة عجلات [تاريخ الأندلس ليوسف شاخ ، ج ٢ / ص ٢٥٣] .
ونجد أخباراً أوسع من ذلك عن اللولب والحركات والصور في
[مطالع البدور للغزولي ، المجلد ٢ / ص ١ - ١٨] ، ففيه يصف لنا حماماً
عجيب الصنعة فيه صورة عارية ولواليب وغير ذلك .

(١) يقول الحق (طبعة حيدرآباد الأولى) الكلمة في الأصل (بشيون) ولم يشرحها . لعل الكلمة بمعنى

(صنبور) - المنقح .

الحياة العابثة :

وطبيعي أن هذه الوسائل كانت تخلق عند أصحابها نوعاً من الرفاهية يزداد مع الزمن ، ومن تلك الرفاهية يحدث نوع من الحياة العابثة المرتبة على سبيل يرضي صاحبها ، ويمتعه بمسرات الحياة : فهذا هو الأمين الخليفة المخلوع ، كان يعيش تلك الحياة الصاخبة العابثة ، ويرتب أموره على هذا الأساس ، قال أحد المغنين [الأغاني - الجزء / ١٦ ، من ص ١٣٣] : « مرت بي ليلة ما مرّ بي قطّ مثلها ، جاءني رسول محمد الأمين وهو خليفة ، فأخذني وركض بي إليه ركضاً ، فحين وافيت ، أتني بإبراهيم بن المهدي على مثل حالي ، فنزلنا ، وإذا هو في صحن لم أر مثله ، قد ملئ شمعاً من شمع محمد الأمين الكبار ، وإذا به واقف ، ثم دخل في الكرج^(١) ، والدار مملوءة بالوصائف يغنين على الطبول والسرنايات^(٢) ، ومحمد في وسطهن يرتكض في الكرج ، فجاءنا رسوله فقال : قوما في هذا الباب مما يلي الصحن ، فارفعوا أصواتكما مع السرنابي أين بلغ ، وإياكما أن أسمع في أصواتكما تقصيراً عنه ، قال : فأصغينا ، فإذا الجواري والمخنثون يزمرون ويضربون :

هذي دنانير تنساني وأذكرها وكيف تنسى مُحِبّاً ليس ينساها
فما زلنا نشقّ حلوقنا مع السرنابي ، ونتبعه حذراً من أن نخرج عن طبقته ، أو تقصّر عنه ، إلى الغداة ، ، ومحمد يجول في الكرج ما يسأمه ، يدنو إلينا مرة في جولانه ، ويتباعد مرة ، ويجول الجواري بيننا وبينه حتى أصبحنا . »

(١) يفهم من (الكرج) أنها أداة تسلية تشبه ما يسميه العامة الآن (دَوِيْجَة) - المنقح .

(٢) يبدو من النص أن السرنابات إما أن تكون آلات موسيقية وضعها للفتي (السرنابي) الذي ورد

اسمه في النص ، أو أنها أدوار غنائية منسوبة إلى (السرنابي) نفسه - المنقح .

المال يذهب هدرًا :

هذه حياة كان يحياها الباذخون والمترفون ، لم تكن تصيب الشعب بأجمعه ، إنما تصيب منه حلقات معدودة ، ذات يُسر . كان بعض أفراد الشعب يستفيد من ذلك اليسر ومن أعمال أصحاب اليسر في أشياء إلا أن هذه النفقات تضيع هدرًا ، ولا تذهب في طريقها الصحيح .

المال يذهب في طريقه :

إليكم مثلاً عن نفقات تذهب في طريقها الصحيح : من القاهرة مثلاً ، كان البيارستان المنصوري ، وهو بيارستان وضع لخدمة الشعب ، ويصف لنا خالد البتلوي ذلك البيارستان في [تاج المفرق ، في الورقة / ٧٥ الوجه الأول ، من نسخة الظاهرية رقم : جغرافيا ١٠٨] ، فيقول : « ولو لم يكن للقاهرة ما تذكر به ، إلا المارستان وحده ، وهو قصر عظيم من القصور الرائقة حسناً وجمالاً واتساعاً ، لم يعهد مثله بقطر من الأقطار أحسن بناءً ، ولا أبرع إنشاءً ، ولا أكمل انتهاءً في الحسن والجمال أخبرني الشيخ العالم المؤرخ شمس الدين الكركي المذكور أنه يكمل فيه في كل يوم من المرضى الداخلين إليه ، والناقلين الخارجين منه ، أربعة آلاف (كذا) نفس ، وتارات يزيدون وينقصون ، ولا يخرج منه كل من يبرأ فيه من مرضى ، حتى يعطى إحساناً إليه وإنعاماً عليه : كسوة للباسه ، ودراهم لنفقاته . وأما ما يعالج به المرضى فيه من قناطير الأشربة المقطرة ، والأكحال الرفيعة الطيبة التي تسحق فيها دنانير الذهب والإبريز ، وفصوص الياقوت النفيس ، وأنواع اللؤلؤ الثمين ، فشيء يهول السمع ، ويعمّ ذلك الجمع ، إلى ما يضاف إلى ذلك كلّه من لحوم الطيور والأغنام على اختلافها ، وتباين أصنافها ، مع ما يحتاج إليه كل واحد ممن يوافيه ، ويحلّ فيه بفراشه وعرشه

من غطاء ووطاء وشموع ومذرور ، وشبه ذلك ، مما هو معدّ على أكمله هنالك ، وما ليس مثله إلّا في منزل أمير أو خليفة ، وقد رتّب على ذلك كله من الأطباء الماهرين ، والشهود المبرّزين ، والنظار العارفين ، والخدام المتصرّفين ، كل ما هو في معالجته ، موثوق بعدالته . . . وفي مصر مارستان آخر على مثاله . . . » .

مظاهر الحضارة المادية الجميلة والغنية :

حسبنا هذا الوصف عن الحضارة المادية ، يقدمه لنا هلال بن الحسن الصابي في تاريخ بغداد (المجلد / ١ ، ص / ١٠٠) قال : « ولقد ورد رسول لصاحب الروم في أيام المقتدر ، ففرشت الدار بالفروش الجميلة ، وزينت بالآلات الجليلة ، ورتّب الحجاب وخلفاؤهم والحواشي على طبقاتهم . على أبوابها ودهاليزها وممراتها ومختبرقاتها وصحونها ومجالسها ، ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة ، وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة . . . وفي دجلة الشذات (كذا) والطيارات والزبازب والدلالات والسّمريات^(١) ، بأفضل زينة وأحسن ترتيب وتعبئة . . . » .

وعن ابن المسلمة (في الكتاب نفسه ص ١٠١) « وكان عدد الجيش مائة وستين ألف فارس وراجل . . . ثم رُسم أن يُطاف به (بالرسول) في الدار ، وليس فيها من العسكر أحد البتّة ، وإنما فيها الخدم والحجاب والغلمان السودان ، وكان عدد الخدم سبعة آلاف بيض ، وثلاثة آلاف سود ؛ وعدد الحجاب سبعمائة حاجب ، وعدد الغلمان السودان غير الخدم أربعة آلاف غلام . . . »

(١) يفهم من النص أن هذه الشذات والطيارات . . . مراكب متنوعة في دجلة - المنقح .

وفي المصدر نفسه عن القاضي أبي الحسين ابن أم شيبان ص ١٠٢ « كان عدد ما علّق في قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبة بالطرز المذهبة الجليلة ، المصورة بالجاماث والفيلة والخيل والسباع والطرْد^(١) والستور الكبار . . . ثمانية وثلاثين ألف ستر . . . وعدد البسط والنخاخ^(٢) الجهرميّة^(٣) ، والدارابجرديّة والدّورقيّة في الممرات والصحون التي وطئ عليها القوّاد ورُسُل صاحب الروم ، من حدّ باب العامّة الجديد إلى حضرة المقتدر بالله ، سوى ما في المقاصير والمجالس من الأنماط الطبري . . اثنان وعشرون ألف قطعة . . ثم أدخلوا من هذه الدار إلى الممرات والدهاليز المتصلة بحَيْر^(٤) الوحش ، وكان في هذه الدار من أصناف الوحش التي أخرجت إليها من الحَيْر ، قطعان تقرب من الناس ، وتتشمّمهم وتأكل من أيديهم . . ثم أخرجوا إلى دار فيها مائة سبع ، خمسون يمينه وخمسون يشرة ، كل سبع منها في يد سَبَاع ، وفي رؤسها (كذا) وأعناقها السلاسل والحديد . . ثم أخرجوا من هذه الدار وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة مدورة ، فيها ماء صاف ، وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها شاخات كثيرة ، عليها الطيور والعصافير من كل نوع ، مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضّة ، وبعضها مذهب . وهي تتمايل في أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجرة ، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدير ، وفي جانب الدار يَمْنَة البركة ، تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر (كذا) فرساً ، قد ألبسوا الديباج وغيره ، وفي

(١) الطرد : وهي طرائد الصيد كالغزلان والأرانب . . . المنقح .

(٢) النخاخ : جمع نخ وهو البساط الطويل - المنقح .

(٣) نسبة إلى مكان صنعها - المنقح .

(٤) حير : الحدائق والبساتين - المنقح .

أيديهم مطارد على رماح ، يدورون على خط واحد من الناورد خيباً
وتقريباً ، فيُظَنُّ أنَّ كل واحد إلى صاحبه قاصد . » .

في هذا الخبر خلاصة يمكن أن تعطي فكرة عن مظاهر تلك الحضارة
الزاهية التي عاشها أجدادنا^(١) في قديم العهد ، ويظهر أنهم لم يفتهم إلا
وسائل المدنية المخترعة حديثاً من بخار وكهرباء وذرة .



(١) من المفهوم أننا لا نفخر بالإسراف الظاهر في مثل هذه الأخبار ، ولكن الغاية من ذكرها أن ندل
بذلك فقط على مستوى الحضارة . ومن المؤسف حقاً أن يغتر الخليفة بمثل هذا السرف ، في الوقت الذي كان يعجز
فيه عن دفع رواتب الجنود - المتقح .

الفهارس

أولاً	: أسماء الأشخاص
ثانياً	: أسماء المواضع
ثالثاً	: المصطلحات
رابعاً	: فهرس الموضوعات

أولاً : أسماء الأشخاص

الألف	
إبراهيم بن الأغلب : ٨٠	ابن خلدون : ٩٥
إبراهيم بن سنان : ٢٥٣	ابن سينا : ٢٤٨
إبراهيم بن عبد الله (أخو النفس الزكية) : ٣٧ ، ٣٨ .	ابن طلائع (الملك العادل) : ٢٢٧
إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب : ٩٣	ابن عائشة : ٩٣
إبراهيم بن محمد بن علي : ١٤ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩	ابن الفرات : ١٧٤
إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين : ٢٦٤	ابن قتيمة الجوزية : ٢٤٤
إبراهيم بن المهدي : ٩١ ، ٢٦٦	ابن كثير : ٧٨
إبراهيم بن موسى بن جعفر : ٩٥	ابن كلس (يعقوب بن يوسف) : ٢٢١
إبراهيم بن هلال الصابي : ٢٥٩	ابن المرخم : ٢٦٤
ابن الأثير : ٩٥ ، ١١٩	ابن المسلمة : ٢٦٨
ابن بيهس الكلبي : ٩٣	ابن مقلة : ١٨١ ، ١٨٢
ابن الجوزي : ٢٦٠	ابن مكّي الأحذب : ٢٦٥
ابن حوشب : ١٥٩ ، ٢٠٨	ابن نباتة : ٢٠٤
ابن خالويه اللغوي : ٢٠٤	ابن هبيرة : ٢٢
	ابن وافد الأندلسي : ٢٤٦
	أبو بكر الرازي : ٢٤٥ ، ٢٤٨
	أبو بكر : ٥٤
	أبو جعفر الطبري : ٢١ ، ٢٤ ، ٨١ ، ٩٣
	٩٤ ، ٩٥ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ٢٥٢

أبو معاوية الضرير : ٦١	أبو جعفر المنصور : ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ،
أبو هاشم محمد بن الحنفية : ١٥	٢٣ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٠ ، ٤١ ،
أبو الهيجاء بن حمدان : ٢٠٠	٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ،
أبو يزيد الخارجي : ٢١٠	٥٢ ، ٦٩ ، ١٣٦ ، ٢٠٩ ، ٢٢١ ، ٢٤٠ ،
أبو يوسف القاضي : ٤٣	أبو الجهم : ٢٩
أتامش : ١١٨	أبو الحسن الأشعري : ٢٣١
أحمد بن أبي خالد : ٩٥ ، ١٤٠	أبو الحسن البادنجي : ٢٥٩
أحمد بن أبي طاهر : ٢٥٨	أبو الحسن الطبري : ٢٦٤
أحمد بن بويه : انظر معز الدولة .	أبو الحسين بن أم شيبان (القاضي) : ٢٦٩
أحمد بن طولون : ١٢٩ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،	أبو حميد المروروذي : ٣٣
١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩	أبو السرايا : ٩٤
أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح : ١٥٧	أبو سعيد (انظر الحسن بن بهرام الجنابي) .
أحمد بن محمد الكراريسي .	أبو سفيان : ٥٤
(أبو الحسن) : ٢٦٣	أبو سلمة الخلال : ٢٢ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٤ ،
أحمد بن المدبر : ١٤٥	أبو الطيب المتنبّي : ٢٠٣
الإخشيد (محمد بن طغج) : ١٥٠ ، ٢٠١ ،	أبو العباس السفاح : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ،
٢١١	٣١ ، ٣٢ ، ٤٩ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ،
الإدريسي : ٢٥٢	أبو عبد الله الشيعي : ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،
أرسططاليس : ٢٢٨	أبو فراس الحمداني : ٢٠٤
إرنهارد : ٧٠ ، ٨٢	أبو الفرج الأصفهاني : ٢٠٤ ، ٢٦٦ ،
إسحق بن إبراهيم : ٩٦	أبو فروة كيسان : ٨٥
إسحق بن موسى بن عيسى : ٩٤	أبو قاسم خلف الزهراوي : ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،
إسماعيل بن أحمد بن أسد : ١٤٤	أبو محمد المهلي : ٢٥٩
إسماعيل بن جعفر الصادق : ١٥٤	أبو مسلم الخراساني : ١٤ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ،
أشناس : ١٠٣	٢٣ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ،
الإصطخري : ٢٥٢	٥٤ ، ٦٩ ، ٢٠٩

الأصفهاني (أبو الفرج) .	بروكلمان : ٨٣ ، ٢٥٦
إقليدس : ٢٢٨ ، ٢٥٤	البَرِّيْدِي : ٢٠٠
أماجور : ١٤٦	بشار بن برد : ٥٣
الآمر بأحكام الله : ٢٢٦	بطليموس : ٢٢٨ ، ٢٥٠
أم المقتدر : ١٨١	بُغا : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٨
الأمين (محمد) : ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٢٣ ، ١٤٠ ، ١٩٩ ، ٢٦٦	بكير بن ماهان : ٢٩
الأندلسي (انظر ابن وafd الأندلسي) .	بنت قاروط : ٢٦٥
إبقراط : ٢٢٦	بهاء الدولة : ١٩٨
إيتاخ : ١٠٣ ، ١٠٦	بهبوذ (صاحب الزنج) : ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٥٥
إيريني : ٨١	بهرام جور : ١٨٧
	بوئيتيوس : ٢٥٤
	بوران (امرأة المأمون) : ٢٦١

التاء

ترشك : ٢٦٥
توزون : ١٨٢ ، ٢٠٠
تكين بن عبد الله الخزري : ١٥٠
تیشوبراهي : ٢٥١
تيودورة : ١١١
تيودوريك الكبير : ٢٥٤
تيوفيل : ١١٠

الجيم

جابر بن عبد الله : ٢٢٥
الجاحظ : ٤٧
جالينوس : ٢٢٨

الباء

بابك الخرمي : ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٨
باسيل : ٢٠٥
باغر : ١١٨
بايكباك : ١١٩ ، ١٤٥
البتاني : ٢٥١
بجكم الرائقي : ١٨٣
بختيار بن معز الدولة : ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٧
بدر الجمالي : ٢٢٥ ، ٢٢٦
بدر (عامل المعتضد) : ١٦٠
البرجُمي (كبير العيارين) : ١٩٧
بركياروق : ٢٦٤

- جبرائيل بن بختيشوع : ٢٦٢
 جربرت : ٢٥٤ (البابا سلفستر الثاني)
 جربرت بن يزيد البجلي : ٣٣
 جعفر بن الفرات : ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢١١
 جعفر بن يحيى البرمكي : ٦١ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٩٩ ، ٩١ ، ٧٩
 جعفر الرقاص : ٢٦٥
 جعفر الصادق : ١٥٣ ، ١٥٤
 جعلان : ١٢٦
 الجنابي (انظر الحسن بن بهرام) .
 جنكيز خان : ١٢٩
 جهّور بن مرار العجلي : ٣٤
 جوهر الصقلي : ١٥٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢٢٢
 جيش بن خمارويه : ١٤٧ (يصحّح)
 الحاء
 حاجي خليفة : ٢٣٤
 الحاكم بأمر الله الفاطمي : ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٢
 حبش الحاسب : ٢٤٩
 الحجاج بن يوسف : ٣٢
 حسن إبراهيم حسن : ٩٥
 الحسن بن أبي الهيجاء : ٢٠٠
 الحسن بن بهرام الجنابي : ١٥٩ ، ١٦٢
 حسين بن حسن الأفطس : ٩٤
 حسن بن حمدان : ١٨٣
 الحسن بن زيد بن علي : ١٥٢
 حسين بن زكرويه (صاحب الشامة) : ١٦١
 الحسن بن سهل : ٩٢ ، ٢٦١
 الحسن بن علي بن أبي طالب : ٥٥
 حسن بن علي الأطروش (ناصر الحق) : ١٥٢
 الحسن بن عمر بن الخطاب : ٢٠٠
 الحسن بن قحطبة : ٢٢
 حسين الأهوازي : ١٥٨
 الحسين بن حمدان : ٢٠٠
 الحسين بن علي بن أبي طالب : ٥٥
 الحسين بن علي بن ماهان : ٨٩
 الحسين بن القاسم : ١٧٩
 حمدان (رأس الأسرة الحمدانية) : ٢٠٠
 حمدان قرمط : ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢
 حمزة : ٢٢٣
 حنين بن إسحاق : ٢٣٨ ، ٢٦٢
 الحناء
 خدّاش : ١٤ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٤
 خلف الزهراوي (أبو القاسم) : ٢٤٧ ، ٢٤٨
 ٢٧٦ -

خليل بن أحمد الفراهيدي : ٢٥٦

خارويه بن أحمد بن طولون : ١٤٧

الخوارزمي : ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤

زيد بن علي : ١٥١ ، ١٥٢

السين

سارتون : ٢٥٣

سامان خواده : ١٤٣

سانغال (القيس) : ٨٣

سبكتكين : ١٩٢ ، ١٩٧

ست الملك : ٢٢٤

سعد الدولة : ٢٠٤ ، ٢٠٥

سعيد الدولة : ٢٠٥

السرناي : ٢٦٦

السفاح (انظر أبو العباس) .

سلفستر الثاني (البابا) : (انظر

جربرت) .

سليمان بن حسن بن مخلد : ١٨٢

سليمان بن كثير الخزاعي : ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٩

سينان بن ثابت الحراني : ٢٤٥ ، ٢٤٦

سنباذ : ٣٤

سهل بن هارون : ٦٧

السيدة أم المقتدر : ١٩٨

سيف الدولة : ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٢

٢٠٣ ، ٢٠٤

الشين

شارلمان : ٨٣

الدال

درزي : ٢٢٣

درهم بن نصر : ١٤٢

الدمستق : ٢٠٢ ، ٢٠٣

دينار بن عبد الله : ٩٥

الراء

الراضي (أحمد بن المقتدر) : ١٨٠ ، ١٨١ ،

١٨٣

رافع بن الليث بن نصر : ٨٤

الرضا (انظر علي بن موسى) .

ركن الدولة : ١٩٧

روزبهان الديلمي : ١٩٢

الزاي

زبيدة : ٧٤

زكرويه بن مهرويه : ١٦٠ ، ٢٠٩

زمباور : ٧٨ ، ٩٥ ، ١٤٤

الزهراوي (انظر أبو القاسم وخلف)

زياد بن أبيه : ٥٤ ، ٩٥ ، ١٥١

زيد بن ثابت الأنصاري : ٢٣٥

الظاء

الظاهر : ٢٢٤

العين

العاقد : ٢٢٧

العباس بن حسن الجرجرائي : ١٧٠ ، ١٧١

العباسة (أخت الرشيد) : ٦٩

عبد الجبار المحتسب : ٥٣

عبد الرحمن بن أحمد : ٩٥

عبد الرحمن بن عيسى بن الجراح : ١٨٢

عبد الرحمن الثالث : ١٣٣ ، ٢١٠

عبد الله بن طاهر : ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ،

١٨٠ ، ١٤١

عبد الله بن علي : ٢٢ ، ٣١ ، ٣٢

عبد الله بن عمرو بن العاص : ٢٣٥

عبد الله بن المعتز : ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢

عبد الله بن ميمون القداح : ١٥٦ ، ١٥٧

عبد الملك بن الزيات : ١١٥

عبد الملك بن صالح : ٦٣ ، ٧٦ ، ٧٧

عبدان : ١٥٩ ، ١٦٠

عبيد الله المهدي (حفيد ميمون القداح) :

١٦٢ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩

عثمان بن عفان : ٨٥

عجيف بن عنيسة : ٩٤

العزیز نزار بن المعز الفاطمي : ٢٢١

عضد الدولة : ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٧

١٩٨

شجاع بن أسلم المصري : ٢٥٣

شعب (والده المقتدر) : ١٧٢

شمس الدين الكركي : ٢٦٠ ، ٢٦٧

شركوه الأيوبي : ٢٢٧

الصاد

صاحب الزنادقة (عمر الكلوازي) : ٥٣

صاحب الزنج : انظر يهود .

صاحب الشامة : انظر حسين بن زكرويه .

صاحب الناقة : انظر يحيى بن زكرويه .

صالح بن عبد القدوس : ٥٣

صلاح الدين الأيوبي (يوسف بن

أيوب) : ١٤٩ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣

الطاء

طاهر بن الحسين : ٨٩ ، ٩٥ ، ١١٨ ،

١٤٠ ، ١٩٩

طاهر بن عبد الله : ١٤١

طاهر بن محمد بن عمرو : ١٤٣

الطبري (انظر أبو جعفر) .

طنج : ١٥٠ ، ١٦١

طغرل بك السلجوقي : ١٩٨

طلائع بن رزيك (الملك الصالح) :

٢٢٦ ، ٢٢٧

طلحة بن طاهر : ٩٦ ، ١٤١

الطوسي : ٢٤٩

علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) :

٢٣٥ ، ١٥٣ ، ٣٦

علي بن بويه : ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩

علي بن عباس المجوسي : ٢٤٨

علي بن عيسى الجراح : ١٧١ ، ١٧٤ ،

١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٩٤ ، ٢٤٦

علي بن عيسى الكحال : ٢٤٨

علي بن عيسى بن ماهان : ٦٨ ، ٨٤ ،

٨٩ ، ٨٥

علي بن موسى (علي الرضا) : ٩١ ، ٩٢

علي بن يقطين : ٥٥

علي الرضا : انظر علي بن موسى

عماد الدولة : ١٩٧

عمر بن عبد العزيز : ١٦ ، ١١٩

عمر الحيام : ٢٤٩ ، ٢٥١

عمر الكلوازي : انظر صاحب الزنادقة .

عمرو بن الليث : ١٤٣

عيسى بن موسى بن علي : ٣٧ ، ٣٨

عيسى بن نسطوريوس : ٢٢١

الفاء

الفائز : ٢٢٦

الفارابي : ٢٠٤ ، ٢٥٣

فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني : ٩٦

فاطمة بنت محمد (علي بن أبي طالب) : ١٧ ، ٢٠٦

فاطمة بنت يعقوب بن الفضل : ٥٥

فخر الدولة : ١٩٧ ، ١٩٨

الفضل بن الربيع : ٧٠ ، ٧٤ ، ٨٥ ، ٨٧

الفضل بن سهل : ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ،

٩١ ، ٩٢ ، ٩٣

الفضل بن يحيى البرمكي : ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٤

فرغويه : ٢٠٤

القاف

القاسم بن هارون الرشيد : ٧١ ، ٧٧

القاسم الرسي : ١٥٢

القاهر : ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١

قبيحة (والدة المعتز) : ١١٩

قحطبة : ٢١ ، ٢٢

قسطنطين بن الدمستق : ٢٠٣

قطر الندى : ١٤٧

الكاف

كاردانو : ٢٥٦

كافور الإخشيدي : ١٥٠ ، ٢٠١ ، ٢١١

كشاجم : ٢٠٤

اللام

لؤلؤ : ١٢٩ ، ١٤٦ ، ٢٠٥

الميم

المازيار : ١٠٨

المأمون (عبد الله) : ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٨ ،	محمد بن طُفَّج (انظر الإخشيد) .
٦١ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ،	محمد الطيب (انظر ميهون القداح)
٧٦ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ،	محمد بن الطيب الباقلاني : ٢٣٢
٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،	محمد بن عبد الله بن طاهر : ١٥١
٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١٣٢ ،	محمد بن علي بن عبد الله بن عباس : ١٥ ،
١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٥١ ،	١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٩ ،
٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ،	٢٠٧
٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ،	محمد بن القاسم الكرخي : ١٨٢
المأمون بن عبد الله بن طاهر : ٩٣	محمد بن موسى : ٢٥٤
ماني : ٥٢	محمد الطيب : انظر ميهون القداح .
المبرقع : ٩٣	محمد بن المنصور (انظر المهدي) .
المتقي : ١٨٣ ، ٢٠٠	محمد النفس الزكية ابن عبد الله : ٣٦ ،
المتوكل : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،	٣٧ ، ٣٨
١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٤ ،	محمد بن ياقوت : ١٧٩ ، ١٨١
١١٧ ، ١٩٩	محمد بن يحيى : ١٨٣
محمد بن إبراهيم الزياتي : ٩٥ ، ١٣١ ، ١٥١	محمود بن سُبُكْتِكِين الغزنوي : ١٤٤ ، ١٩٨
محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق	المختار بن أبي عبيد الثقفي : ٢٦ ، ١٥٣
(المهدي المنتظر) : ١٥٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨	مرداويج بن زيار : ١٨٦ ، ١٨٩
محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن	مروان الحمار : ٢٢ ، ٢٩ ، ٣١
الحسين : ٩٤	المستعلي : ٢٢٦
محمد بن خالد بن برمك : ١٧٨	المستعين : ١١٣ ، ١١٨
محمد بن داود بن الجراح : ١٧١	المستكفي : ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩١
محمد بن رائق (أمير الأمراء) : ١٨٢ ،	المستنصر : ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦
١٨٣ ، ٢٠٠	مسرور : ٦١
محمد بن سليمان الكاتب : ١٦١	المسعودي : ٢٥٢ ، ٢٥٣
محمد بن طاهر : ١٤١	المطيع : ١٩٠

الملك العادل (ابن طلائع) : ٢٢٧	معاذ بن مسلم : ٥٤
المنتصر : ١٠٧ ، ١١٧	معاوية بن أبي سفيان : ٤٣
المنصور (انظر أبو جعفر) .	المعتز : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ١١٩
المهتدي : ١١٩	المعتصم : ٤٨ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،
المهدي محمد : ٣٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،	١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،
٥٣ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٢	١١٢ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٤٤
المهدي (انظر عبيد الله)	المعتضد (أحمد بن الموفق) : ١٢٩ ،
المهدي المنتظر : انظر محمد بن إسماعيل بن	١٤٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
جعفر الصادق	١٦٧ ، ٢٠٠
موسى بن الأمين : ٨٧ ، ٨٨	المعتد بن التوكل : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ،
موسى بن المهدي (انظر الهادي)	١٤٧ ، ١٦٥
موسى بن يحيى : ٦٧	معز الدولة : ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،
موسى الكاظم بن جعفر الصادق :	١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٥٩
٥٨ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٧٤	المعز لدين الله الفاطمي : ٢١١ ، ٢١٢ ،
الموفق : ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ،	٢١٥ ، ٢٢١ ،
١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٥	معن بن زائدة الشيباني : ٣٤
مؤنس الحاد : ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ،	المقتدر بالله : ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١	١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
مؤنس الحازن : ١٧٣	٢٠٠ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٩
المؤيد : ١٠٧	المقريري : ٢٥٢
مؤيد الدولة : ١٩٧	المقنع : ٥٤
ميون القداح : (محمد الطيب) : ٢٠٦ ، ٢٠٧	المكتفي : ١٤٨ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
النون	١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠
الناصر : ١٩٦	الملك الأفضل بن بدر الجمالي : ٢٢٦
ناصر الحق : انظر حسن بن علي الأطروش	الملك الصالح : انظر طلائع بن رزيك .
ناصر خسرو : ٢٢٥	الملك الظاهر : ٢٢٤ ، ٢٦٠

الواو

الوائق : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٤

واصل بن عطاء : ٢٤٢

وصيف : ١٠٧ ، ١١٨

ولهاوزن : ١٤ ، ٢٣

الوليد بن عبد الملك : ٢٤٤

وليم أوسلير : ٢٤٨

الياء

ياقوت (الوزير) : ١٧٨

يحيى بن خالد البرمكي : ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٨

يحيى بن الحسين الرسي (الهادي إلى

الحق) : ١٥٢

يحيى بن زكرويه (صاحب الناقة) :

١٦٠ ، ١٦١

يحيى بن عبد الله العلوي : ٥٨ ، ٦٣ ،

٧٤ ، ٧٠ ، ٧٤

يزدان بن باذان : ٥٥

يزيد بن الفيض : ٥٣

يعقوب بن إبراهيم : انظر (أبو يوسف القاضي)

يعقوب بن الفضل : ٥٥

يعقوب بن الليث الصفار : ١٢٧ ، ١٤١ ، ١٤٢

يعقوب بن يوسف : انظر (ابن كلس)

يعقوب الكندي : ٢٥٦

يقطين : ٥٥

يوحنا بن البطريق : ٢٣٨

يوسف بن أيوب : انظر صلاح الدين الأيوبي

نزار (أخو المستعلي) : ٢٢٦

نصر بن أحمد بن أسد : ١٤٤

نصر بن سيار بن شيث : ٢١ ، ٩٣

النفس الزكية : انظر محمد بن عبد الله .

نقفور الأول : ٨١ ، ٨٢

نقفور الثاني الفقّاش : ٢٠٣

نوح بن إسماعيل بن أحمد : ١٤٤

الهاء

الهادي (موسى) : ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ،

٥٨ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٨

الهادي إلى الحق (انظر يحيى بن الحسين) .

هارون (الخارجي) : ٢٠٠

هارون الرشيد : ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ،

٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ،

٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ،

٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ،

٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ ،

٩٣ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٤٠ ،

٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٢

هاشم بن عبد مناف : ٣٩

هرثمة بن أعين : ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٩

هشام بن عبد الملك : ١٤٣

هلال بن حسن الصابي : ٢٦٨

هولاكو : ١٢٩

ثانياً : أسماء المواضع

البحرين : ١٥٩ ، ١٦٢ ، ٢٠٠	الألف
بخارى : ١٤٣ ، ١٤٥	أبو الخصيب (نهر) : ١٢٥
البصرة : ٢٧ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٥٥ ، ١٨٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٦٢	الإحساء : ١٦٨
بغداد : ٢٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٥٨	أذربيجان : ٩٧ ، ١٠٩
	الأردن : ٩٣ ، ٢٠١
	الاسكندرية : : ٩٤ ، ٢١٠ ، ٢٣٦
	أصفهان (أصفهان) : ١٨٦
	إفريقية : ٨٠ ، ١٣١ ، ٢١٢ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩
	الأنبار : ٣٩ ، ٧٣ ، ٧٥
	الأندلس : ٢٢ ، ٦٠ ، ٩٤ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٦٥
	أنقرة : ٨٢
	الأهواز : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٨٦ ، ١٩٢
	أوروبا : ٢٣٤
	إيران : ٦٣١ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٥٩ ، ١٨٤ ، ١٨٥

بلاد بيزنطة : ٨١
بلاد عكّ (في الصين) : ٩٥
بوصير : ٢٢ ، ٢٩

البياء
باب الشام (ببغداد) : ٤١
بحر الخزر : ٢٢٨ ، ٢٢٩

بين السورين (في بغداد) : ٤١

الحاء

خراسان : ١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ،
٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ،
٣٣ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٢ ،
٧٥ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
٩٩ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،
١٤٤ ، ١٨٥

الخزر : (انظر بحر الخزر) .
الخليج العربي : ٩٤

الدال

دائق : ٥٣
دجلة : ٣٩ ، ٤٥ ، ٢٦٨
دمشق : ٩٣ ، ١٠٦ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٠١ ،
٢٤٤
ديار بكر : ٢٠٠
دير عاقول : ١٤٣
السديلم : ٥٨ ، ٦٥ ، ٧٤ ، ١٦٣ ، ١٨٣ ،
١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٢٨

الراء

الرّصافة (الشطر الآخر من بغداد) : ٤٥
الرّقة : ١٧٧
الرّها : ٢٣٦
الرّي : ١٨٦ ، ١٨٩

التاء

تهامة : ٩٥

تونس : ٧٩ ، ٢٠٩

الجيم

جرجان : ١٣١ ، ١٥٢ ، ١٨٥
الجزائر : ٧٩
الجزيرة : ٢٠٠ ، ٢٠١
جزيرة ابن عمر : ٢٠٠
جنبلأ : ١٥٩
جَنَدَ يسابور : ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٦٢
الجيزة : ٢١٥

الحاء

الحجاز : ١٧ ، ٣٧ ، ٥١ ، ٩٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٢
حرّان : ٢٣٦
حلب : ٩٣ ، ١١٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ،
٢٠٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٩

حماه : ٢٠٧

حص : ١٦١

الحَمِيْمَة : ١٨٠

حي الكرخ (في بغداد) : ٤١

حيدرآباد : ٢٦٥

النزاي

الشام : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٥٩ ، ٦٦ ،

٩٧ ، ٩٩ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ ،

١٦٦ ، ١٨٤ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،

٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٧ ،

٢٢٧ ، ٢٣٦

الشماسية (حي ببغداد) : ١٧٩ ، ٢٤٩

شيراز : ١٨٩

الزباب : ٢٢

زبطرة : ١١٠

زبيد : ٩٥ ، ١٥١

زنجبار : ١٢١

الزوراء (ببغداد) : ٣٩

السين

سامراء (سر من رأى) : ١٠٢ ، ١٠٣ ،

١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،

١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٩ ، ١٥٦ ،

سبام : ٥٤

سبتة : ٢١٠

سجستان : ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٤٢ ، ١٨٥

سجلاسة : ٢٠٩

سر من رأى : انظر سامراء .

السلمية (سلمية) : ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ،

١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٠٧ ،

سمرقند : ٨٤ ، ١٤٣

سورية : ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٧ ،

١٦٢ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢١١ ،

٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦

السوس : ٢٦٢

الصاد

صعدة : ١٥٢

صقلية : ٢١٥

صنعاء : ١٥٢

الصومال : ١٢١

الصين : ١٠١ ، ١١٤

الطاء

طبرستان : ١٠٨ ، ١٤٢ ، ١٥٢ ، ١٨٥ ،

١٨٦

طرسوس : ١٤٥

طوس : ٨٤ ، ٩٢

العين

العراق : ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٧٥ ، ٧٨

٨٦ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٥

١٠٦ ، ١٠٧ ، ٢١٦ ، ١٢١ ، ١٣١

الشين

الشاش : ١٤٣

التون

نجران : ١٥٢
نخشب : ٢٦٣
نضيبين : ٢٣٦
النهروان : ٥٥
النيل : ٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢١٥

الهاء

الهاشمية : ٣٩ ، ٣٤ ، ٣٣
هراة : ١٤٣
هرقلة : ٨٢
هزمان : ١٨٦ ، ٩٦
المند : ١٤٢

الواو

واسط : ١٨٢ ، ١٥٩ ، ١٢٨ ، ١٢٦ ، ١٢١

الياء

الين : ١٣١ ، ٩٥ ، ٩٤ ، ٥١ ، ٢٤ ، ٢٣
١٣٤ ، ١٥٩ ، ١٥٢ ، ١٥١ ، ١٥٠
٢٠٨ ، ١٦٣
اليونان : ٢٥٤ ، ١١٠

مراغة : ٢٤٩

مراكش : ٢٢٨ ، ٢١٠

مرو : ٩٢ ، ٥٣ ، ٢٠

المشرق : ٢٥٥ ، ٢٣٣ ، ١٤٣

مصر : ٢٢ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٥١ ، ٨٠ ، ٩٤

٩٧ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،

١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٨٤ ، ١٩٩ ،

٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ،

٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ،

٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ،

٢٢٧ ، ٢٣٦ ، ٢٦٨

المغرب : ٦٠ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٣١ ،

٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٧ ،

٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٩

مكة المكرمة : ٢٤ ، ٥١ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٨ ،

٩٤ ، ١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٧١ ، ٢٠٨ ،

المهدية : ٢٠٩ ، ٢١٦

الموصل : ١٤٧ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ٢٠٠ ،

٢٠٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩

الموقية : ١٢٨

المؤمنية : ١٦٢

ثالثاً : المصطلحات

الأنصار : ٥١	الألف
أهل الذمة : ١٠٥	الأثاوات : ١٩٤
	الإخشيديون : ١٣١ ، ٢٠١
الباء	الأدرسة : ٦٠ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٣١ ، ٢٠٨ ، ٢٢٨ ، ٢١٠
البابكية (الحرّمية) : ١٦ ، ١٩ ، ٣٤ ، ١٠٨ ، ٩٦	الأزارقة : ١٢٣
الباقلانية : انظر الأشعرية .	الإسماعيلية (السبعية - الوقفية) : ١٥٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٣
البشوق (سد البشوق) : ١٩٤	الأشعرية (الباقلانية) : ٢٢٢ ، ٢٣٣
البرامكة : ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ٧٥ ، ٧٤ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٨ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٢٦٢	الاعتزال : ٢٢٩
بنو الأغلب : ٦٠ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٣١ ، ٢٠٩ ، ١٤٠	الأفلاطونية الحديثة (الجديدة) : ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٥٦
بنو تغلب : ١٩٩ ، ٢٠٠	الأقرباذين : ٢٤٦
بنو ثقيف : ٥٤	الأكراد : ١٦٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢١
بنو جفنة : ٨١	آل الجراح : ١٧١
بنو عبد القيس : ١٦٢	آل علي : ١٥ ، ٢٩ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١٢٢ ، ١٢٢ ، ١٨٦ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨
بنو العُليص : ١٦٠	الألفة : ١٥٩
بنو هاشم : ٦٢	
البويهيون : ٤٢ ، ١٤٠ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩	

١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،

٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ،

بيت الحكمة : ٦٧ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،

البيمارستان العضدي : ١٩٥

البيمارستان الكبير : ٢٤٤

البيمارستان المنصوري : ٢٦٩

التاء

التار : ١١١ ، ١٢٩ ، ٢٤٩ ،

التمود : ٢٤١

الجيم

الجريدة (وهي الميزانية) : ١٧٧

الدال

دار الحكمة : ٢٢٣

دار العلم لسابور (في بغداد) : ٢٣٢

دار العلم في حلب : ٢٠٤

دار العلم في مصر : ٢٢٣

الدارين (قصر سيف الدولة) : ٢٠٣ ،

٢٠٤

الدعوة العلوية : ١٧ ، ١٠٥ ، ٢٣٠

الدولة الزيادية : ٩٥

الدولة الزيارية : ١٥٢ ، ١٨٦ ،

الدولة الطاهرية : ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،

الدولة المقدونية : ١١٠

الديالة : ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،

الراء

الراوندية : ١٦ ، ٣٤

الزاي

الزط : ٩٤

الزنادقة : ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ،

٥٩ .

الزنج : ١١٠ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،

١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،

١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٥ ،

١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٥٥ ،

١٦٥ .

الحاء

الحدانيون : ١٥٠ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٩٩ ،

٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،

٢١٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩

الخطاط : ١٩٤

الخاء

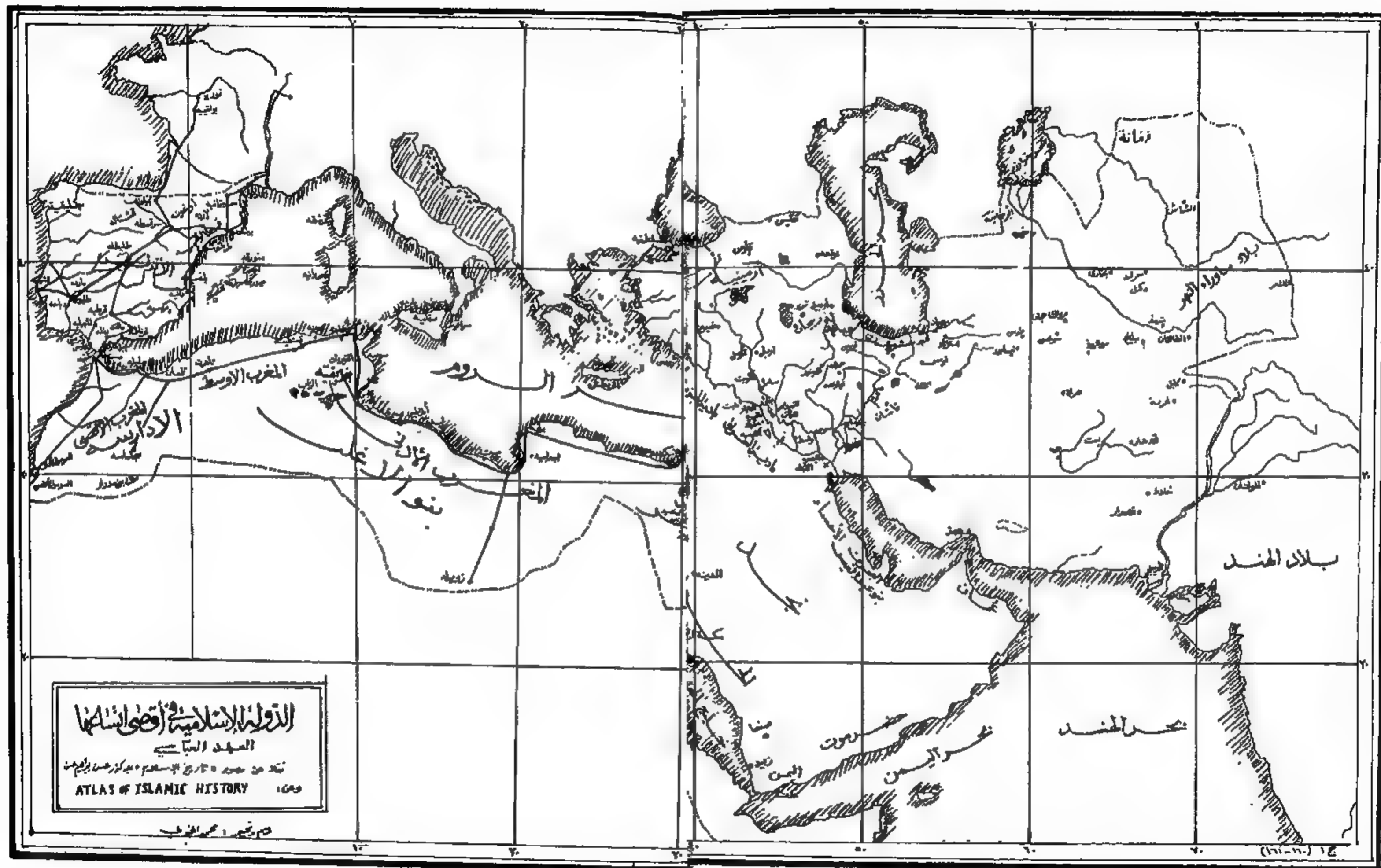
الخرمية : انظر البابكية .

الخوارج : ٢٩ ، ٥٨ ، ٧٩ ، ١٢٣ ، ١٣٧ ،

١٤٢ ، ١٦٦ ، ٢٠٠ ، ٢١٠

الزبدقة : ٤٢ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ١٣٣ ،	الصاد
١٣٧	الصابئة : ٢٣٦
الزركيون : ٢٢٧	الصفارون : ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ :
الزيادية (انظر الدولة الزيادية) ،	١٦٦
الزيارية (الدولة والإمارة) : ١٥٢ ، ١٨٦	الصليبيون : ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣
الزيدية : ٥١ ، ١٢٢ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،	
٢٢٨ ، ٢٢٩	الضاد
الزيديون : ١٥١ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ٢٢٨ ،	الضمان : ١٩٣
٢٢٩	
السين	الطاء
الساسانيون : ١٨٧	الطاهرية (انظر الدولة الطاهرية)
السامانيون : ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٢	الطاهريون : ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٤
السبعية : انظر الإسماعيلية	الطولونيون : ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٦٦
السبئية : ١٥٣	
سدّ البثوق : ١٩١	العين
السريانية : ٢٣٦	العيّارون : ١٣٦ ، ١٦٣ ، ١٩٦
السلاجقة : ٤٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٣	عبد القيس (بنو عبد القيس) ،
السند هند (كتاب) : ٢٤٠ ، ٢٤٩	
الشين	الغين
الشطّار : ١٣٦ ، ١٦٣	الغنوصيّة : ٢٣٠
الشعوبية : ٥٣	
الشيعة : ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٧ ،	الفاطميون : ١٥٠ ، ١٦٣ ، ١٨٤ ، ٢٠٤ :
٦٥ ، ٨٨ ، ١٣٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ،	٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،
٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢	٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،

المضريون : ١٧ ، ٢٤	٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
المعتزلة : ١٠٠ ، ١٠٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤١	٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
المقدونية (انظر الدولة المقدونية) ،	٢٣٢ ، ٢٣٣ ،
المقدونيون : ٢٠١	الفتوة : ١٩٦
الماليك : ٢٥٩	الفراغنة (أهل فراغنة) : ١١٨
المنطق الأرسططاليسي : ٢٣٢ ، ٢٥٦	
المهالبة : ١٦	القاف
الموالي : ١٦ ، ١٨ ، ٤٥	القرامطة : ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،
	١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،
النون	١٦٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،
النبط : ١٥٥ ، ١٥٩	٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،
النيروز العضدي : ١٩٥	٢١٧ ، ٢٢٨
	القيسية : ١٧ ، ٩٤
الهاء	
الهاشمية : ١٥ ، ١٥٣	الكاف
	كتامة (قبيلة) : ٢٠٨
الواو	الكسرويون : ٢٧
الوقف : ١٦٩	كنيسة القيامة : ٨٣ ، ٢٢٣
الوقفية : (انظر الاساعيلية)	الكيسانية : ١٥ ، ١٥٣
الياء	الميم
اليانية : ١٧ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٧	المانوية : ١٦ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٢٤٠
اليونانيون : ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ،	المتصوفة : ١٤٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠
٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤	مرصد مراغة : ٢٤٩
	المزدكية : ٢٤ ، ٩٦ ، ٢٤٠



رابعاً : فهرس الموضوعات

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
المقدمة	٥	الطولونيون بمصر والشام	١٤٥
مصادر تاريخ العهد العباسي	٨	الدولة الإخشيدية في مصر والشام	١٥٠
الثورة العباسية وسقوط بني أمية	١٤	الدولة الزيادية في اليمن	١٥٠
توطيد الحكم العباسي	٢٨	الزيرية في طبرستان وجنوبي بلاد اليمن	١٥١
نظام الحكم في العهد الأول العباسي	٤٢	الدولة الزيرية في اليمن	١٥٢
عصر المهدي والمهدي	٤٩	حركة القرامطة	١٥٣
المهدي	٥٥	عودة سلطة الخلافة إلى حين	١٦٥
عهد الرشيد	٥٧	تقهقر سلطة الخلافة مرة أخرى	١٧١
العهد الأول للرشيد	٦٤	خلافة القاهرة	١٨٠
العهد الثاني للرشيد	٧٩	خلافة الرازي	١٨١
الصراع بين الأمين والمأمون	٨٥	تقدم الحضارة العربية الإسلامية	١٨٣
عصر المأمون	٩٠	حكم بني بويه في العراق	١٨٥
تقلص سلطة الخلفاء العباسيين	٩٨	المعدانيون	١٩٩
تضعف الخلافة العباسية	١١٦	الفاطيون	٢٠٦
ثورة الزنج	١٢١	آراء عامة عن عصر الحكم الشيعي	٢٢٨
النزعات الاستقلالية عن الدولة العباسية	١٣١	تكون الثقافة الإسلامية العربية	٢٣٤
الدولة الطاهرية	١٤٠	أثر العرب في العلم	٢٤٣
الصفارون	١٤٢	الحضارة المادية في عصر الخلافة العباسية	٢٥٧
السامانيون في بخارا	١٤٣		

الدكتور يوسف الش

(١٣٢٩ - ١٣٨٧ هـ = ١٩١١ - ١٩٦٧ م)

أول من تخصص في تنسيق الكتب والوثائق في سورية . ولد في طرابلس الشام ودّرس في معهد الوثائق والشروط بباريز . وعين محافظاً لدار الكتب الظاهرية بدمشق فكث ما يقرب من عشر سنوات نسّق فيها كتبها المطبوعة والمخطوطة ووضع فهرساً في مجلد للمخطوطات التاريخية التي تحويها الدار المذكورة . وانتدب في جامعة العربية بالقاهرة ، فأنشئ في أيامه « معهد المخطوطات » وتولى إدارته وقام برحلة من أجل طوّر بها كثيراً من المخطوطات . وساد إلى سورية فعين أميناً لجامعة دمشق (سنة ١٩٥٠ - ٥١) مديراً للإذاعة السورية (١٩٥١ - ٥٢) فاستأذا بكلمة الشريعة للتاريخ واللغة الفرنسية (١٩٥٥) فمعيداً لها . وتوفي بدمشق . خلف مؤلفات مخطوطة ومطبوعة ، منها « المكتبات العامة ونصف السامة في العراق وسورية ومصر في القرون الوسطى - ط » بالفرنسية ، قدمه جامعة السوربون بباريس ونال به درجة دكتوراه الدولة ، و « فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية : التاريخ وملحقاته - ط » و « قصة عبقرى - ط » رسالة في سيرة الخليل بن أحمد الفراهيدي ، و « الخطيب البغدادي ، مؤرخ بغداد ومحدثها - ط » و « الدولة العزبية ، سقوطها - ط » ترجمه عن فلهاوزن . (الأعلام للزركلي)